

آلان مابانكو

رواية

زجاج مكسور

ترجمة وتقديم: عادل أسعد الميري

سلسلة الجوائز
126

الهيئة المصرية العامة للكتاب

زجاج مكسور

رواية

تأليف: آلان مابانكو

ترجمة وتقديم: عادل أسعد الميرى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٤

مابانكو، آلان، ١٩٦٦ ـ ......

زجاج مكسور: رواية/ تأليف: آلان مابانكو؛
ترجمة: عادل أسعد الميرى. ـ القاهرة: الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.

٣٠٠ص؛ ٢٣ سم.

تدمك ٨ ٥٩٧ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الإفريقية.

أ ـ الميرى، عادل أسعد (مترجم)

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٥٣٠/ ٢٠١٣

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 597 - 8

ديوى ٨٩٢،٣

• الكتاب: زجاج مكسور
Verre Cassé

• تأليف: آلان مابانكو
Alain Mabanckou

• ترجمة: عادل أسعد الميرى

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• الطبعة الأولى ٢٠١٤.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

مقدمة

أولا: البلد/ الكونغو

واحدة من أكبر الدول الإفريقية حجمًا، وتنقسم حاليا إلى جزءين، الكونغو الشمالى الذى كان سابقًا مستعمرة فرنسية، والكونغو الجنوبى الذى كان سابقًا مستعمرة بلجيكية، فلو ضممت الجزءين الى بعضهما لأصبح الكونغو هو أكبر بلاد إفريقيا حجمًا من حيث المساحة، فالجنوبى حوالى مليونين و٣٠٠ ألف كم مربع، والشمالى حوالى ٣٣٠ ألف كم مربع، أما والبلد مقسّم إلى جزءين، فبعد تقسيم السودان يعتبر الجزء الجنوبى والمعروف حاليا باسم جمهورية الكونغو الديمقراطية الشعبية ثانى بلاد إفريقيا من حيث المساحة بعد الجزائر، ويعرف الجزء الشمالى حاليا باسم جمهورية الكونغو وكذلك باسم الكونغو برازافيل على اسم عاصمته، ويعرف الجنوبى هو الآخر بأسماء منها الكونغو كينشاسا على اسم عاصمته، وكذلك عرف باسم زائير خلال الربع الأخير من القرن العشرين.

تاريخ الاستعمار الأوروبى فى الكونغو هو تاريخ تكالب الدول الأوروبية على استغلال ثروات إفريقيا. باختصار شديد منذ بدأت

محاولات البحّارة البرتغاليين الدوران حول القارة الإفريقية واكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٢ وصولا إلى الهند وسفن أوروبا تتوقف عند سواحل الكونغو، وهكذا دخلت الديانة المسيحية الكاثوليكية إلى الكونغو فى أوائل القرن السادس عشر، وبنت البرتغال عدداً من الكاتدرائيات والكنائس فى المدن الكبيرة، حاليا نسبة المسيحيين بين السكان هى ٧٥٪.

إلا أن ملامح المأساة بدأت مع بداية تعمير الأمريكتين الشمالية والجنوبية بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، أى بشكل تقريبى من ١٦٠٠ إلى ١٨٥٠ عندما بدأ عصر الاسترقاق، وتم خطف مئات الآلاف من الشباب الأسود من سواحل إفريقيا لنقلهم كالحيوانات فى مراكب للعمل كعبيد أرض (أقنان) فى استزراع ملايين الأفدنة فى بلدين سيعرفان لاحقا باسم الولايات المتحدة الأمريكية فى أمريكا الشمالية، والبلد الآخر باسم البرازيل فى أمريكا الجنوبية، فلو عرفنا أن نسبة السود من أصول إفريقية فى هذين البلدين تصل الآن الى حوالى ٢٠٪ وأن تعداد السكان فى الولايات المتحدة الأمريكية تعدّى ال ٣٠٠ مليون وفى البرازيل يقترب من ال ٢٠٠ مليون، فإن عدد السكان السود فيهما قد يصل إلى حوالى ١٠٠ مليون نسمة.

فى عام ١٨٧٨ كلف ملك بلجيكا ليوبولد الثانى أحد المستكشفين البريطانيين المعروف باسم ستانلى بإنشاء مراكز حراسة لحماية مصالح بلجيكا الاقتصادية بطول نهر الكونغو عند مناطق تعدين النحاس والذهب والماس ومناطق الزراعات المهمة ومناطق تجميع المطاط من الغابات، وهى المراكز التى تحولت فيما

بعد إلى مدن كبيرة، أكبرها هى المدينة التى حملت اسم مدينة ليوبولد (ليوبولد فيل) وتعرف حاليا باسم كنشاسا، وقد وصل عدد سكانها فى أوائل القرن الواحد والعشرين إلى حوالى ستة ملايين نسمة، فى حين يصل تعداد (برازافيل) عاصمة الجزء الشمالى بالكاد إلى ثلاثة ملايين نسمة.

كانت فرنسا قد اكتفت فى صراعها الاستعمارى مع بلجيكا، فى نهايات القرن التاسع عشر، بالجزء من البلاد الواقع إلى شمال نهر الكونغو الذى ظل مستعمرة فرنسية حتى سنة ١٩٦٠ عندما حصل الجزءان معا على استقلالهما، ضمن عشرات البلدان الإفريقية التى تحررت من ربقة الاستعمار على مدار السنوات بين منتصف الخمسينيات ومنتصف الستينيات من القرن العشرين، إلا أن الجزء الفرنسى لم يكن يمثل إلا حوالى ١٥ ٪ من المساحة الكلية للكونغو وأقل من ٥٪ من إجمالى السكان، فلو قسنا الأوضاع قديما بالأرقام المتوفرة حاليا سنجد أن الكونغو الجنوبى به حاليا أكثر من ٥٠ مليون نسمة فى حين لا يعيش فى الكونغو الشمالى إلا أقل من ٣ ملايين نسمة.

من بين الأحداث الشهيرة فى التاريخ الحديث للكونغو، لجوء الجنرال ديجول خلال الحرب العالمية الثانية خاصة بين ١٩٤٢ و ١٩٤٣ إلى (برازافيل)، وإعلانها عاصمة لفرنسا الحرة وهو الوقت الذى لجأ فيه آلاف الفرنسيين الى هذا البلد الإفريقى هربا من جحيم النازى فى فرنسا المحتلة، وقد حدث نفس الشىء فى الجزء الجنوبى، حيث لجأ الآلاف من البلجيكيين إلى (ليوبولدفيل) هربا من جحيم الحرب.

أما بعد الاستقلال سنة ١٩٦٠، فقد أدّت الصراعات القبلية والصراعات على السلطة إلى أزمات عديدة، منها مثلا الصراع بين رئيس وزراء الكونغو الجنوبى باتريس لومومبا ورئيس جمهوريتها فى ذلك الوقت واسمه كاسافو بسبب موالاة الأخير لبلجيكا، ثم قيام الجنرال موبوتو بالانقلاب على كاسافو سنة ١٩٦٥ وبقاؤه رئيسا للبلاد ٣٢ سنة حتى انقلب عليه الجنرال كابيلا سنة ١٩٩٧، ثم اغتيال كابيلا سنة ٢٠٠١ وحلول ابنه جوزيف كابيلا مكانه كرئيس للكونغو الجنوبى حتى الآن (٢٠١٢).

هناك كذلك أزمة انفصال إقليم كاتانجا الشمالى الغنى بالبترول بين سنتى ١٩٦٠ و١٩٦٧ وكان المسئول عن هذه الحركة هو الجنرال تشومبى، وكانت مصر عبد الناصر بدورها الإفريقى تحاول فى تلك السنوات من ستينيات القرن العشرين أن تلعب دورا قياديا فى حل تلك المشاكل لكونها بلدا إفريقيا كانت ثورته على الإنجليز واستقلاله المبكر نموذجا يحتذى فى القارة كلها.

ولا ينبغى أن نترك تلك الفترة من تاريخ البلاد دون أن نذكر أن بلجيكا حاولت التدخل فى شئون الكونغو الجنوبى حتى بعد الاستقلال أى بين ١٩٦٠ و١٩٦٥؛ إذ ساندت كاسافو الموالى لها ووقفت ضد المناضل لومومبا الذى كانت له شعبية كبيرة لدى أهل البلاد، فقبضت عليه وأخذته فى طائرة حربية وألقت به من الطائرة فى أرض كاتانجا ذلك الإقليم الشمالى المنفصل. صحيح أن حادث الإلقاء حيا من الطائرة لم يتأكد أبدًا ولكن كيف وصلت جثة لومومبا إلى كاتانجا؟ الشىء المؤكد هو أن الجنرال تشومبى صاحب الإقليم المنفصل الموالى هو الآخر لبلجيكا عثر على الجثة وأخرج منها الكبد وطبخه وأكله. وهى للأسف الشديد ممارسات كانت

منتشرة فى تلك البلاد، فعندما انقلب الأوغنديون على عيدى أمين سنة ١٩٧٤عثروا فى ثلاجات قصره على جثث أطفال مجمّدة ومعدّة للشواء، وقد أصدرت مصر عبد الناصر طابع بريد يحمل صورة لومومبا وتحته عبارة شهيد الاستقلال تخليدا لذكراه.

تظل الصراعات القبلية تمزّق الكونغو خاصة الجمهورية الديمقراطية الشعبية الجنوبية، فبسبب وجود الكثير من الثروات المعدنية فى مناطق شرق البلاد تحاول القبائل فى تلك المناطق الانفصال عن الحكومة المركزية وهكذا فمنذ سنة ١٩٩٧ وهناك صراع عسكرى بين الحكومة المركزية، وقبائل شرق البلاد التى تعاونها قوات من أوغندا ومن رواندا، ولا أحد يعرف بدقة من أين تأتى تلك القبائل بالسلاح ولا بتكاليف مرتبات مرتزقة أوغندا ورواندا، لك الله يا إفريقيا.

عدا التاريخ يمكننا أن نتحدّث قليلا عن الجغرافيا، فمثلا يعتبر نهر الكونغو خامس أطول أنهار العالم بعد النيل والمسيسيبى والأمازون ويانجتسى، ويبلغ طوله ٤٦٦٧ كيلومترًا وينبع من هضبة وسط إفريقيا حيث تسقط كميات غزيرة من الأمطار الاستوائية ويصب فى المحيط الأطلسى وتقع على ضفتيه أهم المدن وأكبرها وهو الذى يقسم البلاد إلى جزءين أحدهما إلى الشمال منه والآخر إلى الجنوب منه، وهو الذى يقسم العاصمة القديمة للبلاد هى الأخرى إلى جزءين، الجزء الأصغر منهما هو الشمالى (برازافيل)، والجنوبى هو مدينة (كينشاسا).

ما زال أغلب سكان البلاد، حوالى ٧٠٪ منهم يعيشون فى المناطق الريفية، التى تعتمد فى الزراعة على مياه نهر الكونغو

وكذلك على كميات كبيرة من الأمطار الاستوائية، فيزرعون الأرض محصولات غذائية أهمها الذرة الصفراء[1] وكذلك الأرز ونبات يعرف باسم المنهوك (كاسافا) ويستعمل هذا النبات مع الذرة فى صنع الخبز، وهكذا تصبح الوجبة الرئيسية لفقراء البلاد هى عصيدة كل هذه النباتات معا بالإضافة إلى صلصة الطماطم المتبّلة، وتضاف إليها الأسماك النهرية كمصدر للبروتين عند المقدرة.

بالمناسبة ما زالت مناطق شاسعة من البلاد هى مناطق غابات عذراء لم يضع فيها أى إنسان قدمه على الإطلاق، وهى الغابات التى تكثر فيها حيوانات من أنواع القرود خاصة الغوريلا والشمبانزى، وهناك ملايين الرؤوس من الحيوان المعروف باسم الحمار الوحشى[2] المخطط جلده بخطوط متوازية، كما يكثر فى مياه النهر التمساح وفرس النهر (المعروف فى مصر باسم سيد قشطة). وتوجد فى الكونغو زرافة قصيرة الرقبة لا توجد فى غيرها من البلاد وتعرف فى اللغة المحلية باسم (الأوكابى).

بالإضافة إلى كل ما سبق إليكم بعض المعلومات الأخيرة:

- اللغة المحلية التى يتكلمها السكان تسمى البانتو ولكنهم يتكلمونها ب٢٠٠ لهجة مختلفة، واللغة الرسمية فى البلاد منذ نهايات القرن ١٩ هى الفرنسية، وهى اللغة التى تستعمل فى المكاتبات الحكومية ويدرس بها الطلبة العلوم والتاريخ والجغرافيا فى مدارس الحكومة، لذلك يسهل على الأذكياء

---

(١) العويجة/ السورجو.

(٢) zebra.

منهم الحصول على الثانوية العامة الفرنسية (البكالوريا) واستئناف الدراسة فى الجامعات الفرنسية.

- للأسف لا تمثل المرأة فى الوظائف الحكومية إلا نسبة ضئيلة جدا قد لا تصل إلى ١٪ وهى تقريبا نفس نسبة مدارس البنات إلى مدارس الأولاد فى عموم البلاد. فما زال الطريق طويلا أمام تعليم المرأة ومشاركتها فى الحياة العامة، لذلك هناك نظرة دونيّة إلى المرأة فى المجتمع الذكورى بشكل عام.

- كل سكان الريف وأغلب سكان المدن من الفقراء يعيشون فى منازل مصنوعة من الطين وجذوع النباتات بأسقف من قش أو بألواح معدنية حسب الإمكانيات المالية للأسرة مع وجود بعض أحياء الأغنياء الذين يعيشون فى شقق حديثة.

- المرتبات الحكومية متدنّية جدا ولا تناسب تكاليف الحياة العصرية، فيبحث القادر من الشباب عن وظائف أخرى بعد الظهر أما كبار السن فيشحذون فى الشوارع، والجهاز الإدارى فاسد تماما لانتشار الرشوة والمحسوبية وتبادل المصالح.

- هناك مشاعر متناقضة جدا لدى سكان البلاد فيما يتعلق بفرنسا فهم يحبون اللغة والثقافة الفرنسية ويودّون لو تمكنوا من السفر للدراسة أو للعمل فى فرنسا أو فى بلجيكا الناطقة بالفرنسية، أو لو تمكن الواحد منهم أن يتزوج من فرنسية أو بلجيكية ولكنهم يكرهون التاريخ الاستعمارى لفرنسا ولبلجيكا، وهكذا حدث على زمن الرئيس موبوتو موجة عداء لفرنسا أدّت إلى تركهم للأسماء الفرنسية التى كانوا يتسمّون بها وعودتهم إلى استعمال الأسماء المحلية، مثال على ذلك الرئيس موبوتو

نفسه الذى كان اسمه جوزيف ديزيريه موبوتو فغيره إلى موبوتو سى سى سيكو.

ثانيا: المؤلف/ آلان مابانكو

وجدت على الإنترنت مجموعة من المقالات التى تتحدث عن المؤلف آلان مابانكو وعن أعماله الأدبية وعن هذه الرواية بالذات (زجاج مكسور)، بالإضافة إلى حوارات معه نشرت غالبا فى صحف ومجلات فرنسية بعد فوز هذه الرواية بجائزة الفرنكوفونية للعام ٢٠٠٥، وهى الجائزة التى تقدّم لأفضل عمل روائى مكتوب باللغة الفرنسية لمؤلف ليس من أصول فرنسية.

ولد المؤلف سنة ١٩٦٦ فى مدينة برازافيل عاصمة جمهورية الكونجو التى كانت مستعمرة فرنسية حتى سنة ١٩٦٠، وكان والده يعمل موظف استقبال فى أحد فنادق المدينة، أما والدته فلم تكن تعمل، بل حتى إنها لم تحصل على أى قدر من التعليم، درس المؤلف فى مدارس مدينته حتى حصل على الثانوية العامة الفرنسية (البكالوريا) ثمّ درس الحقوق فى جامعة (ماريان جوابى) بنفس المدينة.

لتفوقه تمكن من الحصول على فرصة للسفر إلى فرنسا لدراسة الحقوق فى جامعة (بارى دوفين) بباريس؛ حيث حصل على دبلوم دراسات عليا فيها سنة ١٩٩٣، تمكن بعد ذلك من الحصول على عمل فى القسم القانونى لشركة مياه فرنسية، حيث ظل يعمل ويقيم فى باريس عشر سنوات (١٩٩٣/ ٢٠٠٢) وهو ما مكنه من استئناف الدراسة فى الجامعات الفرنسية لمادة الأدب الفرنسى

والاطلاع أولا بأول على كل ما تخرجه المطابع الباريسية، رغم أنه حتى ذلك الوقت لم يكن يضع فى اعتباره على الإطلاق أن يكون له ذات يوم كل هذا المستقبل الأدبى.

خلال تلك السنوات العشر فى باريس شارك الشاب الإفريقى فى إعداد وتقديم برامج ثقافية لوسائل الإعلام المختلفة إذاعية وتليفزيونية وصحفية لحساب شركة (ميديا تروبيكال) وهى شركة تُعنى بالوسائط الثقافية، التى تعالج المسائل الخاصة بإفريقيا الاستوائية وكانت برامجه ومقالاته تهتم بالثقافة الإفريقية السوداء.

فى نفس تلك السنوات العشر قدّم خمسة دواوين شعرية، صدرت كلها فى باريس وباللغة الفرنسية.

- سنة ١٩٩٣ صدر الديوان الأول (يوم بيوم).
- وفى نفس السنة ١٩٩٣ صدر الديوان الثانى (استنزاف اليوم التالى) وحصل على جائزة (جان كريستوف) من جمعية الشعراء الفرنسيين وكان هذا هو أول اعتراف رسمى بموهبته الأدبية.

تشير أشعاره الأولى تلك إلى حنينه إلى فترة الطفولة وحنينه إلى الأم التى تركها فى أفريقيا وإلى حب الوطن بكل ما به من عيوب، وإلى المشاكل المزمنة التى تعانى منها إفريقيا المعاصرة، تلك المشاكل التى قد تبدو أحيانا كما لو كانت بلا حلّ وإلى الشعور بأنه فى فرنسا، ورغم كل هذه الحضارة إنما هو يعيش كما لو كان منفيا وإلى العمل على استعادة ذكريات فترات العمر السابقة واستعمالها كمادة أدبية، هذه هى الأفكار الرئيسية لأشعاره الأولى عندما لم يكن قد تخطى بعد سن الثلاثين.

- سنة ١٩٩٥ صدر ديوانه الثالث (أسطورة التنقل المستمر وعدم الاستقرار).
- سنة ١٩٩٧ صدر ديوانه الرابع (والأشجار أيضا تزرف الدموع).
- سنة ١٩٩٩ صدر ديوانه الخامس (عندما يعلن صياح الديك فجر يوم جديد).

وكلها أكدت موهبته الأدبية ولفتت بمزيد من الانتباه النظر إلى موهبته نظر الأوساط الثقافية الفرنسية، والأوساط الثقافية الناطقة بالفرنسية خارج فرنسا (الفرانكوفونية).

ولم تقتصر موهبته الأدبية على الإنتاج الشعرى بل من الغريب أنه توقف عن كتابة الشعر، منذ إصدار ديوانه الخامس والأخير وبدأ فى التأليف الروائى وقد أصدر حتى الآن (٢٠١٢) ثمانى روايات

- سنة ١٩٩٨ صدرت روايته الأولى بعنوان (أزرق أبيض أحمر) وهى بالمناسبة ألوان الراية الفرنسية وقد حصلت على الجائزة الأدبية الكبرى لإفريقيا السوداء.
- سنة ٢٠٠١ صدرت روايته الثانية، وقد استوحاها من واقع معرفته بجزر الأنتيل فى البحر الكاريبى، حيث تدور أحداثها وعنوانها (الله وحده يعرف كيف أنام).

انتقل مابانكو سنة ٢٠٠٢ من الحياة فى فرنسا إلى الحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يعيش إلى الآن (٢٠١٢)، وحيث عمل مدرسا جامعيا للأدب الفرنسى الفرانكوفونى أى الأدب الذى يكتبه بالفرنسية أدباء ليسوا من أصول فرنسية أولا فى جامعة ميتشجان/ أوهايو ثم حاليا فى جامعة لوس أنجيلوس/ كاليفورنيا.

- سنة ٢٠٠٢ صدرت روايته الثالثة بعنوان (أحفاد فيرسين جيتوريكس) وهو اسم قائد فرنسى حرّر بلاده من الاحتلال الرومانى، فى القرن السادس الميلادى، وتدور أحداث الرواية فى الكونغو التى كانت قد سقطت فى تلك السنة فى قبضة زعماء عصابات القتل والنهب، فى حرب أهلية مدمّرة.
- سنة ٢٠٠٣ صدرت روايته الرابعة التى تحمل عنوان (الإفريقى المختل العقل) وتحكى قصة رجل قتل محترف.
- فى سنة ٢٠٠٥ صدرت الرواية الخامسة التى نحن بصددها هنا رواية (زجاج مكسور)، وقد حصلت على جائزة الفرنكوفونية الدولية لسنة ٢٠٠٥.
- سنة ٢٠٠٦ أصدر روايته السادسة (ذكريات بور ابييك)، وحصلت على جائزة (رونودو) لنفس العام، وفيها يعود إلى ذكريات الطفولة فى مدينة برازافيل؛ حيث اعتادت الأمهات على إخافة أبنائهم بالحديث عن الخنزير الذى يأكل الأطفال فى الشوارع عندما يخرجون وحدهم فى المساء، ويقول مابانكو إن استعمال المعتقدات الشعبية القائمة على الخرافات التى قد يبدو بعضها سلبيا فى تأثيره على المجتمعات الإفريقية يستلزم أن تترك القارئ نفسه يستكشف هذا الجانب السلبى، لأنك لا يمكن أن تنتقد بشكل مباشر تلك المعتقدات التى تمثل عماد الثقافة الشعبية المحلية. ويمتلئ هذا العمل الروائى (بور ابييك) بالكثير من النقد من هذا النوع.
- سنة ٢٠٠٩ صدرت الرواية السابعة (البازار الأسود).

● سنة ٢٠١٠ صدرت الرواية الثامنة (غدا سأكون فى العشرين من عمرى)، وحصلت على جائزة (جورج براسابنس) كما أنها الرواية صاحبة الفضل على مابانكو فى حصوله على وسام جوقة الشرف، من الرئيس الفرنسى نيكولا ساركوزى فى نفس العام.

نلاحظ غزارة إنتاجه الأدبى سواء فى الشعر أو فى القصة كما أن أغلب أعماله الأدبية حصلت على جوائز أدبية سواء منها الدواوين الشعرية أو الأعمال الروائية.

● فى يناير ٢٠١٢ نشرت له مجموعة مقالات بالفرنسية فى كتاب بعنوان (نحيب الإنسان الأسود)، وبه تأملات حول قضية الإنسان الأسود بشكل عام بين كونه ضحية لأحداث التاريخ وكونه غير قادر إلا على توجيه الاتهامات إلى غيره من البشر، مع تركيز خاص على وضع الإنسان الأسود فى فرنسا والوضع الذى تعانى منه القارة الإفريقية السوداء فى العالم المعاصر.

فى أحد الحوارات المنشورة على الإنترنت يتحدث مابانكو عن أسلوبه فى كتابة الروايات، قائلا إنه لا يكتب أبدا وفق خطة مسبقة بدليل أنه أثناء الكتابة لا يعرف ماذا سيحدث مسبقا لشخصياته فى الصفحات اللاحقة، ويؤكد أنه رغم كثرة إنتاجه مما قد يوحى بأنه يستعمل (طاحونة أفكار) مسبقة فى إنتاج رواياته أى يكفى أن يضع فيها (دقيق) شخصياته فى إطار أفكار سابقة التجهيز لتخرج من الطاحونة فى شكل رواية يؤكد مابانكو أنه أبعد ما يكون عن هذا، فليس هناك فى رواياته كلها ما يمكن التنبؤ به، بل هى باستمرار سلسلة من المفاجآت المتلاحقة ويقول إن ذلك

الإحساس بالخطر الدائم أثناء الكتابة هو الذى يجعل المؤلف منتبها ويجعل العمل مشوّقا.

ويضيف فى موضع آخر (ثمّ إننى حتى لو كنت أفتح دولاب ملابس طفولتى ومراهقتى بحثا عن الإلهام، فإنى كاذب كبير وأحب جدا المبالغات، وأحب كذلك إعادة تكييف شخصياتى مع المتغيرات التى تحدث بين صفحة وأخرى) ويقول (إن القدرة على الكتابة الغزيرة هى بين أشياء أخرى القدرة على استعادة الذكريات بكل تفاصيلها وكيفية استعمالها وإعادة استعمالها بحرفية كاتب محترف).

ثالثا: الرواية/ زجاج مكسور

تدور أحداث هذه الرواية فى الكونغو فى الزمن الحالى أو قبل هذا الزمن الحالى ببضع سنوات، فلنقل مثلا إن زمن الرواية هو بين نهاية القرن العشرين، وبداية القرن الواحد والعشرين، فليست هناك فى النص كله أى تواريخ يمكنها أن تدلنا بوضوح وتحديد على زمن الرواية، باستثناء بعض المتغيرات السياسية فى تاريخ الكونغو الحالى أو فى تاريخ العالم الحالى فنحن نتحدث فى النص مثلا عن القنوات الفضائية التليفزيونية وعن صراعات سياسية شبيهة بالوضع القائم حاليا فى هذا البلد.

نحن فى مدينة (برازافيل) عاصمة الكونغو الشمالى الذى كان سابقا مستعمرة فرنسية وتقع على الضفة الشمالية لنهر الكونغو فى الجهة المقابلة لمدينة (ليوبولد فيل)، عاصمة الكونغو الجنوبى الذى كان سابقا مستعمرة بلجيكية، وتقع على الضفة الجنوبية

لنفس النهر، فى نفس موقع العاصمة الشمالية وذلك لأن هاتين المدينتين كانتا فى الأصل مدينة واحدة، وكانت الدولتان العظميان فرنسا وبلجيكا، قد اقتسمتا الكونغو واقتسمتا عاصمته القديمة وخلقتا بذلك الكثير من المآسى والكوارث التى ما زال أهل الكونغو سواء الشمالى أو الجنوبى، يعيشون تبعاتها، سحقا للاستعمار.

فى هذه الرواية نظل طوال الوقت ننصت إلى حكايات الناس الذين يتحدثون إلى الراوى الجالس معهم فى أحد المشارب (البارات) فى أحد الأحياء الشعبية فى العاصمة (برازافيل)، ويسمى حىّ الثلاثمائة (الترواسان)، بدون أن نعرف طوال النص معنى هذا الرقم. فى المشرب يلتقى الناس من جميع الطبقات ويشربون فينسون أنفسهم ويحكون. وحكايات هؤلاء الناس هى لوحات صغيرة تنضم إلى اللوحة الكبيرة فى الإطار العام الواحد، لتشكل لوحة من الفسيفساء التى ترسم صورة للمجتمع، من خلال مئات التفاصيل الصغيرة فى حياة عشرات الشخصيات، أو يمكن استعمال عبارة لوحة شاملة بانورامية للمجتمع الكونغولى المعاصر بكل آلامه وآماله وأحزانه وضحكاته وعدا استعمال كلمتىّ (موزايكو) و (بانوراما) فقد استعمل بعض النقاد كذلك فى وصف هذه الرواية عبارة (معرض صور شخصية)(*).

ثم إن مما يميّز هذه الرواية الأسلوب الذى استعمله المؤلف بترك حرية الكلام لشخصياته التى تتحدّث طوال الوقت دون توقف (لتعيد وتزيد) فى نفس الموضوع، بمجرد أن تجد لها أذنا صاغية فإن البؤساء يتشوقون إلى لحظة ينصت فيها الآخرون إلى بؤسهم

(*) Portraits Gallery

لعل من بين المنصتين من يستطيع أن ينقذهم من آلامهم، وهكذا نجد أحيانًا مونولوجات[١] بطول بضع صفحات.

بالمناسبة فإن الراوى هو صديق شخصى لصاحب البار، وهو كذلك مدرّس متقاعد قد تعدّى سن الستين، ولذلك كان زبائن المكان يجدون سهولة فى البوح إليه بمشاكلهم وهم يعتقدون أنه، بفضل سنّه المتقدّم، وكذلك بفضل علمه قادر أن يساعدهم فى أزماتهم أو على الأقل أن يفهم تلك الأزمات لا أن يسخر منهم كما قد يفعل أغلب الناس عند الاستماع إلى مآسيهم.

هناك ملمح آخر يبدو واضحًا وضوحًا شديدًا بامتداد صفحات الرواية وهى القدرة الفائقة للمؤلف على السخرية الفكاهية الخفيفة اللاذعة من كل شخصيات العمل، وليست السخرية المريرة المريضة المتأزّمة بداية من شخصية رئيس الجمهورية قائد الجيوش الذى ينتظر مثلا بفروغ صبر أن تقوم حرب أهلية فى بلاده حتى يتمكن من كتابة مذكراته، إلى شخصيات مجلس وزرائه ومستشاريه الذين ينظرون بحسرة إلى العشرين عشيقة من مختلف الجنسيات اللائى يحتفظ بهن الرئيس فى قصره الرئاسى، إلى شخصيات بقية الناس العاديين من مرتادى المشرب مثل رجل البامبرز ورجل المطابع وامرأة الليل المتهالكة روبينات[٢] واسمها بالفرنسية هو الصيغة المؤنثة للكلمة الفرنسية التى تعنى صنبور، أى أننا لغويا يمكننا ترجمة هذا الاسم إلى

---

(١) (الكلمة لاتينية وتعنى مونو= مفرد/ ولوجو= كلمة أو كلام، والمصطلح mono-logue مونو+ لوجو= أن يتحدث شخص وحده لمدة طويلة)

(٢) Robinette

(صنبورة) وستعرفون سبب هذه التسمية عندما تقرأون قصتها فى أحد فصول الرواية رغم ما ستكتشفونه من سخرية لاذعة فى هذه التسمية ولم نعرف فى نهاية الأمر إن كان هذا هو اسمها الحقيقى أم أنه اسم شهرة؟

وبمناسبة الحديث عن الأسماء فإن عنوان الرواية (زجاج مكسور) هو الاسم الحقيقى لا اسم الشهرة لذلك المدرس الذى يقوم بدور الراوى، ثم نجد داخل الرواية أسماء شخصية أخرى شبيهة مثل (القوقع الحلزونى العنيد) وهو اسم صاحب المشرب و(ذئب السهوب) وهو اسم صاحب مشرب آخر فى مدينة أخرى فى دولة الكاميرون أو (جلد الخرتيت) وهكذا. فى واقع الحال إننا نجد هذه الظاهرة فى كل دول الحضارات القديمة، ففى مصر القديمة أو فى الصين القديمة كنا نجد أسماء شخصية مشتقة من أشياء الحياة، مثل (نبات الحقل) أو (شعاع الشمس) إلا أن الأسماء الرمزية التى استعملها المؤلف للدلالة على بعض شخصيات الرواية مثل (رجل البامبرز) أو (رجل المطابع) فإنها ليست أسماء شخصية بل هى أسماء شهرة.

ولأن المؤلف سمح لنفسه باستعمال عبارات بالعامية الفرنسية من وقت لآخر فقد سمحت لنفسى بفعل نفس الشىء، إذ استعملت فى مرات قليلة بعض العبارات بالعامية العربية المصرية التى كانت فى تلك الحالات القليلة أكثر قدرة على التعبير عن المعنى مما لو كنت قد استخدمت العبارة بالعربية الفصحى لذا لزم التنويه.

أخيرا أثناء قراءتى لهذه الرواية بغرض ترجمتها لسلسلة الجوائز سجلت الملاحظات التالية عليها فى كراسة ملاحظاتى،

وهى ملاحظات تم تسجيلها أثناء القراءة بترتيب ورودها فى النص الروائى:

- هناك الكثير من المعلومات التاريخية والجغرافية (أسماء مدن وقادة وأحداث سياسية) والمعلومات النباتية والحيوانية (كأسماء النباتات والحيوانات) والاجتماعية والعقائدية (كالمعتقدات الشعبية) التى تتناثر داخل العمل عن إفريقيا السوداء والحياة فى مدن وأرياف إفريقيا السوداء؛ حيث يجعلك المؤلف تشعر بوضوح أن لون بشرة أبنائها قد صبغ لون مستقبلهم.

- بعض أسماء القبائل الإفريقية وزعماء القبائل الإفريقية، ورؤساء الجمهوريات الإفريقية وحتى وردت أسماء بعض زعماء العصابات وقطّاع الطرق الإفريقيين.

- هناك الكثير من الملاحظات الساخرة الناقدة لأساليب الحياة البدائية المتخلفة فى بعض أرياف ومدن إفريقيا خاصة الكونغو، وهو البلد الذى عاش فيه المؤلف حتى سن الثالثة والعشرين قبل الانتقال للإقامة فى باريس.

- مظاهر العنف الشديد فى الحياة اليومية مثل ضرب الأزواج لزوجاتهم أو ضرب المواطنين فى أقسام الشرطة وفى السجون وعدم وجود أية عدالة أو قضاء، فيكفى أن زوجة ترغب فى التخلص من زوجها والتفرغ لعشيقها أن تدّعى أنه اعتدى جنسيا على ابنتهما، ليوضع هذا الزوج فى السجن لمدة أربع سنوات، دون محاكمة ودون دفاع، يغتصبه كل يوم زملاؤه فى الزنازين أو رجال حرس السجن أنفسهم.

- السخرية المريرة من الزمن الكولونيالى أى زمن الاستعمار الأوروبى منذ نهايات القرن ١٩ إلى منتصف القرن ٢٠، وكذلك السخرية من النظريات الاقتصادية الرأسمالية التى يحاول العالم الغربى إجبار الدول الناشئة على تطبيقها واستغلال البلاد لصالح أوروبا فى الوقت الحالى، ومنذ بداية القرن ٢٠ من ناحية مواردها المعدنية أو قبل ذلك منذ ١٦٠٠ وحتى ١٨٥٠ من ناحية خطف السكان فى المناطق الريفية وفى مناطق الغابات والأحراش لبيعهم فى أسواق العبيد فى الأمريكتين. يجعلنا المؤلف نشعر كأن أوروبا لا تفعل فى الحقيقة إلا ما هو فى مصلحتها المباشرة، ضاربة عرض الحائط بمصالح هذه الشعوب الإفريقية البائسة.

- السخرية المريرة من الرؤساء قادة الجيوش الذين يصلون إلى الحكم بانقلابات متتالية ويعيشون فى قصور فخمة بها حمامات سباحة وعشيقات من كل لون وصنف وتأتى إليهم المأكولات والمشروبات بالطائرة من باريس، فى حين يعيش أغلب السكان فى فقر مدقع داخل أحياء تنتشر فيها الأوبئة والأمراض بسبب انقطاع مياه الشرب، والتلوث الدائم للهواء.

- السخرية المريرة من رجال الكنيسة الكاثوليكية الذين يدّعى أغلبهم الفضيلة رغم ثرائهم الفاحش ويشير إلى استعمالهم لبعض البرامج التليفزيونية فى جمع المزيد من الأموال بحجة كونها تبرعات للفقراء، ويشير إلى علاقات بعضهم الداعرة.

- الإشارة فى عشرات الحالات إلى الثقافة الفرنسية وإلى أهمية إتقان اللغة الفرنسية وأنها الباب إلى الثقافة الحديثة، ولكن هناك كذلك تحذيرًا واضحًا ومتكررًا من عدم الوقوع فى إغواء الحياة فى فرنسا، فإن الفرنسيين لم يتخلصوا بعد مثلهم مثل غيرهم من الأوروبيين، من الاعتقاد فى تفوق العنصر الأبيض، ولذلك يكفى أن تذهب إلى فرنسا للحصول على العلم الحديث ثم تعود الى بلادك لتعيش فيها وتفيد أهل بلدك بعلمك رغم أن الحياة الشخصية للمؤلف لا تتبع هذه النصيحة؛ إذ إنه بعد أن عاش أكثر من عشرة أعوام فى باريس وحصل على العلم والشهرة بدلا من عودته إلى بلاده، قرر الهجرة إلى أمريكا حيث تقل مظاهر العنصرية العرقية(*) عنها فى أوروبا.

- هناك ما لا يقل عن ١٠٠ عنوان وردت داخل النص، لأعمال أدبية فرنسية روائية أو مسرحية أو شعرية تمت الإشارة إليها، والإحالة إليها وقد خدمت النص بإثرائه خاصة لمن يعرف محتوى تلك الأعمال. وسأذكر هنا فقط بعض الأمثلة: سانت اكسيبورى وروايته أرض البشر، مارجريت يورسنار وروايتها مذكرات آدريان، مقال الروائى إميل زولا المشهور فى دفاعه عن درايفوس والمعروف بكلمتىّ (إنى أتهم). حتى وردت إشارة إلى أحد مسلسلات الرسوم المتحرّكة للأطفال والتى يشاهدها الأطفال الفرنسيون فى تليفزيونات فرنسا وهى المعروفة باسم (لوقا المحظوظ).

(*) الإثنية ethhic.

● من ضمن الملحوظات الرئيسية فى هذه الرواية طريقة معالجة المؤلف لمسائل فى منتهى التفاهة ولكن بروح فى منتهى الجدية، مثل مسألة مباراة التبول بين روبينات وكازيمير.

عادل أسعد الميرى

زجاج مكسور

مجموعة الوريقات الأولى

(١)

لنقل إن صاحب المشرب المسمى (لو كريدى آ ـ فوا ـ يا ـ جيه) ومعناها أعطنى قرضا لزوم السفر، والذى سنذكره لاحقا باسمه المختصر (لوكريدى) قد وضع ذات يوم فى يدى كراسًا وطلب منى أن أملأه كتابة فهو يعتقد جازما أننى المسمى (زجاج مكسور)....... نعم هذا هو اسمى أستطيع أن أضع كتبا، وذلك لأنى ذات يوم كنت قد حكيت له مازحا قصة الكاتب المشهور الذى كان يحتسى الخمر مثل قطعة الإسفنج التى تتشرب الماء ثم يذهب بعد ذلك ليتمدد ثملا على أرضية الشارع فنبدأ هناك فى جمع أطرافه المبعثرة.

إذن لا تصح الممازحة مع صاحب المشرب، فهو يأخذ كل شىء مأخذ الجد؛ إذ إنه عندما وضع فى يدى ذلك الكراس ذكر لى على الفور وبوضوح تام أن هذا الكراس ممتلئ بالكلمات سيكون فى نهاية المطاف له وحده لا لأى أحد غيره، فغير مسموح لأى شخص آخر أن يقرأه عندئذ أردت أن أعرف لماذا كانت هذه المسألة على هذا القدر من الأهمية بالنسبة إليه، فأجاب أنه لا يريد لمشربه (لو كريدى) أن يختفى عن الوجود هكذا فجأة ثم أضاف أن أهل بلدنا

ليس لديهم الإدراك الكافى الذى يلزم للحفاظ على ذكرى الأشياء، وأن زمن الحكايات التى كانت ترويها الجدات طريحات الفراش قد ولى واندثر وأن الساعة منذئذ هى للكتابة، لأنها الشىء الذى يبقى، أما الكلمة المنطوقة فتذهب أدراج الرياح مثل الدخان الأسود أو مثل البول الذى تتبوله القطط الضالة فى أركان الشوارع.

كان صاحب مشرب (لو كريدى) لا يحب العبارات ذات الصيغ الجاهزة ولا الأمثال الشعبية من نوعية (إن موت رجل عجوز فى إفريقيا هو مثل احتراق مكتبة عامة) وعندما يسمع هذه الكليشيهات المعادة يغضب بشدة ويندفع قائلا (هذا يتوقف على عن أى عجوز نتحدث، فتوقفوا عن هرائكم، فأنا لم أعد أثق إلا فى الكلمة المكتوبة) ولهذا فقد قررت أنا، ومن أجل خاطر صاحب المشرب، أن أبدأ الشخبطة فى الكراس بكتابة أشياء متعجلة من وقت لآخر بدون أن أكون على الإطلاق واثقا مما سأتمكن من حكيه هنا على المدى البعيد.

ولكنى لا أخفى عليكم أن هذا الموضوع قد بدأ يعجبنى منذ بعض الوقت ومع هذا فقد أردت منذ البداية أن أبوح له بحقيقة أننى أحرص على حريتى فى الكتابة أى أننى لن أكون مجبرا فى أى يوم على كتابة أشياء لا تروقنى شخصيا، أى أننى لن أكتب إلا إذا كنت أريد أن أكتب وإلا إذا كنت قادرًا على الكتابة فليس هناك ما هو أسوأ من أن تكون مدفوعًا إلى أداء عمل رغما عن إرادتك، فأنا لست عبدا لصاحب المشرب وأنا فى الواقع أكتب كذلك لنفسى أى للذتى الخاصة. فإذا لم أكن قد صرحت له بكل هذا بمنتهى الوضوح لكان قد تخيل بعض الأشياء مثل أن يكون بمقدوره أن يدفعنى إلى العمل دفعا.

لكل هذه الأسباب سالفة الذكر فأنا لا أحب أن أكون فى مكانه فى اللحظة التى سيتصفح فيها هذا الكتاب لأول مرة، فأنا لم أحرص فى هذا الكتاب على مجاملة أى إنسان، وعندما ينتهى من قراءة كل هذا غالبا لن أكون زبونا دائما فى مشربه مثل ما عليه الحال الآن بل غالبا سأكون قد سحبت جسدى المتهالك إلى مكان آخر وأكون قد تحولت إلى هيكل عظمى، بعد أن أكون قد سلمت إليه خفية الكتاب الوثيقة، قائلا له (لقد تمّ إنجاز المهمة).

(٢)

يجب أن أشير أولا إلى تلك المسألة الجدلية التى كانت قد أثيرت عند مولد مشرب (لو كريدى) وأن أحكى قليلا عن المحنة الشديدة التى عاشها صديقنا صاحب المشرب فى الواقع فإنهم كما لو كانوا قد أرادوا أن يجعلوه يتأوّه ويتعذب حتى يطلق نفسه الأخير أو أن يكتب وصيّته ثم يموت وقد بدأ كل هذا العذاب مع رجال الكنيسة.

كان رجال الكنيسة قد لاحظوا تناقص أعداد المصلين المؤمنين فى الكنائس أيام الآحاد، فشنوا على صاحب المشرب حربًا مقدسة ضروسًا، وكانوا يجيئون إلى أمام المشرب، حيث يلقى كل منهم على عتبته بكتبه المقدسة التى هى غالبا أسفار العهد القديم فى نسخة أورشليم ثم بدأوا يقولون:

لو استمرت الأوضاع على ما هى عليه لن يكون هناك المزيد من القداسات فى هذا الجزء من المدينة ولن تكون هناك المزيد من حالات الترانس التى يدخل فيه المصلون المهتزون على إيقاع الغناء

الدينى فى حالات من الوجد الصوفى الروحانى، ولن يكون هناك روح قدوس ينزل من السماء على سكان ضاحية (ترواسان) التى يقع بها المشرب ليبارك سكانها ولن تكون هناك قرابين من الخبز المحمّص المقرمش اللذيذ ولن يكون هناك المزيد من النبيذ اللذيذ المسكّر الذى نقول لكم إنه دم المسيح، ولن يكون هناك فريق ترتيل من الصبية ولن تكون هناك أخوات تقيات ولا شموع ولا أموال زكاة ولا تناول من الأسرار الكنسية المقدّسة ولا حصص للتعليم الدينى ولا معمودية، لن يكون هناك المزيد من أى شىء، وهكذا سيذهب جميع سكان ضاحية الترواسان مباشرة إلى الجحيم، جميعهم سيذهبون إلى الجحيم وبئس المصير

ثم جاءت الضربة التالية القوية من نقابة الأزواج المخدوعين أى أولئك الذين تخدعهم زوجاتهم فى أيام عطلات نهاية الأسبوع، والإجازات الرسمية.

هؤلاء قالوا إنه لو أن زوجاتهم لم يعدن يقدّمن طعاما جيدا لهم ولأولادهم، ولم يعدن يحترمنهم كما كان يحدث من الزوجات تجاه أزواجهن فى العهد القديم فإن الذنب الأكبر فى هذا التدهور إنما يقع على عاتق مشرب (لو كريدى).

ثم قالوا إن الاحترام كان مهما فى الحياة الزوجية وأنه لم تكن هناك أفضل من الزوجات لاحترام الأزواج، لأنه هكذا كانت الأحوال منذ زمن آدم وحواء، وأن هؤلاء الصالحين من أرباب العائلات من الأزواج المخدوعين لا يفهمون لماذا ينبغى أن تحدث الآن ثورة على النظم القديمة، ولهذا السبب ينبغى على الزوجات قطع علاقاتهن

بعشاقهن وتتبع نصائح أزواجهن، هم قالوا كل هذا ولكن دون أى جدوى.

ثم جاء التخويف والتهديد والوعيد، من طرف إحدى الجمعيات الخيرية التى تقوم بتأديب وتهذيب مدمنى الخمور والمشروبات الكحولية السابقين الذين يبدو أنهم قد تابوا إلى الله، فتحولوا إلى شاربى ماء قراح أو فانتا أو عصير البرتقال أو عصير الرمّان، أو عصير الليمون الهندى، أو مشروب البيساب السنغالى، أو الكوكاكولا الخفيفة اللايت والمهرية من نيجيريا بعد أن يضاف إليها مسحوق أوراق القنب (الحشيش) الهندى.

هؤلاء الرجال الأصوليون المتطرفون ممن كانوا من بين المدمنين السابقين حاصروا المشرب لمدة أربعين يوما وأربعين ليلة، ولكن أيضا دون أى جدوى.

ثم جاءت الحركات الصوفية الروحانية لحماة الفضيلة والأخلاق القويمة التقليدية وهم من بين زعماء القبائل الذين جاءوا يحملون معهم تمائمهم وطلاسمهم وخزعبلاتهم إلى باب مدخل المشرب حيث ألقوا بها، وهم يتلفظون ببعض كلماتهم السحرية التى تحمل اللعنة إلى كل من تلقى عليه وهو هنا طبعا صاحب مشرب (لو كريدى)، وقد جعلوا بعض الأرواح الميتة تعود إلى الحياة لتتحدث بألسنتهم، وقد تنبأت تلك الأرواح بأن صاحب المشرب سيموت شر ميتة، سيموت موتا بطيئا على نار هادئة، وقد تعهدوا أمام الجميع بأن يجعلوا صاحب المشرب يقود نفسه بنفسه إلى المشنقة، ولكن كانت كل تصرفاتهم تلك دون أى جدوى.

ثم جاءت أخيرا الأفعال المباشرة من مجموعات اللصوص من بين مدمرى الأماكن ومحطمى كل شىء الذين كان قد دفع أجرتهم الباهظة بعض المغفلين العجائز من سكان الضاحية، أولئك الذين يندمون على فقدان الأيام على زمن ديجول التى كانوا يسكنون فيها فى أكشاك خشبية ضيقة مثل أقفاص الحيوانات، تلك الأيام السعيدة التى كان المستعمرون لاينادونهم فيها الا بعبارة واحدة من اثنتين، إما بعبارة (أيها الولد) أو بعبارة (أيها الزنجى العجوز)، تلك الأيام التى كان الزنوج يضعون فيها حول أعناقهم مثل الكلاب ميداليات مكتوبا عليها اسم الزنجى إلى جوار اسم الرجل المستعمر الأبيض الذى يتبعه هذا الزنجى.

الأيام التى كان الزنوج يعيشون فيها حياة مثل تلك التى كان المستعمرون الفرنسيون، يقدمون صورتها المتخلفة للأوروبيين فى معارضهم الدولية حتى يجعلوا من الزنوج مادة سخرية تضحك البيض، ويقدموا الزنجيات فى صورة قريبة الشبه من صورة تلك الراقصة المدعوّة جوزفين بيكر وهى الأمريكية الزنجية الإفريقية الأصل التى كانت خلال عشرينيات القرن العشرين ترقص فى ملاهى باريس الليلية عارية تماما إلا من بعض أصابع الموز المعلقة حول خصرها لإخفاء عورتها.

وهكذا فإن أولئك الناس ذوى السمعة الطيبة من مغفلى العجائز نصبوا فخا بلا قرار لصاحب المشرب باستئجارهم لأولئك اللصوص المحطمين الذين جاءوا إلى المشرب ملثمين فى قلب الظلام عند منتصف الليل، وقد حملوا معهم عصيّهم المصنوعة من حديد زنزيار، ومطارقهم وهرواتهم من ذوات الرؤوس الغليظة

الشبيهة بمقامع ودبابيس القتال، التى استعملت فى حروب العصور الوسطى المسيحية، ورماحهم القصيرة المسمّمة الرؤوس التى تعود إلى زمن زعيم قبائل الزولو المدعو شاكا، أو يحملون مناجل ومطارق الأزمان الشيوعية، أو يستعملون آلات المنجنيق التى استعملت لقذف كتل اللهب أثناء حرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، أو يحملون آلات تشذيب الأحجار التى استعملتها شعوب الجولو فى فرنسا القديمة حتى قبل الاحتلال الرومانى، أو آلات عزق الأرض وتجريف التربة التى استعملتها قبائل أقزام إفريقيا الوسطى المعروفين باسم البيجمى، أو زجاجات كوكتيل المولوتوف الحارق، التى استعملها الشباب الفرنسى فى ثورته على النظام القديم فى مايو ١٩٦٨، أو السواطير لقطع الرؤوس على أساس عرقى (إثنى) والتى كانت قد استعملت مؤخرا بين قبائل الهوتو والتوتسى، أثناء مواسم الذبح المتبادل فى رواندا خلال منتصف تسعينيات القرن الماضى، أو قاذفات الأحجار مثل تلك المستعملة فى المعركة الشهيرة بين داوود وجوليات.

لقد جاء اللصوص المحطمون بكل تلك الترسانة من الأسلحة المتنوعة، بكميات وأحجام مذهلة، ولكن دون جدوى رغم أنهم قد تمكنوا من تحطيم جزء من المشرب.

وقد تحدثت البلدة كلها عما وقع وتحدثت الصحف كلها عما وقع، مثل جريدة الريمور la rue meurt (والكلمة منطوقة تعنى الشائعة ولكنها مكتوبة بهذا الشكل تعنى الشارع يموت) وجريدة الأسبوع الإفريقى وجريدة موييندا وجريدة مويوندزى تريبيون، حتى أن بعض السائحين كانوا قد جاءوا من بعض البلاد المجاورة

لمشاهدة هذا المكان عن قرب كما لو كانوا من الحجاج الذين يزورون حائط المبكى وقد أخذ أولئك الحجاج لذلك المكان صورا فوتوغرافية عديدة لسبب لم أدركه.

ثم إن هناك حتى الآن بعض سكان المدينة الذين كانوا حتى وقت قريب لم يضعوا أقدامهم أبدا فى هذا الحى المسمى (ترواسان) وتعنى ٣٠٠ ثم جاءوا لاكتشافه فأصابهم قدر لا بأس به من الذهول، فإذا بهم يتساءلون: كيف يتمكن الناس من الحياة فى تعايش مثالى مع كل تلك القاذورات فى الشوارع، وطفح المياه، وهياكل عظام الحيوانات الأليفة، والسيارات المحترقة، والأوحال، وروث الأبقار، وكل تلك الحفرات التى تفغر أفواهها فى كل شوارع الحى الرئيسية، وكل تلك المنازل التى تبدو كما لو كانت على وشك الانهيار.

وقد أعطى البارمان، وتعنى خادم المشرب أو رجل المشرب سلسلة من الأحاديث المتتالية إلى اليسار وإلى اليمين خلال مجموعة من المقابلات مع وسائل الإعلام، فتحول البارمان خادم المشرب بين ليلة وضحاها الى شهيد ثم ظهر البارمان خادم المشرب بين ليلة وضحاها على كل القنوات التليفزيونية، وفى كل البرامج الإذاعية يتحدث أحيانا بلهجة اللينجالا التى يتميز بها سكان شمال البلاد وأحيانا أخرى بلهجة مونوكوتوبا التى يتميز بها سكان غابة مايومبيه وأحيانا ثالثة بلهجة البمبيه التى يتميز بها سكان جسر موكوكولا وهم المشهورون بالميل لحل كل نزاعاتهم باستعمال السكاكين.

وقد أصبح البارمان خادم المشرب رجلا مشهورا جدا الآن يعرفه العالم كله وقد نجح فى جعل الناس يشعرون تجاهه بالشفقة

وبالرغبة فى المعاونة وقد وصله العديد من رسائل التعضيد والمساندة والعديد من الالتماسات المقدمة إلى السلطات من أجل نصرة هذا الرجل الشجاع الذى بدأنا منذ الحين فى تسميته (القوقع الحلزونى العنيد).

ولكننا رغم ذلك يجب أن نحسبه ضمن مجموعة السكارى الذين دائما ما يتضامنون معا، حتى آخر قطرة فى زجاجة النبيذ فهذه المجموعة من السكارى قد بدأت فعلا للتو فى الحركة فشمروا عن أكمامهم لإصلاح التلفيات المادية فى المشرب التى تسبب فيها أولئك الذين يندمون على المعارض الاستعمارية وعلى أقفاص ديجول وعلى رقصات الزنجية العارية جوزفين بيكر.

وقد تحولت هذه القصة التافهة بالنسبة للبيض والمتعلقة بمشرب (لو كريدى) إلى مسألة تتعلق بشرف القومية الكونجولية وقد بدأ البعض يتحدث عن هذه المسألة مشيرا إليها بلفظى (قضية لو كريدى)، حتى أن حكومة البلاد قد ناقشت هذه المسألة فى مجلس الوزراء وقد طالب البعض من حكام البلاد خلال تلك المناقشة، بالإغلاق الفورى لمشرب (لو كريدى) بدون أى شروط.

فى حين عارض البعض الآخر هذا الإغلاق بحيثيات لا تزيد فى الحقيقة فى قدرتها على الإقناع عن الحيثيات التى كان المطالبون بالإغلاق قد استعملوها وللتو انقسمت البلاد إلى فريقين ومعسكرين، فيما يتعلق بمسألة السحالى تلك.

(٣)

وهكذا رفع ألبير زولوكيا صوته وهو وزير الزراعة والتجارة فى

حكومة البلاد وهو كذلك المسئول فى الحكومة عن المؤسسات المتوسطة والصغيرة الحجم وله من السطوة ما لغيره من السطوة المعروفة عن حكام البلاد بالإضافة إلى الحكمة المعروفة عنه. هكذا تدخل زولوكيا تدخلا حاسما فى تلك القضية سيظل باقيا أبد الدهر فى ذاكرة الأجيال فى هذا البلد وسيعتبر هذا الخطاب أفضل خطاب سياسى فى كل الأزمان.

قال الوزير زولوكيا (إنى أتهم)[١] ....

وهى نفس العبارة التى استعملها الأديب الفرنسى زولا فى دفاعه عن درايفوس فى بداية القرن العشرين.

كرر الوزير زولوكيا هذه العبارة فى مناسبات عديدة، حتى أصبح ناس البلد جميعا مذهولين وكأن هذه العبارة قد أصبحت بالنسبة إليهم وسواسا قهريا، حتى أنهم كانوا يكررونها مرارا وتكرارا فى الشوارع طوال اليوم سواء أكان الموضوع يتعلق بجدل صغير أو بحالة ظلم بسيط.

رئيس الجمهورية نفسه ذكر للمتحدث الرسمى باسمه إن وزير الزراعة متحدث جيد وإن عبارته التى أصبحت شعبية جداً (إنى أتهم) ستظل تنبض بالحياة أبد الدهر. أما رئيس الوزراء فقد وعد أنه فى التغيير الوزارى القادم سيمنح وزير الزراعة الحالى حقيبة وزارة الثقافة فهو أحق بها من غيره، وقد أبدى ملاحظة ذكية جدا وهى أنه يكفى محو أربعة حروف من كلمة «زراعة»[٢] بالفرنسية

---

(١) j accuse

(٢) agriculture

لتصبح الكلمة هى كلمة «ثقافة»(*) وكان هناك اتفاق شبه عام على أن خطبة وزير الزراعة متميزة تماما وألمعية.

كان من المعروف كذلك أن هذا الوزير يتمتع بقدر كبير من الثقافة، إذ كان يمكنه أن يتلو صفحات كاملة من كتب أولئك المؤلفين العظام الذين نكتفى نحن بذكر أسمائهم عن طيب خاطر ونحن جلوس إلى الموائد. أما هو فكان فى كل مرة يبدأ فيها محاولة إغواء مستمعيه بالإنصات إليه، ينضح بعرق غزير ثم كان يشعر بالفخر عندما ينجح فى إغوائهم بالاستماع إلى بحر معارفه وثقافته.

ثم قرر أن يأخذ زمام مسألة الدفاع عن مشرب (لو كريدى)، فى البداية قرّظ مبادرة (القوقع الحلزونى العنيد) الذى كان يعرفه معرفة شخصية إذ إنهما كانا تلميذين معا فى المدرسة الابتدائية ثم وصل بالكلمات التالية إلى النتائج التى سأتلوها عليكم هنا من الذاكرة:

سيداتى سادتى أعضاء المجلس الموقر

أنا لا أريد أن أكون متواطئا مع مناخ اجتماعى على هذا القدر من التهافت والتهالك والإشراف على الموت ولا أريد أن يكون انتمائى إلى هذه الحكومة هو السبب فى استمرار مطاردة البشر بهذه الطريقة المزرية لذلك فإنى أتهم كل هذه الحقارة والدناءة التى تتكالب على شخص لم يفعل أى سوء ولم يقم إلا برسم خطة لحياته وبخط طريق لوجوده.

(*) culture

إنى أتهم تفاهة تلك التصرفات الرجعية التى حدثت مؤخرا بخصوصه، وعدم التحضر بل التخلف الذى وقف خلف تلك الأفعال الهمجية البربرية التى أشرف عليها أناس سيئو النية.

إنى أتهم الإهانات والانتهاكات والتحديّات وكل تلك التصرفات التى انتشرت مؤخرا فى بلدنا وأصبحت سائدة فى كل مكان.

إنى أتهم التآمر الماكر الذى أعار كل تلك الكمية من العصىّ إلى تلك العصبة من اللصوص المخربين مثيرى الفتن.

إنى أتهم الكراهية واحتقار الإنسان للإنسان، وقلة التسامح وتنامى الكراهية وتخاذل الضمائر وفقدان القيم لمن لا أرى فيهم إلا مجموعة من ضفادع الأدغال القادمين من هنا وهناك.

نعم سيداتى سادتى أعضاء المجلس الموقر انظروا كيف تحوّل حيّنا حىّ الترواسان إلى مدينة لا تنام، لا تغفل لحظة واحدة فى النهار أو الليل، مدينة ذات وجه حجرى جامد بلا أى مشاعر.

أحب أن أضيف أن هذا الرجل الذى اصطلحنا على تسميته (القوقع الحلزونى العنيد) والذى يطارده الجميع الآن فى كل مكان، هو ضحية ممارسات طقسية قبائلية شعائرية، فبعيدا عن موضوع زمالتنا القديمة أنا وهو فى فصل واحد فى المدرسة الابتدائية وعن أنه كان بالمناسبة شديد الذكاء أقول لكم إنه من الأفضل بدلا من مطاردته هو أن نركز جهودنا فى مطاردة وتعقب اللصوص قطاع الطرق الحقيقيين.

إنى أتهم إذن كل أولئك الذين يصرّون على إصابة كل مؤسساتنا بالشلل التام، فيعيقونها عن العمل بل حتى عن مجرد الحركة دون أن ينالهم أى عقاب عن أفعالهم تلك، أولئك الذين

يقضون تماما على روح التضامن الشعبى التى ورثناها عن أجدادنا البانتو.

إنى أقرّ وأعترف لكم بأن الخطأ الذى ارتكبه (القوقع الحلزونى العنيد) هو أنه قد أظهر وأوضح لغيره من مواطنيه أن كلا منهم - على طريقته - يستطيع أن يشارك فى تغيير الطبيعة البشرية بنفس الطريقة التى علمنا إياها أديب فرنسا العظيم «أنطوان دى سانت إكسوبرى»(١) فى كتابه (أرض البشر) ولهذا السبب فأنا أتهم الآن وسأظل أتهم كذلك دائما فى المستقبل.

فى اليوم التالى على اليوم الذى ألقى فيه الوزير زولوكيا خطبته تلك أصيب رئيس الجمهورية مسيو «أدريان لوكوتا إيليكى مينجى»(٢) بنوبة غضب، وكان قد استمع إلى الخطبة أثناء تناوله طبقا من العنب، وهى الفاكهة التى يحبها ويتناول الكثير منه، فإذا به من شدة غضبه يسحق حبيبات العنب بين أصابعه. وقد علمنا بواسطة إذاعة رصيف إف إم أن الرئيس لوكوتا، الذى كان هو نفسه من جهة أخرى، اللواء قائد الجيوش قد أظهر لمعاونيه غيرته الشديدة من العبارة التى ابتكرها زولوكيا وزير الزراعة، عبارة (إنى أتهم) فى صيغتها تلك المركزة.

فى الواقع فإن الرئيس قائد الجيوش تمنى لو أن تلك الصيغة الشعبية كانت قد خرجت من فمه هو لا من فم أحد غيره ولم يفهم أبدا كيف أن معاونيه ومستشاريه لم يتخيلوا أبدًا عبارة مثل

---

(١) Antoine De Saint-Exupery

(٢) Adrien Loukouta Eleki Mingi

تلك فهى رغم كونها عبارة قصيرة جدًا، إلا أنها ذات كفاءة عالية جدا فى الاستخدام فى حين أنهم كانوا يجبرونه على النطق بعبارات مزيفة متكلفة سابقة التجهيز من نوع (إنها الشمس التى تبزغ فجرا فى الأفق ثم تغرب عند انقضاء النهار فوق مياه نهر الكونجو العظيم).

وهكذا شعر الرئيس لوكوتا بالغضب الذى تحول لاحقا إلى مشاعر مختلطة من الخزى والعار والمهانة والإحباط والصغار فاستدعى أعضاء مجلس وزرائه من الزنج (وقد استعمل كلمة توحى كذلك بأنهم مجموعة من العبيد) فورا إلى مكتبه فعبروا فورا عن عميق حبهم له. طلب رئيس الجمهورية قائد الجيوش من الزنج عبيد مجلس وزرائه أن يبدأوا فورا فى العمل مثلما لم يحدث أن عملوا من قبل، فهو لم يعد يحتمل أن يصيغوا له عبارات متكلفة سابقة التجهيز مثل تلك التى اعتادوا على صياغتها له بما توحى بها إليهم شاعريتهم الغنائية المزيفة، تلك الشاعرية الغنائية التى يدّعونها زورا وبهتانا.

وقد اجتمع على الفور مجلس الوزراء وقد وضع الوزراء أنفسهم فى وضع استعداد وتأهب واستنفار وقد وضح ذلك التأهب والاستنفار فى الترتيب المنظم الذى جلسوا به، فجلس أصغرهم حجما فى أول كرسى ثم تلاه الذى يكبره قليلا فى الحجم على الكرسى الثانى والثالث حجما على الكرسى الثالث وهكذا دواليك وصولا إلى أكبرهم حجما على الإطلاق وهو طبعا الوزير الذى جلس على الكرسى الأخير.

وقد فعلوا ذلك بطريقة تلقائية محببة تذكّر على الفور بما اعتاد أفراد عائلة (دالتون) أن يفعلوه فى مسلسل الرسوم المتحركة

للأطفال الشهير فى تليفزيونات فرنسا والعالم أجمع وهو المعروف باسم بطله الكاوبوى راعى البقر «لوقا ابن المحظوظة»(*) وقد اعتاد أفراد عائلة دالتون على تتبّع لوقا ابن المحظوظة فى حقول نباتات الصبّار التى تنتشر فى أقاصى الغرب الأمريكى لعلهم يصيبون قدرا من حظه عملا بالمثل القائل (من جاور السعيد يسعد) وقد قال هؤلاء الزنج من وزراء عبيد مجلس الوزراء كلهم فى نفس واحد كأنهم فى جوقة ترنيم وترتيل (السمع والطاعة سيدنا القومندان).

ومن الجدير بالذكر أن رئيس الجمهورية قائد الجيوش أدريان لوكوتا إيليكى منجى قد انتظر بفارغ الصبر أن تندلع حرب أهلية بين سكان شمال البلاد وسكان جنوب البلاد لعل تلك المناسبة ـ أى قيام حرب أهلية ـ تكون هى المناسبة التى ينتظرها لينشر مذكراته التى كان سيعطيها عنوانا معروفا فى الأدب العالمى وهو (مذكرات أدريان) إشارة إلى العمل المعروف بنفس الاسم للأديبة الفرنسية مرجريت يورسنار والتى استوحته من حياة أدريان إمبراطور الروم فى القرن الثانى الميلادى، إلا أنه للأسف لم يتمكن من ذلك حيث إن تلك الحرب لم تندلع أبدا.

وقد أنذر الرئيس لوكوتا قائد الجيوش جميع أعضاء الزنج العبيد من وزراء مجلس وزرائه بضرورة أن يعثروا له على صيغة مناسبة تكون أكثر قوة من عبارة (إنى أتهم) التى نطق بها الوزير زولوكيا وتستطيع بذلك أن تنافسها فى البقاء عبر الأجيال ولهذا فإن الزنج العبيد من أعضاء مجلس الوزراء الرئاسى قد ظلوا مستيقظين طول الليل فى اجتماع مغلق.

(*) Lucky Luke

(٤)

بدأوا أولا بتصفح كل تلك الموسوعات الموجودة على الأرفف فى المكتبة الرئاسية وهى الموسوعات التى كانت كميات هائلة من الأتربة تغطيها حيث إن هذه الموسوعات لم يفتحوها أبدا من قبل، وقد بحثوا أيضا فى كل تلك الكتب العظيمة المكتوبة بحروف متناهية الصغر، وقد عادوا فى الزمن إلى الوراء قدر الإمكان إلى الزمن الذى اخترعت فيه الطباعة وذكر أحدهم اسم شخص ألمانى قديم يدعى (جوتنبرج)، ثم ذكر عبد زنجى آخر أن هيروغليفية المصريين القدماء هى أول كتابة عرفها البشر فقال آخر لا بل هى الكتابة بالحروف والأشكال الصينية، خاصة أن الصينيين كانوا يعالجون الكثير من الموضوعات ذات الصلة بفنون المسائل القتالية الحربية وقد عاشت تلك الكتابات الصينية فى زمن لم نكن نعرف فيه ولا حتى يسوع المسيح، الذى سيولد بعد ذلك بزمان بفضل عملية لها صلة ما غامضة إلى حد بعيد صلة بالروح القدس وهو يسوع الذى قال إنه سيضحّى بحياته من أجلنا نحن الخطاة.

ولكن الزنج من عبيد مجلس وزراء أدريان لم يجدوا أبدا أى شىء فى قوة (إنى أتهم) للوزير زولوكيا وهكذا فقد هدّدهم الرئيس قائد الجيوش بإقالة مجلس الوزراء بأكمله إذا لم يتمكنوا من أن يحصلوا له على العبارة التى تخصه والتى ينبغى أن يتركها للأجيال القادمة.

قال (لماذا ينبغى أن أستمر فى دفع المرتبات لمجموعة من الأغبياء غير القادرين على أن يجدوا لى صيغة تلفت انتباه الآخرين وتترك فيهم أثرا باقيا عبر الأجيال، إنى أنبئكم أنه إذا لم أحصل

على صيغتى تلك قبل أن تصيح الديَكة معلنة فجر يوم جديد صباح الغد، ستسقط بعض الرؤوس مثل ثمار المانجو المتعفنة التى تسقط من فوق الشجر، نعم فأنتم بالنسبة إلىّ لستم إلا مجموعة من ثمار المانجو المتعفنة.

أقولها لكم: ابدأوا فى إعداد صناديقكم للسفر إما إلى بلد آخر أو إلى العالم الآخر فأنتم ستختارون إما الذهاب إلى المقبرة أو الذهاب إلى المنفى، إما أن تبحثوا لكم عن بلد كاثوليكى لمنفاكم أو أن تبحثوا لى عن صيغتى أقول لكم إنه لن يخرج أىٌّ منكم من هذا القصر منذ هذه الدقيقة إلى أن تعثروا لى على صيغتى لا أريد حتى أن أشم رائحة القهوة وأنا جالس فى مكتبى ولا حتى أن أشم رائحة السيجار الكوبى أو السيجار المونت كريستو ولا حتى الماء للشرب لن يكون لكم، ولا حتى شطائر السندوتشات لن تكون لكم لا شىء لكم، لا شىء على الإطلاق بل ستعانون من نظام غذائى قاسٍ، طالما أنكم لم تعثروا لى على صيغتى.

ثم قولوا لى هنا كيف أن ذلك الوزير القليل الأهمية المدعو زولوكيا تمكن من العثور على صيغة (إنى أتهم) التى يتحدث عنها الناس فى طول البلاد وعرضها؟ هه؟ وقد أخبرتنى جهات الأمن الرئاسى أن حتى بعض الأطفال الرضّع قد وضعت فى شهادات ميلادهم أسماء جديدة كلها (جاكوز) j accuse (إنى أتهم)، سيكون أغلب الأطفال المولودين الآن ذكرى حيّة لتخليد هذا الوزير.

ثم ماذا تقولون فى كل أولئك الفتيات الساخنات الشبقات اللائى وضعن وشما من كلمة واحدة هى كلمة (جاكوز) j accuse على إلية كلٍّ منهن؟ وقد علمت من نفس مصادرى الأمنية

ويا لسخرية الأقدار، أن أغلب زبائن أولئك الفتيات الشبقات العاهرات أصبحوا يشترطون أن تكون الفتاة من بين أولئك اللائى وضعن وشم (جاكوز) j accuse على إلياتهنّ.

أنتم ترون الآن فى أى وضع (خراء) قد وضعتمونى. هه؟ فرغم كل شىء لم يكن صعبا إلى هذه الدرجة العثور على مثل تلك الصيغة. هه؟ فهل هذا يعنى أن العبيد من الزنوج مساعدى وزير الزراعة أفضل منكم؟ هه؟ هل تدركون أن أولئك الزنج ليس لكل منهم سيارة مثلما هو حالكم؟ هه؟ أنتم لكل منكم سيارة تحت أمره بحكم وظيفته أما هم فلا. هه؟ هم يستقلون الباص التابع لوزارة الزراعة ليعودوا به إلى منازلهم. هه؟ وفوق البيعة فإن مرتباتهم هزيلة. هه؟

بينما أنتم فى هذا القصر تعيشون فى رغد وهناء، فى بحبوحة حقيقية من العيش، هه؟ تستحمّون فى مياه مسبحى الخاص، وتحتسون الشمبانيا من مخزنى الخاص، وتشاهدون وأنتم فى غاية الانسجام القنوات الفضائية الأجنبية بكل ما فيها من متع فى تليفزيونى الخاص، وتأكلون الجاتوه والبتى فور من مخبزى الخاص، وتأكلون سمك السومون والكافيار من مطبخى الخاص، وتتزحلقون مع عشيقاتكم كما لو كنتم فى سويسرا على جليدى الصناعى الخاص.

هذا إذا لم تكونوا تتطاولون علىّ وتضاجعون واحدة أو أكثر من العشرين امرأة فى حريمى الخاص. هه؟ كل ذه وأنا ساكت. هه؟

والآن قولوا لى ما هى الخدمة التى تقدّمونها إلىّ مقابل كل هذا العزّ؟ ماذا تفعلون حقا فى هذا المجلس الرئاسى الاستشارى؟

هل أدفع لكم كل هذه المرتبات من أجل أن تأتوا إلى هنا للاستمتاع بالحياة على قفاى؟ فى هذه الحالة فمن الأفضل أن أعيّن كلبى الوفىّ الغبىّ رئيسا لوزرائى، ستكون تكلفته أقل بكثير ولن أخسر شيئا بل سأتخلص منكم أنتم أيها الأغبياء المغفلين عديمى الجدوى.

وفجأة قام الرئيس قائد الجيوش ووقف فى وسط القاعة قائلا أيها الزنوج العبيد لن يعود أى شىء فى هذا القصر إلى سابق عهده، لقد سئمت تزغيطكم وتسمينكم أيتها الحيوانات من فصيلة الرخويّات، الحيوانات التى يسيل لعابها على كل حماقة من الحماقات، سأحكم عليكم حكمى النهائى، بحسب النتيجة التى ستصلون إليها، لعنة الله عليكم وخاصة على من يحمل من بينكم شهادات باريسية من مدرسة الإدارة العليا «الإينا»[1] ومن مدرسة التقنيات المتعددة العليا «البولى تكنيك»[2] ، وخرج صافقًا الباب خلفه.

(٥)

بدأ عبيد المجلس الرئاسى من الزنج فى العمل المدفوعين إليه فإذا حدث أن شاهدت هذا المنظر لوجدت أن على الحائط فوق رؤوسهم قد ظهر وكأنه مسلط على رقابهم الرمح القصير لقبائل الزولو الإفريقية، وكذلك سيف ديموكليس اليونانى بما فى كل ذلك من تهديد واضح وصريح، فى حين ترددت فى القصر الأصداء المدويّة لكلمات الرئيس قائد الجيوش الأخيرة.

---

(١) ENA

(٢) Polytechnique

وهكذا وحيث إن أفكار الزنج ظلت قاصرة حتى منتصف الليل عن الوصول إلى الهدف المرجو وذلك لأن الذى يتوفر فى بلادنا بكثرة هو البترول، فى حين تشحّ الأفكار فقد فكر الزنج أخيرا فى كتابة رسالة إلى أحد الأشخاص البارزين فى المجمع العلمى الفرنسي المشهور باسم الأكاديمية الفرنسية، وهو على ما يبدو الشخص الأسود الوحيد الذى كان قد اختير مؤخرا لعضوية هذه الأكاديمية المرموقة، الأسود الوحيد خلال التاريخ الطويل لتلك الأكاديمية المرموقة.

صفقوا جميعا حبورا وبدت على وجوههم ملامح السعادة واضحة بتلك الفكرة التى ظهرت هكذا فجأة فى الدقائق الأخيرة قبيل منتصف الليل. وأكد البعض أن هذا الشخص الأكاديمى سيزداد فخرا وشرفا بانتماءاته العرقية أى بانتمائه إليهم إذا ما اتصلوا به طالبين معاونته لهم، وهكذا بدأوا على الفور فى كتابة رسالة طويلة له، كثر فى هذه الرسالة استعمال تصريفات الأزمنة المعقدة لأفعال اللغة الفرنسية خاصة تصريفات الأزمنة الدالة على الشك والريبة من جهة، والرجاء والتمنى من جهة أخرى، وقد تعمّدوا كذلك وضع فقرات بعينها من نوعية تلك الفقرات القادرة على إثارة العواطف والشجون.

وقد وضعت بعض هذه الفقرات فى صورة شطرات شعرية قصيرة غنية بالقوافى مع مراجعة دقيقة لكل أساليب التنقيط المختلفة فى اللغة الفرنسية(*) من فواصل وفواصل منقوطة وأقواس وأقواس مزدوجة ونقطتين تعلو إحداهما الأخرى، وذلك لأنهم لم

(*) ponctuation

يكونوا يريدون أن يدخلوا فى متاهات فيلولوجية مع الأشخاص الأكاديميين الذين لا ينتظرون إلا مثل هذه الأخطاء الفيلولوجية لإبداء اشمئزازهم من الجهلة وحتى يظهروا للعالم أجمع أهميتهم الفيلولوجية ويثبتوا للعالم أجمع أنهم يقومون بشكل ما بأعمال مفيدة، وأن دورهم لا يقتصر فقط على اختيار الروائيين الذين يمنحون سنويا الجوائز الأدبية الكبرى.

كاد أن يقع بين مجموعة الزنج من عبيد الرئيس تضارب فى الآراء فيما يتعلق بعلامات التنقيط، إذ قال البعض إنه ينبغى فى مكان ما وضع فصلة منقوطة فى حين قال البعض الآخر إنه فى هذا الموضع فإن فصلة غير منقوطة تكون كافية وقد تمسّك هذا الفريق الأخير برأيه رغم أن أعضاء هذا الفريق قد اكتشفوا أن رأيهم هذا يتناقض مع ما قرأوه من صفحات فى (قاموس صعوبات اللغة الفرنسية) لمؤلفه أدولف توماس.

كل هذا الجهد المبذول كان بغرض إرضاء ذلك الأكاديمى الأسود إذ تنبغى الإشارة بتوقير واحترام كافيين إلى أنه كان واحدا من أوائل الخريجين السود الأفارقة، فى علوم قواعد اللغة الفرنسية.

تمنى جميع الزنج من عبيد الرئيس أن تسير الأمور بسلاسة كافية إلى أن قال أحدهم إن الأكاديمى قد لا يرد عليهم بالسرعة المطلوبة وهو ما يعنى أن يظل رمح الزولو وسيف ديموكليس مسلطين على رقابهم حتى يصلهم الرد اللازم من تحت قبة مجمع اللغة فى الأكاديمية الفرنسية وذلك لأن أولئك الحكماء الخالدين يتابعون كل ما تصدره المطابع فيصدرون أحكامهم عليه بدون أى

نقض أو استئناف قائلين (هذا النص جيد) أو (هذا النص ردىء جدا ويستحق صفرا).

وهناك سبب آخر دفع الزنج من عبيد رئيس الجمهورية إلى التراجع عن إرسال الرسالة إلى الأكاديمى، ألا وهو أن أحدهم وكان قد تخرّج فى مدرسة الإدارة العليا بباريس ويمتلك مجموعة الأعمال الكاملة للأكاديمى الأسود قد قال إن هذا الرجل لديه فعلا كلمته وصيغته الخاصة التى سيتركها للأجيال القادمة وأنه يمكنهم أن يستعينوا بها. هذه الصيغة هى:

(كانت العواطف البشرية هى نتاج حضارة الزنوج فى حين كانت الأفكار الذهنية هى نتاج حضارة اليونان الهيلينية القديمة).

وشرح لهم ذلك الخريج أن الأكاديمى لن يستطيع أن يعثر لهم على المزيد من الصيغ (فنحن لا تحق لنا إلا صيغة واحدة من الشخص الواحد) وذلك لأن المسألة بخلاف ذلك (تتحول الى ثرثرة فارغة فجّة) أى (كثير من الضوضاء من أجل لا شىء)، وقد أضاف مجموعة من الملاحظات مثل (إن الصيغ التى تدخل التاريخ تكونْ دائما مختصرة وقاطعة) وكذلك (إن الناس غالبا ما ينسون مؤلفيها الحقيقيين ولا يعطون ما لقيصر لقيصر حيث إن تلك الصيغ تعبر القرون وتدخل الأساطير).

وقبل الوصول إلى مرحلة اليأس بقليل تمكن المجلس من الوصول الى حل قد يسهل عليهم الحصول على الصيغة المطلوبة إذ وضعوا كل الاقتراحات المقدمة من كل الأعضاء مكتوبة على قصاصات ورقية فى سلة من القش، وهى من ضمن ما سبق أن تركه بعض الحكماء للأجيال اللاحقة فى هذا العالم الملعون. قال

أحدهم إن ما سيمارسونه الآن هو ما تسميه المدارس الكبرى فى الإدارة بالولايات المتحدة بـ «عصف المخ»(*)

ثم بدأوا فى فرزها ومراجعتها واحدة واحدة كما يفعل بعض الناس فى البلاد التى يحق لمواطنيها ممارسة الانتخابات الحرة، وهكذا بدأوا فى قراءتها واحدة واحدة بصوت رتيب ممل تحت إشراف كبير الزنج.

(٦)

- كانت أولى العبارات هى تلك التى اشتهر بها لويس الرابع عشر ملك فرنسا وهى عبارة (أنا الدولة والدولة أنا)، ردّ كبير الزنج (لا، إنها ليست مناسبة، فهى تعطى لقائلها الكثير من الأهمية المبالغ فيها، كأنه مركز العالم وكأننا فى ديكتاتورية).

- كانت ثانى العبارات للينين الزعيم الروسى الشيوعى وهى (إن الشيوعية ما هى إلا السلطة للسوفييت، بالإضافة إلى تزويد البلاد كلها بالكهرباء اللازمة للإنارة ولإدارة المصانع)، ردّ كبير الزنج (لا فإنها تجعلنا ننظر إلى الشعب كمجموعة من الحمقى خاصة أولئك الذين لن يستطيعوا دفع قيمة فواتير الكهرباء).

- قال الفيلسوف دانتون (إننا نحتاج إلى الجرأة والشجاعة، إلى المزيد من الجرأة والشجاعة، ودائما الجرأة والشجاعة). ردّ كبير الزنج (لا ليست هذه جيدة ففيها الكثير من التكرار ثم إنها ستجعل من يسمعها يعتقد أنه تنقصنا الجرأة والشجاعة).

(*) brain storming

- قال السياسى الفرنسى جورج كليمنصو (إن الحرب هى مسألة خطيرة جدا لدرجة أنه لا يمكننا أن نعهد بها فقط إلى العسكريين). ردّ كبير الزنج (لا ليست جيدة، فإن العسكريين قد يغضبون وهو ما يؤدى دائما إلى انقلابات عسكرية، ثم يجب ألا ننسى أن رئيسنا هو نفسه لواء جنرال قائد جيوش، يجب أن نعرف أين نضع أقدامنا وبحذر شديد).

- قال القائد الأمريكى ماك ماهون (أنا هنا وسأظل هنا)، ردّ كبير الزنج (لا ليست جيدة، فهو يبدو كما لو كان شخصا يتشبث بالسلطة ولا يثق فى كاريزمته، أى فى قدرته على التأثير فى الجماهير).

- قال بونابارت أثناء حملته على مصر (أيها الجنود إن أربعين قرنا من الزمان تنظر إليكم من قمم هذه الأهرامات) ردّ كبير الزنج (لا فهو غبى وينظر إلى جنوده على أنهم جهلاء لا يعرفون، هو يعتبرهم كما لو كانوا أناسا لم يقرأوا أبدا فى كتب المؤرخ العظيم جان تيلار فى حين أن مهمتنا هى أن نبيّن للشعب كيف أن العسكريين ليسوا أغبياء).

- قال السياسى الفرنسى تاليران (هاهى ذى بداية النهاية)، ردّ كبير الزنج (لا لأنهم قد يفهمون أننا نقصد بداية النهاية لنظامنا نفسه فى حين أنه من البديهى والمتعارف عليه أننا سنظل فى السلطة إلى نهاية العمر).

- قال زعيم زنوج أمريكا «مارتن لوثر كنج»: «لدىّ حلم»(*)، هنا كاد كبير الزنج أن يفقد أعصابه فهو لا يحتمل سماع اسم هذا

(*) I have a dream

الرجل مارتن لوثر لأنه كان دائما ما يعارض زنجيا أمريكيا آخر هو مالكوم إكس الذى كان كبير الزنج يعتبره قدوته ومثله الأعلى، فقال (لم أعد أحتمل الحديث عن المدن الفاضلة والأخلاق الفاضلة إذ ينبغى أن ننتظر عدة قرون حتى تتحقق أحلامنا).

- قال شاعر الإنجليز شيكسبير (أكون أو لا أكون هذا هو السؤال)، فقال زعيم الزنج (لا ليست جيدة فنحن غير منشغلين حاليا بالإجابة على هذا السؤال بل إننا وصلنا إلى الإجابة المطلوبة منذ ثلاثة وعشرين عاما، أى منذ أن وصلنا إلى السلطة).

- قال الرئيس الكاميرونى بول بيا (الكاميرون هو الكاميرون). قال الكبير (لا ليست جيدة، فكل الناس يعرفون أن الكاميرون هو الكاميرون ولن يخطر على بال أى شعب فى العالم سرقة الكاميرون من الكاميرونيين ولا حتى سنحاول أن نسرق حيوانات الكاميرون المتوحشة مثل الأسود فهى غير قابلة للاستئناس).

- قال الرئيس الكونجولى السابق يومبى أوبانجو (الهدف من الحياة الخشنة التى نعيشها اليوم هو الوصول إلى الحياة الناعمة فى الغد)، قال الكبير (لا ليست جيدة لأنها تعتبر أن ناس هذا البلد هم من البلهاء السذّج ولماذا لا نسخر من المستقبل بدلا من أن نسخر من الحاضر؟ بحيث تكون الحياة الأفضل هى الآن والحياة الخشنة هى للغد؟ ومن جهة أخرى فالكل يعلم أن قائل هذا الكلام كان قد عاش فى بذخ العيش وبحبوحته أكثر من أى شخص آخر فى تاريخ الكونجو حتى أن قصته تلك تصدم كل من يطلع عليها).

- قال منظر الشيوعية كارل ماركس (الدين هو أفيون الشعوب) .... (ليست جيدة على الإطلاق فنحن نقضى كل وقتنا فى محاولة إقناع الشعب أن الله هو الذى اختار رئيسنا وقائد جيوشنا ثم نأتى بعد ذلك لنتفوّه بسخافات وحماقات عن الأديان ثم ألا تعلمون أن كل كنائس هذا البلد تحصل على دعم مالى من الرئيس).

- قال الرئيس الفرنسى الأسبق فرنسوا ميتران (يجب ألا نحكم على زماننا بل نترك الحكم على الزمان للزمان)، مرة أخرى يكاد كبير الزنج أن يفقد أعصابه فهو لا يحب أن يسمع أحدا يتكلم عن هذا الرئيس ثم قال (عن أى زمان يتكلم هذا الرجل إن هذا الرجل أخذ كل الوقت لنفسه، لنفسه فقط دون أى شخص عداه بعد أن قام بسحق ليس فقط كل معارضيه، بل كذلك كل معاونيه السابقين بل إنه حتى قام بسحق أصدقائه الشخصيين، قبل أن ينسحب جلالته من الحياة، ويذهب ليجلس إلى يمين الرب).

- قال فردريك دارد ألياس سانت أنطونيو (عندما يصبح أخوك أصلع الرأس يجب أن تضربه عليها).......... (ليست جيدة فهناك الكثير من الإخوة الصلع فى هذا البلد، خاصة من بين رجالات الحكومة ولا ينبغى أن نهينهم أو أن نغضبهم ثم انظروا ..... أنا نفسى أصلع).

- رجل الدولة الرومانية (كاتون القديم) ـ وذلك لأن (كاتون جديد) سيظهر لاحقا فى تاريخ الدولة الرومانية ـ وكان مشهورا بعدائه لأهل قرطاجا قال «ديليندا كارتاجو»(*) وهى باللاتينية وتعنى

(*) Delenda Carthago

التهديد والوعيد لقارطاجا العدو التقليدى للدولة الرومانية، فقال كبير الزنج (حيث إن كل شعب الكونجو لا يفهم اللاتينية فسيعتقد ناس جنوب البلاد أنها جملة مكتوبة بلهجة ناس شمال البلاد وسيعتقد ناس شمال البلاد أنها جملة مكتوبة بلهجة ناس جنوب البلاد إذن ينبغى أن نتجنب متاهة مثل تلك عندما سيتساءل الكل من قال ماذا).

- قال الحاكم الرومانى لإقليم فلسطين على زمن يسوع المسيح واسمه بيلاطس البنطى «ايكيه أومو»(*) وهى أيضا باللاتينية .... (ينطبق على هذه العبارة ما سبق أن قلته عن العبارة السابقة كفانا هذيانا وعناءً ضائعا).

- قال يسوع المسيح عند موته على الصليب (إلهى إلهى لماذا تركتنى) ...... (ليست جيدة فهى متشائمة جدا ثم إنها تدل على الطبع المتباكى لرجل مثل يسوع الذى رغم كل شىء، كانت لديه كل الإمكانيات والسلطات، لأن يقيم حكومة عادلة على الأرض ولأن يفعل كل ما يشاء فعله من أجل هذا العالم الأرضى).

- قال بليز باسكال (لو أن الأنف فى وجه كليوباترا ملكة مصر كان أقل طولا لتغير وجه الكرة الأرضية كلها)............. (ليست جيدة لأن الذى يعنينا اليوم هو سياسة البلد، ولا تعنينا إطلاقا جراحة تجميل فى وجه امرأة).

- وهكذا تمت مراجعة آلاف العبارات المأثورة والجمل المحفوظة من التاريخ دون العثور حقا على الشىء المناسب للمواطن الأول فى هذه البلاد، ثم حدث فى الساعة الخامسة صباحا وقبيل

(*) Ecce Homo.

صياح الديك أن عثر أحد المستشارين، على الصيغة التاريخية المطلوبة، وذلك بعد أن كان قد انشغل بعض الوقت بمشاهدة الأفلام الوثائقية باللونين الأبيض والأسود.

(٧)

فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا وهى اللحظة التى يجلس فيه أفراد الشعب إلى مائدة الغداء لالتهام الدجاج شغل الرئيس قائد الجيوش كل محطات الإذاعة فى البلاد بالإضافة إلى محطة التليفزيون الوحيدة، لقد جاءت ساعة الجد، ولمن شاهده تليفزيونيا بدا سيادة الرئيس متوترا مثل توتر الجلود المشدودة على طبول القبائل فبقدر ما تكون مشدودة بقدر ما يكون صوتها مرتفعا واضحا، لم تكن مسألة اختيار التوقيت المناسب الذى يمكن لسيادة الرئيس أن يترك فيه صيغته للأجيال اللاحقة مسألة سهلة.

فى هذا اليوم وبالمناسبة هو يوم الإثنين، كان سيادة الرئيس يرتدى ثياب يوم الأحد أى أفضل ثيابه، كان مهندما ومتزينا بكل مجموعة ميدالياته الذهبية الثقيلة كما لو كان أحد بطاركة الكنائس فى خريف خدمتهم أى فى خريف العمر، كان يمكن لمشاهديه أن يعتقدوا بسهولة أنهم فى سبيلهم إلى مشاهدة أحد الأعياد الرسمية التى يحتفى خلالها بالأجداد لتخليد ذكراهم وتقدّم إليهم فيها القرابين والأضاحى.

تنحنح ليقاوم ارتباكه ثم بدأ فى انتقاد الدول الأوروبية، قال إنها خدعتنا فى فجر استقلالنا وإذا بنا نظل حتى الآن غير مستقلين عنها تماما بل فى الواقع إننا ما زلنا معتمدين عليها كل

الاعتماد حيث إنه ما زالت لدينا شوارع تحمل أسماء الجنرال ديجول والجنرال لوكلير والرئيس كوتى والرئيس بومبيدو، فى حين أنه ليست لديهم هناك فى أوروبا أى شوارع تحمل أسماء موبوتو سى سى سى كو ولا عايدى أمين دادا، ولا جان بيديل بو كاسا فيالها من خدعة، فكل هذه الأسماء الإفريقية هى لرجال مرموقين عرفتهم أوروبا وأكبرت فيهم الإخلاص لها والتفانى فى خدمة مصالحها فى البلاد، ناهيك عن غير ذلك من المسائل المتعلقة بالنواحى الإنسانية مثل سجلاتهم المشرفة فى احترام حقوق الإنسان.

هؤلاء الأوروبيون ما زالوا يستغلون حقول بترولنا فى حين أنهم يخفون عنا الأفكار المتعلقة بأسلوب هذا الاستغلال ثم إنهم يستغلون أخشاب غاباتنا التى تساعدهم على احتمال الشتاء البارد لديهم، وفى مقابل ذلك يأخذون خيرة أدمغتنا بدعوى تعليمهم هناك فى مدارسهم العليا مثل مدرسة الإدارة العليا (الإينا) ومدرسة التقنيات المتعددة العليا (البولى تكنيك)، ولكنهم فى الواقع يحولون خيرة أدمغتنا إلى زنوج ببشرة بيضاء تنشغل عقولهم بالعلم الحديث، ولكن تنشغل قلوبهم كذلك بحب أوروبا فلا يعودون منها أو إذا عادوا مجبرين فإنهم يذهبون إلى الغابات يختفون فيها. هنا كان رئيسنا من شدّة الانفعال قد انقطعت أنفاسه وتهدّج صوته وانقبضت راحتا يديه.

تلا ذلك أن انتقل رئيسنا قائد الجيوش من مهاجمة الحقبة الاستعمارية والاحتلال الأجنبى إلى مهاجمة الرأسمالية بكل انتهاكاتها وتحدّياتها، وهى التى كان المستعمر قد صوّرها لنا فى

صورة الطريق إلى المدينة الفاضلة على غرار نموذج المجتمعات الغربية الحديثة. وقد هاجم بشكل خاص عملاء الاستعمار المحليين أولئك الرجال الذين يسكنون فى مدننا، ويعيشون بيننا ويأكلون من أكلنا، ويركبون معنا نفس وسائل النقل العام ويعملون معنا فى نفس الحقول وفى نفس المكاتب، وفى نفس الأسواق، وحتى أنهم يرقصون معنا أحيانا فى نفس المشارب والملاهى الليلية.

فى حين أنهم فى الحقيقة عبارة عن سكاكين ومدىً من ذوات الحدين وأسلحة من ذوات النصلين فى الحقيقة إن هؤلاء الرجال هم مثل أسماك القرش التى تطلقها القوى الاستعمارية علينا فأنا لا أريد أن أذكر هنا الآن الأشياء التى يفعلونها مع نسائنا احتراما لذكرى أمى المتوفاة فى تشينوكا.

عند هذا الحد من الخطبة كان غضب سيادة الرئيس قائد الجيوش قد تزايد عشرات المرات لأنه كان يكره أذناب الاستعمار أولئك، كما يمكنك أنت أن تكره البراغيث والبق والقمل والعتة، وكل تلك الحشرات الضئيلة التى تمتص دمنا وتزعجنا، وأضاف أن ينبغى علينا أن نطارد هؤلاء الخونة المنافقين الذين يحركهم المستعمر من على بعد كما يفعل محرّك عرائس الماريونت وهى تلك العرائس التى تتصل أطرافها بخيوط يمكن أن نحركها بها من أعلى المسرح.

ثم ذكر الرئيس مجموعة من الألفاظ التى يصفهم بها ومنها: أعداء البشر، مرضى نفسيون، فلاحون محدثو نعمة، مدّعو الورع والتقوى، مستعملا فى هذه النعوت أسماء مسرحيات لموليير ولغيره من المؤلفين المسرحيين الفرنسيين. ثم قال (إن النصر النهائى

سيكون حتما لثورة العمال من طبقة البروليتاريا وسيندحر العدو ويموت مسحوقا تحت أقدامنا أو عليه أن يعود إلى المكان الذى جاء منه ثم إن الله معنا وسيظل بلدنا خالدا أبد الدهر بشرط أن نحافظ على وحدتنا الوطنية وتتوقف الحروب بين القبائل، لأننا جميعا ننحدر من نفس السلف الواحد).

هنا وصل الرئيس الى ذكر مسألة مشرب (لو كريدى) وكيف أنها كادت أن تقسم البلاد إلى معسكرين متناحرين ولم يبخل على مبادرة صاحب المشرب المعروف حاليا باسم (القوقع الحلزونى العنيد) بالتقريظ وقد وعد بمنحه وسام جوقة الشرف من الطبقة الأولى............. وهنا أنهى خطبته بالكلمات الموعودة بالصيغة التى يريد أن يتركها بأى ثمن للأجيال اللاحقة وهى نفس الصيغة التى عثر له عليها مجلس وزرائه من مساعديه الزنج العبيد وقد أدرك جمهور مشاهديه أنها هى الصيغة الموعودة لأنه أولا كررها عدة مرات.

ثانيا لأنه كان قد ترك ذراعيه مفرودين ومفتوحين على الجانبين إلى أقصى درجة ممكنة كما لو كان يحتضن جذع شجرة سيكويا ضخمة، يصل محيطه فى بعض الحالات إلى خمسة عشر مترا، إذ قال (أنا فهمتكم)........... (أنا فهمتكم)......... (أنا فهمتكم)............ وقد انتشرت هذه الصيغة هى الأخرى فى البلاد ولهذا فإننا هنا فى هذا النص سنذكر على سبيل الدعابة والمزاح كيف تحورت هذه الصيغة على لسان العامة والدهماء فى ربوع البلاد إذ أصبحوا يقولون (الوزير قد اتهم/ والرئيس قد فهم)......... (الوزير قد اتهم/ والرئيس قد فهم)......... وهكذا.

(٨)

منذ سنوات طويلة حكى لى القوقع الحلزونى العنيد كيف واتته فكرة إقامة المشرب وذلك بعد زيارته الأولى لمدينة دوالا فى الكاميرون حيث وجد فى (نيو بل) وهو الحىّ الشعبى فى المدينة، مشربا معروفا باسم (الكاتدرائية) وهو البار الذى لم يغلق أبدا أبوابه منذ افتتاحه. عندما رآه القوقع الحلزونى لأول مرة تحول فجأة إلى عمود من الملح، أى أصابته حالة من الذهول فدخله وجلس فيه على أحد المقاعد وطلب من الساقى مشروب الجعة (البيرة) من ماركة (فلاج Flag).

عندما لاحظ صاحب مشرب الكاتدرائية وجود القوقع ولمح انبهاره بالمكان، قدّم إليه نفسه وقال إنهم يسمونه (ذئب البوادى والسهوب) وهو عنوان رواية للأديب السويسرى هرمان هسيه. وحسب كلمات القوقع كان هذا الرجل يشبه نوعا بشريا على وشك الانقراض أو انقرض فعلا أو أنه يشبه مومياءات قدماء المصريين إذ لم تكن لأى شىء فى حياته، عدا مشربه أية أهمية، حتى أنه لم تكن هناك أية أهمية لدعك ما تبقى من أسنانه القذرة بفرشاة أسنان، حتى ولا حلاقة شعيرات ذقنه المتوزعة على بشرته فى شكل حزم تشبه نبات الصبّار، إذ كانت ممارسة أىٍ من هذه الأفعال تعتبر فى اعتقاده وقتا ضائعا، كان طوال الوقت يمضغ بين فكيه نوّارة نبات الكولا ويدخن تبغا متعطنا عفنا، إن تحقيقه لهذه المعجزة كان يجعلنا نعتقد أنه يمكنه أن يتنقل بين الأماكن باستعمال البساط

السحرى، ليطير بين تلك الأماكن كما يحدث فى بعض القصص الخيالية مثل (ألف ليلة وليلة).

وهكذا بدأ القوقع الحلزونى يلقى على ذئب السهوب (ألف سؤال وسؤال) وقد أجابه عليها الذئب دون أى تردّد، أول ما أدركه القوقع هو أن السر فى استمرار المحل دون إغلاق طوال هذه السنوات، هو أولا بفضل اعتماد الذئب على عمّال يخلصون له. ثانيا بفضل إدارة الذئب لمحله بطريقة واعية منتبهة واشتراكه هو نفسه فى القيام بعملية خدمة الزبائن.

كان يصل كل صباح إلى الكاتدرائية ويصل كل مساء إلى الكاتدرائية فيراه عماله ويراه زبائنه ويراه كل الناس، وقد أدى هذا الأسلوب إلى اعتقاد البعض أن هذه الكاتدرائية هى مكان حقيقى للعبادة يذهب إليه الإنسان فى الصباح والمساء، لممارسة الصلوات الصباحية والمسائية.

الذئب يسكن فى كهف يقع مباشرة أمام باب الكاتدرائية إلى الجهة الأخرى من نفس الشارع مما مكنه من المراقبة الدائمة للمكان وهو ينام بعين واحدة مغلقة بحيث يترك العين الأخرى مفتوحة، وهو فى أى وقت قادر على معرفة عدد الزبائن فى محله ومن منهم يشرب ومن منهم لا يشرب، بل الأدهى من ذلك أنه قادر على ذكر أسماء كل الزبائن الذين يثرثرون بلا جدوى بدلا من أن يشتروا شيئا يشربونه. بل يمكنه أن يذكر لك عدد زجاجات النبيذ المباعة فقط بالتصنت بالأذنين من مرقده فى الكهف المواجه للمشرب. وهو مستعد حتى فى منتصف الليل للذهاب إلى المشرب إذا لزم الأمر إذ يستيقظ من نومه، ويعبر شارع (كاكاس) ليطرد من

مشربه أحد مثيرى الشغب قائلاً له إن مشربه ليس حلبة ملاكمة زائيرية، لمشجعى الملاكم محمد على ثم يذكره بالحقوق والواجبات الرئيسية لزبون الكاتدرائية، وهى منقوشة على لوحة من خشب الأوكوما وهو نوع من الخشب الوردى الذى يقطع من أشجار تنمو فى إفريقيا الاستوائية وموضوعة بحيث تكون فى طريق الداخلين إلى المشرب ولا يستطيعون بأى حال تجنب إلقاء نظرة عليها.

أولا: الحقوق

١ ـ يحق للزبون أن يختار زجاجة النبيذ التى سيشربها دون أن يعترض على ذلك الاختيار نادل المكان.

٢ ـ وفى حالة احتساء الزبون لنصف زجاجة النبيذ فقط، فمن حقه أن يحتفظ له المحل بزجاجته نصف الممتلئة ليعود إلى المحل لاحقا فى أى وقت يختاره ليحتسى النصف المتبقى له فيها.

٣ ـ من حق الزبون الحصول على هدية عبارة عن زجاجة مجانية إذا تمكن من المواظبة على المجىء إلى المشرب يوميا لمدة عشرة أيام متتالية.

ثانيا: الواجبات

١ ـ عدم العراك مع الآخرين.

٢ ـ عدم التقيؤ داخل المشرب بل الذهاب إلى شارع (كاكاس) للتقيؤ فيه.

٣ ـ عدم إهانة نادل المكان.

٤ ـ دفع ثمن المشروب إلى النادل بمجرد تقديم المشروب.

٥ ـ إدراك أن تردد الزبون على المشرب لم يكن أبدا بسبب إلحاح ذئب السهوب عليه.

وطوال إقامة القوقع الحلزونى فى (نيو بل) تردد كل يوم على مشرب الكاتدرائية حيث كان يجلس ويحتسى المشروبات ويلاحظ تصرفات النادل والزبائن عن قرب ويناقش ذئب السهوب فيها وقد أصبحا على ما يبدو صديقين حميمين. فى ذلك الوقت وقع القوقع فى هوى هذه المهنة إذ شعر تجاهها بالإغواء التام فعاد مسرعا الى بلده وهو لا يحلم إلا باستنساخ النموذج الذى شاهده فى (نيو بل) ولكن ظهرت عقبة نقص التمويل فنحن لا نحقق الأحلام بمجرد نطق بعض الكلمات.

بدأ أولا بالحصول على المال الذى كان له فى بعض الأوعية الادخارية ثم حاول ثانيا إقناع بعض الناس بإعارته بعض المال، فكانوا يضحكون منه عندما يسمعون بمشروعه إذ قالوا له إن مشروعه يشبه أن تحاول السفر من المطار ومعك فى حقيبتك سمك سومون بدون أن تحصل على إذن مكتب الصحة والجمارك.

ومع ذلك فقد شرع القوقع العنيد فى تنفيذ مشروعه بالتدريج ولم يبدأ إلا بأربع موائد وببوفيه طوله أقل من مترين تصف عليه الزجاجات، وبفضل شدة إقبال الناس زاد عدد الموائد إلى ثمانية، ثم بفضل استمرار إقبال الناس زاد العدد إلى عشرين مائدة ثم أخيرا إلى أربعين مائدة مع شرفة (تراس) خارجية حين بدأ الناس فى الوقوف طابورا أمام باب المشرب فى انتظار دورهم فى خلوّ مائدة. أصبح مشرب (لو كريدى) هو حديث المدينة وانتقلت أخباره

كالهواء من الألسنة إلى الآذان، خاصة لأن الناس كانوا يعرفون أن الحلزون هو رجل يحترم القانون ويدفع الضرائب التى عليه فى أوقاتها دون حتى أن يناقش رجال الضرائب فيها.

١ ـ دفع أولا ثمن شهادة الحصول على براءة اختراعه الجديد (المشرب).

٢ ـ ثم دفع كل التراخيص المطلوبة منه ذات اليمين وذات اليسار.

٣ ـ طلبت منه جهات الإدارة شهادة معموديته فى الكنيسة والتى كان قد حصل عليها أبواه وهو طفل صغير.

٤ ـ بطاقات التحصينات الصحية ضد الأمراض المختلفة المعدية والمتوطنة مثل شلل الأطفال، والحمى الصفراء، والبرى برى (وهو مرض نقص فيتامين ب) ومرض النوم (بسبب ذبابة التسى تسى)، ومرض تصلب الألياف العصبية المتعدد(*).

٥ ـ رخصة قيادة نقالة بعجلتين.

٦ ـ رخصة قيادة دراجة.

٧ ـ بشرط أن يغلق المشرب أبوابه عند منتصف الليل.

٨ ـ وأن يغلق أبوابه أيام الآحاد وفى الإجازات الرسمية.

٩ ـ وأن يغلق أبوابه فى يوم دفن أحد الأقرباء (احتراما للموتى).

وقد وصلته رغم ذلك تهديدات عديدة من أناس مختلفين بأنهم سيغرقون له محله فى لجج المشاكل ونصحوه بأن يسميه (تايتانيك) بدلا من (لو كريدى) لأنه سيغرق سيغرق وأن لا أمل له على

(*) multiple sclerosis

الإطلاق، وأنه سيصبح مشردا فى الشوارع بلا مأوى مثل قطعة خشب فى غابات الله أحد ملاعين الأرض وأن يستعد مثل بعض فلاسفة الزمن القديم للنوم فى براميل الصفيح التى تملأ الشوارع، ورغم كل ذلك ظل الحلزون العنيد على قيد الحياة واقفا على قدميه مصمما على إحراز النصر كأى لاعب شطرنج وهو يرى السنوات تمرّ والمعركة المريبة مستمرة.

١ ـ وقد توقف الغيورون منه عن جمع القمل من إكليل النصر الذى يحمله فوق رأسه.

٢ ـ وبدلا من إكليل النصر وضعوا له إكليل الشهداء.

٣ ـ ثم بدأت مكائد التجار الآخرين ودسائسهم، بعد أن أشاعوا أنه ساحر شرير.

٤ ـ قال بعضهم إنه الساحر الشرير أودينى.

٥ ـ وقال البعض الآخر إنه إعادة تجسد زعيم المافيا آل كابونى.

٦ ـ أو القاتل المحترف الإرهابى أنجوليما، صاحب الأصابع الاثنى عشر.

٧ ـ كما قالوا إنه أحد المرابين المقيمين من ذوى الأصول اللبنانية.

٨ ـ بل قال بعضهم إنه أحد المرابين المتجولين وأنه من أصول يهودية.

٩ ـ ووصل الأمر إلى حد نعته بالرأسمالى وهى تهمة لو تعلمون جدّ خطيرة، بل هى سبّة فى جبين أى رجل شريف أفظع من السباب الذى يمكن أن يوجّه إلى عضو الأم الجنسى التناسلى أو إلى عضو الأخت الجنسى التناسلى أو إلى عضو خالتك

الجنسى التناسلى أو إلى عضو عمتك الجنسى التناسلى.......
إذ إننا نحتقر الرأسماليين، ويمكننا أن نتقبل كل أصناف الشتائم والإهانات إلا أن يقال إننا رأسماليون هذا هو الشئ الوحيد الذى يمكنه تبرير استعمال العنف للردّ على هذه الإهانة، تبرير الصراع الطبقى تبرير تصفية الحسابات حتى الموت، وذلك لأن الرأسمالى هو الشيطان، ببطنه المتفخ ورأسه الأصلع، وسيجاره الكوبى وسيارته المرسيدس إنه بسبب أنانيته المفرطة غالبا ما يكون شديد الثراء ثم إنه السبب الكامن وراء كل فساد، وراء استغلال الإنسان للإنسان (الرجل للرجل/ المرأة للمرأة/ الرجل للمرأة/ المرأة للرجل) إنه يتسبب حتى فى استغلال الحيوان للإنسان.وذلك لأن الكثير من البشر هنا يعملون فقط فى خدمة الحيوانات التى يحتفظ بها الرأسمالى فى مزرعته حراستها وتغذيتها واصطحابها فى جولات على الأقدام لمساعدتها فى هضم الطعام.

هكذا تمّت معاملة الحلزون على أنه رأسمالى وحتى يستمر فى المقاومة فقد قرر تجاهل هذه الإهانة البالغة وحتى يحمى نفسه من مثل هذا الكلام الجارح، فقد انسحب ملتفا على ذاته مثل كل الكائنات الميكروسكوبية الرخوية من ذوات معديّات الأرجل، أى أنها تحمل معداتها على أرجلها(*) وهى تلك الرخويات التى إذا ما تعرضت للاعتداء عليها، تغطى نفسها بطبقة من الخلايا السميكة، لتحمى نفسها بها.

(*) gastropode

وقد مرت العواصف بسلام ومرت الزوابع بسلام وقد انحنى أمامها كلها مثل كل إنسان حكيم، قوقعنا الحلزونى العنيد ولكنه لم يستسلم ويعود بعض الفضل فى قدرته على الاستمرار إلى بعضنا من أصدقائه المخلصين الذين وثقوا فيه منذ البداية ولو لم نكن قد فعلنا هذا، لكان قد استمر فى وقفته الناعسة أمام رف الزجاجات فى مشربه أو خلف البوفيه يهش وينش الذباب خلال الشهور الأولى بعد الافتتاح، حين لم تكن لديه عمالة يمكنه أن يعتمد عليها وحين كان يستعين أحيانا ببعض أولاد العم أو أولاد الخال الذين لم يكونوا أبدا أمناء على ماله، فكانوا يسرقون مكاسبه المتواضعة فى ذلك الوقت مع طلعة كل نهار ومع صياح كل الديَكة فكان يصحو كل صباح ليكتشف أن خزينته نصف مسروقة رغم وجود جبل من زجاجات النبيذ الفارغة فى المشرب وهى تلك التى أفرغها الزبائن فى جوفهم أثناء الليل.

(٩)

أدرك الحلزونى أنه لا ينبغى خلط الأوراق بين العمل والعائلة وأنه ينبغى أن يوظف لديه أناسا جادين يتحملون المسئولية، ثم كان لديه ما يكفى من الحظ ليعثر على اثنين منهم، وهما اثنان لا يمكن إفسادهما بالإضافة إلى سذاجة إيمانهما به واعتقادهما فيه.

لنقل إن أحدهما اسمه موبيرو وإنه لحّاد (دافن موتى) سابق لا يمكن أن تنبسط أساريره إلا بالمصادفة البحتة وهو من النوع الذى لا ينبغى أن تلقى على مسامعه أى نوع من أنواع الدعابات فبالنسبة إليه لم يكن الضحك أبدا خاصية بشرية ولا ينبغى أن

تطلب منه أبدا مشروبا على الحساب أو أن تطلب منه أن تدفع فى وقت لاحق، فهو سيرد عليك قائلا (أنت ستدفع الآن أو ستخرج من المشرب إلى الشارع بضربة من قدمى فى مؤخرتك). إن هذا هو ما سيقوله موبيرو لو حاولت.

لم أره أبدًا يتناقش مع أى شخص وإذا قلت أبدا فأنا أعنى أبدا. كنت أنظر طويلا إلى وجهه الحجرى وإلى حاجبيه اللذين على شكل ٨٨، وإلى شفتيه اللذين على شكل الحافة الدائرية كاملة الاستدارة لكأس امتصاص الدم فى عملية الحجامة O، وإلى عضلاته التى تشبه تلك التى لبطل مصارعة حرة. يقال إنه ذات يوم كان فى نوبة غضب، فلم يجد أمامه إلا شجرة فاكهة ظل يضرب جذعها حتى سقطت كل أوراقها ويحكى أيضا أنه إذا كان غاضبا فعلى من معه أن يعطيه لترين من زيت النخيل ليشربهما، بالإضافة إلى شرب كأس من شحم شجرة البو ـ وا ثم يعطى له كذلك كيلوجراما من البصل الأخضر يمضغ ويعضعض فيه، نحن نعرف هنا أنه ينبغى تجنب الأسباب التى قد تؤدى إلى عراك معه لأن نهاية هذا العراك ستكون سيئة بل حتى ستكون سيئة جدا.

أما فيما يتعلق بالنادل الثانى، فاسمه (وينجاكى) وكان فى السابق لاعبا لكرة القدم فى موقع حارس المرمى، لفريق كرة قدم قبائل (البم ـ بيه)، وهو تعلم فى تلك القبائل كل طرق استعمال السكاكين أفضل من القتلة المحترفين من جزارى البشر. يستطيع كذلك بقدرات الحواه أن يلتقط زجاجة كانت من المحتم ستسقط على الأرض لو لم يكن لحقها قبل أن تسقط على الأرض. هو يستطيع أن يكون أحيانا شخصا لطيفا، ولكن لا يجب أن نبالغ فى القول وذلك لأن زميله مومبيرو يأتى إليه من وقت لآخر ليعيده إلى

ما ينبغى عليه أن يكونه، فى كل مرة يلاحظ فيها أنه يرفع التكليف مع أحد الزبائن. وينصحه قائلا (إنه ليس من المصلحة أن يقترب من الزبون ولا أن يترك نفسه ينساق وراء الإحساس بالاعتياد على بعضهم).

حين تكون هناك مشكلة يبدأ بومبيرو فى استعراض عضلاته فى الوقت الذى يكون فيه وينجاكى فى سبيله إلى محاولة لعب دور الدبلوماسى ولكن لأن وينجاكى متعدد الإمكانيات فهو يبدأ فى تعمّد إظهار السكين لخصمه المحتمل وهى السكين التى يخفيها فى طيات ملابسه بنوع من التهديد المستتر الذى يمكنه أن يتحول بين لحظة وأخرى إلى تهديد صريح.

هذان الرجلان يعملان سويا فى المشرب منذ افتتاحه وهما يحبان عملهما وهما قد يتواجدان معا فى المشرب فى نفس الوقت ولكن غالبا ما يكون أحدهما مسئولا عن المناوبة الصباحية والآخر عن المناوبة المسائية ولم يحدث أبدا بينهما أى نشاز فيما يتعلق بهذا الخصوص بل يسير العمل فى انسجام تام وبالتالى يظل (لو كريدى) دائما مفتوحا ويبقى الزبائن دائما مبسوطين، ولا يلاحظون ساعاتهم أثناء تواجدهم فيه فهم لا يخافون من أن يحدث هنا ما يحدث غالبا فى محلات أخرى، حيث يوجد نادل يتعجل عودته إلى منزله فيجبرهم على مغادرة المكان صارخا بصوت عال (إن المشرب سيغلق أبوابه بعد بضع دقائق، فافرغوا كؤوسكم وعودوا إلى منازلكم يا عصابة من السكارى غير القابلين للتهذيب اذهبوا الآن لتلحقوا بنسائكم وأطفالكم واجتهدوا أن تبلعوا حساء ساخنا من أسماك البحر فى محاولة لاستبعاد الكحول الموجود داخل أجسامكم).

رب أسرة مطرود من منزله كما لو كان كلبا مسعورا كيف يمكننى أن أنساه؟ قابلته هنا منذ شهرين وأضحكنى كثيرا وأبكانى أيضا، هو رجل غلبان وتحوّل حاليا إلى عجوز لا حول له ولا قوة يرتدى حفاضات الأطفال (بامبرز) لتقيه من التبول اللا إرادى. انظروا معى وقولوا لى هل هذا يضحككم أم يبكيكم؟ أنا لم أطلب منه أبدا أن يحكى لى أى شىء لم أفعل أبدا أى شىء أكثر من النظر إليه مباشرة فى عينيه.

قال لى بعدائية واضحة (زجاج مكسور، هل تريد أن تلتقط لى صورة؟ أرجوك اتركنى فى حالى واذهب للنظر فى عيون أولئك الآخرين الذين يثرثرون فى ذلك الركن البعيد).

مع هذه النوعية البائسة اليائسة من البشر لا ينبغى أن نرد بسرعة باستخدام نفس الأسلوب العدوانى قلت (يا عزيزى إنى أنظر إليك كما أنظر إلى كل الآخرين، هذا هو كل ما فى الموضوع).

(نعم ولكنك تنظر إلى بطريقة غريبة ليس هكذا ينظر الناس إلى الناس).

(كيف تعرف أننى أنظر إليك وأنت تنظر بعيدا ولا تعيرنى أى انتباه) وشعرت أنه تجمّد فى مكانه وقد أوقعته فى هذا الفخ.

(لن أتحدّث إليك بأى شىء عن حياتى فهى ليست للبيع فى المزاد) أدركت لحظتها أنه إنسان ضائع وتساءلت إن كنت أريد فعلا أن أنصت إليه؟ هذا النوع من البشر يبدأ أولا بمضايقتك إذا أراد

فعلا أن يبصق فى وجهك فيما بعد ببعض أسرار حياته هو يريد أن يشعر أنه كان واقعا تحت ضغط أى أنه كان مضطرا أن يحكى لى.

(أنا لا أطلب منك أن تتكلم أيها الرجل الشجاع فأنت لا تعرفنى جيدا ولكن أسأل الآخرين هل أنا أوجه إليهم أسئلة شخصية، أى أسئلة عن أشياء لا يرغبون فى الإجابة عليها؟)

وبعد لحظة صمت قال (زجاج مكسور إن الحياة معقدة جدا اجلس أمامى فقد قررت أن أحكى لك).

ثم تدفقت منه الكلمات فى هذا المونولوج الطويل:

(لقد بدأ كل شىء فى اليوم الذى عدت فيه إلى منزلى فى الخامسة صباحا.......... .عندما اكتشفت أنه كان قد تمّ تغيير قفل الباب....... قفل باب منزلى، ذلك لأنى لم أتمكن من استعمال مفتاحى........ وهذا المنزل هو منزلى.

صحيح أنه منزل مستأجر........ ولكنى أنا المستأجر الذى يدفع إيجاره كل شهر...... وكنت أنا قد عثرت عليه واخترته لسكنى أنا وأفراد أسرتى......... وقد دفعت مقدّم إيجاره......... أقسم لك بأبى وأمى وبأولادى الستة.

دفعت مقدّم إيجار لمدة اثنى عشر شهرا ثم بدأت فى أعمال التجديدات من دهانات وخلافه وقد أنجزت كل هذه الأعمال وحدى.

أما فيما يتعلق بزوجتى فأنا لا أريد أن أتحدث عنها وإلا فقدت أعصابى تماما هنا والآن........هى ليست امرأة حقيقية بل هى مثل إناء به بعض الزهور الذابلة بل مثل شجرة لم تعد تعطى أى ثمار بل إنها مثل حقيبة مليئة بالمشاكل.

كانت معتادة على البقاء فى المنزل طوال النهار قريرة العين راضية مرتاحة الضمير خالية البال مثل حبة من حبوب البطاطس بل مثل أى سيدة رأسمالية أصيلة تنتظر فى المنزل أن يعود زوجها إلى المنزل بكل تلك النقود الطازجة، فتظل أثناء انتظارها تدور فى كل أنحاء المنزل تدور فى دوائر لا تنتهى من الصباح إلى الظهيرة إلى المساء تتحدث وتثرثر مع كل أولئك السيدات المطلقات السمينات المضحكات أو سيدات حى التروواسان من الأرامل الساحرات الشريرات المرتديات تنّورات عفنة الفاجرات الفاسقات النمامات المغتابات اللائى لا ينشغلن إلا بمحاولات تفتيح بشرتهن وبمحاولات تنعيم شعورهن المجعدة تشبها بالنساء البيضاوات فى حين أن بعض البيضاوات قد بدأن فى تجعيد شعورهن وتجميعها فى ضفائر تشبها بالنساء السوداوات.

هكذا يمكنك أن ترى المشكلة يا عزيزى زجاج مكسور فزوجتى كانت دائما هناك تتسكع مع أولئك النسوة من المتهتكات الرخيصات اللائى يدعين الذهاب إلى الكنيسة للصلاة والحقيقة هى أنهن يذهبن إلى هناك للاتفاق مع عشاقهن الأقذار على ممارسة الفحشاء فى وضع الوقوف المتعجّل داخل الكنيسة نفسها..... أقسم لك أن هذا يحدث هكذا هناك، إذ لم يعد أحد يحترم بيت الرب.

ثم أين هو هذا الرب من كل هذا؟.........أنا لم أعد أعرف حقا أين هو؟ على أية حال أنا متأكد أنه لم يعد موجودا على الأقل فى تلك الكنائس.

والغريب أن أولئك المتهتكات الشرسات مقتنعات أن الله موجود هناك، وأنه رحيم جدا إلى درجة أنه سيغفر لهن كل خطاياهن

وذنوبهن وحماقاتهن مهما كانت.......... رغم أن كتاب أورشليم المقدّس يمنع ارتكابها.

أؤكد لك وقوع الفسق والفحشاء كل يوم داخل كل كنائس الناحية فليس هناك مكان أفضل من الكنيسة لارتكاب ما يسميه القانون الفعل الفاضح العلنى وهذا هو السبب الرئيسى فى الزيادة الحالية فى أعداد الكنائس.

فى تلك الحفلات الجنسية الجماعية يتم تبادل النساء بين الرجال المختلفين حيث يمكنك أن تذهب إلى هناك ومعك امرأة ثم ترى هناك امرأة أخرى تعجبك مع رجل آخر فتتفقان على إجراء عملية استبدال.

كل الناس هنا تعرف أن ما أقوله لك حقيقى ١٠٠٪ حتى رجال الحكومة الذين يقوم بعضهم بتمويل تلك البيوت المقدّسة المخصصة للدعارة، من أموال الشعب ولكنها ليست كنائس حقيقية وإنما يشرف عليها حليقو الجماجم الذين يسيئون استغلال كتاب أورشليم المقدس بتشويهه وتدنيسه وانتهاكه ....

ليس هذا فقط بل إن الكنائس تمتلئ بالشواذ من مثليى الجنسية وبالشاذات من مثليات الجنسية وبالشواذ من ممارسى الاعتداء الجنسى على الأطفال وبالشواذ والشاذات من ممارسى الجنس مع الحيوانات والقائمة لا تنتهى فهم طوال وجودهم هناك يتحككون بعضهم فى بعض بين صلاتين أو بين دعاءين بطلب الرحمة من العذراء القديسة مريم (آفيه ماريا(*) ....

(*) Ave Maria

ويمارسون كل هذه الأفعال كذلك خلال ما يسمّونه مواسم الحج إلى الجبال العالية فى لو وانجا ونى دجى لى وديوسو وهى كلها أسماء لجبال قريبة مدّعين أنهم إنما يبحثون عن الخلوة، للتأمل فى خليقة الله..............

بعيدا عن الكفار قليلى الإيمان من أمثالنا أو الأغنام الضالة كما يحلو لهم أن يسمّونا أو الفريسيّين كما كان يسمّيهم كتاب أورشليم المقدّس وهو يقصد الطائفة من الناس الذين كفروا بالمسيح وقت ظهوره...

وهم فى الواقع يختلون بالنساء للتأمل فى النساء لا أكثر ولا أقل أو قد يختلى الشاذ جنسيا بالشاذ جنسيا مثله ليتأمل كل منهما فى الآخر...........

هم يذهبون إلى أعالى الجبال حتى لا يعكّر عليهم أى شخص صفو ممارساتهم الشاذة وأنا أقولها لهم بالصوت العالى (انزل يا موسى من أعلى جبلك...

لقد أصبح كل أولئك الناس من المجانين الرسميين وقد التحقت بهم زوجتى لتمارس معهم كل أصناف جنونهم وحماقاتهم مع رئيسهم الروحانى الذى يسمّونه الجورو، والذى يحبونه إلى حد العبادة بل إلى حد الاستعداد للموت من أجله ....

أقولها لك لقد مارس هذا الجورو الجنس مع العديد من النساء والفتيات وبذر بذوره المقدّسة فى أرحام العديد منهن ومن بينهنّ فتيات صغيرات لم يكن قد بدأن بعد فى تعلم طريقة استعمال الفوط الصحية............

هذا الجورو غنى جدا لدرجة أنه إذا قررت أمريكا حصارا اقتصاديا على البلاد يستطيع أن يتكفل بإطعام أهل حى الترواسان لمدة مائة عام هذه الأموال تأتى من الناس أى منك ومنى.......

علاوة على ذلك هو يعرف كل الناس المهمين فى البلد، من أصحاب المناصب الكبيرة فى الجهاز الإدارى ولديه الصور الفوتوغرافية المأخوذة له مع رئيس الجمهورية اللواء قائد الجيوش ومع رئيس الوزراء ومع الكثير من عمداء الجيوش..........

ويقال إنه هو الذى يعطى نصف الدواب التى توزّع مجانا على الناس الفقراء فى عيد الضحية ....

وقد لا تعرف أن له برنامجه فى التليفزيون يوم الأحد من كل أسبوع حيث يتخذ سمت الجدية ويتحدث مثل الدعاة والوعّاظ الأمريكيين السود فيهدد غير المؤمنين من الكفار بالويل والثبور وعظائم الأمور، من أمثال يوم الحساب الأخير ولهيب النار فى جهنم، وكل تلك القصص..........

بهذه الطريقة يستطيع تجنيد المزيد من الأتباع وبالتالى يستطيع جمع المزيد من أموال التبرعات للفقراء تلك الأموال التى تبلغ أرقاما فلكية هائلة.............

وهو أثناء حديثه التليفزيونى تظهر على الشاشة أرقام تليفونات يمكنك الاتصال به من خلالها، وتظهر على الشاشة مجموعات أطفال يجلسون حوله وإلى جواره، وهم يرتدون الملابس البيضاء يرنمون مسبحين، لا بحمد الله، بل بحمده هو..............

ثم يتنافس المشاهدون فى إرسال العطايا والهبات المالية ذات المبالغ الخرافية التى تظهر أرقام مبالغها على الشاشة كما يظهر معها اسم المتبرّع ولا يسأل أحد أين تذهب تلك الأموال ....

الواهبون يعتقدون أنهم كلما زادوا من عطاياهم، لذلك النصّاب زادوا اقترابا من أبواب الجنات التى يعدهم بها................

هذا الرجل يشبه تماثيل بوذا تلك التماثيل السمينة التى تبدو على وجوهها ملامح الشر وتبدو أحيانا فاسقة داعرة.............

أنا لا أحب هذا الرجل ولكنى لا أعرف كيف يمكن مهاجمته وهو فى حماية مستمرة طوال الوقت وهو يحيط نفسه بكل هذا العدد من الحرّاس الشخصيين المسلحين بكل أنواع الأسلحة بالإضافة إلى رجال الجيش من العسكريين النظاميين ....

وقد أردت أن أطلب موعدا لمقابلته فكان ينبغى علىّ أولا أن أقابل سكرتيريه ومساعديه ليحددوا لى موعدا بعد بضعة أسابيع ثم أثناء اللقاء لا يسمحون لك بالاقتراب منه بل يمكنك أن تحدّثه من على بعد................

أنت ترى الآن كيف أن قصته تلك ليست قصة بسيطة، بل هى معقدة جدا إذ إنه ليس الأب الكاهن كما يعتقد العامة، بل هو رجل أعمال (بيزنس مان) وأعماله تلك تسير سيرا حسنا.............

ونصل الآن إلى النقطة المهمة، فأنت تستطيع الآن أن تفهم كيف أن رجل دين مثله له كل هذا العدد من النساء فى حريمه مخصصات له وحده يلتقى بهن فى الكنائس وفى أعالى الجبال فى سويقات جنسية وكرخانات لا مثيل لها يمكن أن تمارس فيها كل أنواع الجنس الطبيعى والشاذ...............

وهذا هو ما يجعل زوجتى، تهجر منزل الزوجية بالأسابيع من أجل الذهاب إليه فتذهب معه إلى تلك الجبال التى تعتقد أنها مقدّسة وأنها ملجأ الروح............

وعندما عارضتها وحاولت أن أوضح لها الحقيقة جرؤت على عصيانى واعتقدت أنها تستطيع أن تضع القوانين التى تحكم العلاقة بيننا فخرجت من المنزل رغم منعى لها ورغم أننى كنت لا أزال أدفع لها كل مصروفات هذا المنزل...............

هل سبقت لك رؤية شىء شبيه بذلك فى هذا العالم الفانى؟

(١١)

أقول لك إن هذه أشياء لم يسبق لأحد أن شاهدها.

ثم بعد ذلك تجرؤ على منعى من الذهاب للترفيه عن نفسى مع المومسات الصغيرات الساخنات الشبقات اللذيذات فى حى ركس المخصص لبيوت الدعارة..........

إذن ماذا ينبغى علىّ أن أفعل أثناء انشغال الجورو فى الجبال المرتفعة بالترفيه عن زوجتى؟ هل أقف أتفرج بذراعين معقودين على الصدر؟ أم أنشغل بقراءة كتاب أورشليم المقدّس؟ أم أجلس أدلل أطفالى فى المنزل وأعدّ لهم الطعام؟ ....

أنا لا أعترض على أن أكون زوجًا مخدوعًا (بقرون) على ألا يكون هذا مع من يدّعى أنه أحد رجال الدين أولئك الرجال الذين من المفترض فيهم أن يقودونا إلى الفراديس......

أنت تفهم الآن لماذا يحدث لى أن أظن أن أولادى ليسوا فى الحقيقة أولادى، إذ قد يكون أحدهم هو ابن لهذا الجورو، باستثناء ابنتى التى تشبهنى تماما.......

صحيح أننى أحب فتيات حى الدعارة الصغيرات الشبقات الساخنات أحب أن أذوق طعمهن فحلاوتهن حلاوة ربّانى ثم إنهن يجدن التعامل مع الشىء أقصد مع العضو، أنت فاهم طبعا.........

إنهن يولدن بهذا الحس فى أحشائهن بهذه الموهبة فى دمائهن فعندما يمسكن به يحس الرجل بالرعشة ثم بالخدر ولا يمكن لرجل أن يحس بهذه الرعشة وبهذا الخدر فى بيته مع زوجته.........

إن أولئك الصغيرات مرعبات، أقول لك يا زجاج مكسور إنهن مثل براكين تقذف الحمم الملتهبة إنهن يقدمن لك وعدا بأن تطول السماء وإذا بك تطولها فعلا وإذا بهن يقدمن لك السماء نفسها هدية ملفوفة فى ورق هدايا، فى حين أن زوجات منازلنا لا يقدمن لنا أى وعد، ولا يحققن لنا أى حلم.................

أما الحديث عن قوام فتيات حى الدعارة ركس فحديث لا ينتهى إن قوامهن قدٌّ من كاوتشوك مطاط قابل للشد والجذب والمدّ قابل للثنى والفرد قابل لكل شىء كما يروق لك فإذا أردت الوجبة بطعم الشطة الحراقة موجود، وإذا أردت الوجبة بطعم السكر اللاذع المحروق أيضا موجود...............

أنت هناك تصبح محموما بالرغبة فهن يعرفن كيف يتحدثن إليك همسا فى أذنك والواحدة منهن تتابع انتصاب عضوك، وقياس زيادة حجمه ملليمترًا بعد ملليمتر، ويعرفن أين يلمسنه بإيقاع أيديهن حتى يستيقظ كل جزء فيه ....

ويعرفن جيدا كيف يتحاشين كل ما يمكن أن يؤدى إلى تراجعه كأن الواحدة منهن تقود سيارة فعندما يتوقف المحرك تعرف كيف تعيد تشغيله وكيف تتنقل بمهارة بين ترس السرعات، فتشعر أنت بعد ذلك فى اللحظة التالية، بسعادة غامرة وكأنها أكبر سعادة شعرت بها فى حياتك............

ماذا تريد منى يا زجاج مكسور؟ إن النقود هى نقودى ويحق لى أن أستعملها بالطريقة التى تروق لى فزوجتى لم تكن تجيد فعل هذا الشىء والا لكنت بقيت فى منزلى مثل بقية حمقى الحىّ............

ماذا كانت تفعل زوجتى؟ كانت تتأملنى قليلا ثم تطلب منى مثلا أن أقوم لأقلم أظافرى فإنها طويلة زيادة عن اللزوم، تتذكر هذا فى اللحظة التى أقترب منها بغرض ممارسة حقوقى الزوجية هى تفعل مثلما تفعل أغلب الزوجات للأسف............

أما عندما كنت أعتليها فكان يمكنها على الأقل أن تتصرف بما يوحى بأنها راضية بلاش راضية على الأقل أن تتصرف بما يوحى بأنها ليست تعيسة إلى هذه الدرجة........

كانت تجعلنى أبدو وكأنى مثل سائق دراجة فى سباق دراجات الحىّ لا أفعل إلا أن أبدّل ساقىّ فى الهواء، بدون أى نتيجة ملموسة...........

سأقول لك سرا رغم أنه ولا سر ولا حاجة فالقاصى والدانى يعرفان تلك القصة والعامة والخاصة كذلك يعرفونها ذات يوم كنت أمارس الجنس معها فعل الحب كما يقول الغربيون، أتلوّى فوقها وأبذل مجهودا حقيقيا، وإذا بها فجأة، وبأسلوب شبه إجبارى تطلب

منى أن أسرع فى الانتهاء من هذه المسألة لأنها لا تريد أن تفوتها الحلقة الأخيرة من مسلسلها التليفزيونى المفضل (القديسة باربارة/ سانتا باربارة)............

فى اللحظة التالية ارتخيت تماما ولم يعد هناك أى أمل فى عودة عضوى إلى العمل، نفدت البطاريات فلا شىء لا شىء على الإطلاق يريد أن يعود الى العمل من جديد أقول لك تحوّلت فى لحظة واحدة إلى شخص عاجز جنسيا بسبب عبارة واحدة نطقت بها تلك المرأة...............

تحوّل عضوى إلى راية علم بائسة منكسة على ساريها الذى كان منذ قليل مرتفعا فأصبح الآن ساريا سابقا وذلك قبل أن تواصل آلتى المسكينة انهيارها السريع، قبل أن تصل فى تحوّلها النهائى إلى عضو ذكرى لرضيع ناقص النمو.............

كنت محتارا مضطربا قلقا قررت أن أغادر المكان فورا وأثناء ارتداء ملابسى قررت أن أفرغ كل ما فى جوفى تجاهها وإذا بى لا أجد إلا كلمة واحدة تعبر عن شعورى نحوها، كلمة كررتها بصوت مرتفع عدة مرات (خرة........ خرة.......... خرة.،...... خرة)...........

أقسمت ألا أدفع بعد ذلك أى شىء فى هذا المنزل طالما أصرت هذه المرأة على عدم تحريك مؤخرتها تجاوبا مع رغباتى ثم ذكرت لها شيئا مثل أنه لا ينبغى لها أن تعتقد أنها تستطيع أن تعتمد على ماديا بعد الآن فأنا لست ساذجا أو مخبولا أو أحمق وأنه لدىّ كرامتى التى أدافع عنها ولدىّ كذلك اعتزازى بذاتى الذى أدافع عنه.............

كل هذا وهى صامتة ولكنى قبل مغادرة المكان نجحت فى إثارة غضبها عندما قلت إننى تزوجت لوح خشب، وأنها لم تفهم أبدا أهمية أن تساعد الزوجة زوجها فى الوصول إلى اللذة، وأن الفعل الوحيد الذى أنجزته بنجاح هو إنجاب الأطفال وهو الفعل الذى تنجح فى إنجازه مثلها كل الدواب من حيوانات الأرض............

ثم غادرت المنزل صافقا بابه خلفى..........

وبمجرد أن خرجت من المنزل جريت فى الشارع كما لو كنت مجنونا هرب للتو من مستشفى الأمراض العقلية، بسبب ذهاب حارسه إلى المبولة، ثم قفزت فى إحدى سيارات الأجرة وعندما أراد السائق أن يتحدث معى لم أتجاوب معه فأنا لا أرى ما الذى يمكنه أن يجمع بينى وبين هذا الشخص...............

لكن من الغريب أنه قال لى إنه أدرك على الفور أن لدىّ مشكلة كبيرة، عصيّة على الحل وأنه يمكنه بسهولة رؤية هذا واضحا على وجهى بنفس السهولة التى يمكنه بها رؤية أنف فى منتصف هذا الوجه......

طلبت منه أن يتركنى فى حالى (اللى فيّه مكفينى) ويرحمنى من توقعاته وتخميناته، وأن يقود سيارته مباشرة إلى ركس حى الدعارة، ولكنه لم يتوقف عن الثرثرة، لمحاولة معرفة سبب إحساسى باليأس، ولكنى لم أثق به ولذلك لم أسر إليه بأى شىء...

قلت بعنف إنه إذا عاد إلى فتح فمه الذى يريد أن يتدخل فيما لا يعنيه فسأغادر سيارته فورا فأطلق تنهيدة وهو يغمغم قائلا، إنه من المؤكد أنها قصة جديدة تتعلق بالنساء، وأن منظر رأسى يدل على أننى لشت سعيدا فى منزلى...........

فقفزت فى مكانى قائلا (كيف لك أنت أن تعرف كل هذا؟) ضحك بطريقة ساخرة، أو حتى بطريقة هازئة فلأكن صريحا واستدار قائلا (كل الرجال الذين لديهم على وجوههم تعبير مثل ذلك المرسوم على وجهك ويريدون الذهاب إلى حى الدعارة هم فى الغالب من الرجال الذين تخونهم زوجاتهم أو من الرجال الذين ابتلاهم الله بزوجات لسن الا ألواحا من خشب الأوكوما)............

طلبت منه مجددا أن يغلق فمه الذى يشبه فم طائر أبو قُرَيْن، وهو طائر بمنقار ضخم يعيش عادة فى الغابات الحارة وهو من فصيلة الجوائم ملتصقات الأصابع.............

قال (إن فتيات ركس الصغيرات هن عاشقات شبقات ملتهبات أليس كذلك؟)، قلت فى نفسى (تانى هذا السائق مش عايز يعتقنى لوجه الله) ثم صرخت (لآخر مرة أقولها لك، قد سيارتك وأنت ساكت).......

قال (أيها الرجل إن الحياة جميلة، تعلم فقط كيف تخصص بعض وقتك للضحك بالأخص وأنت ذاهب حالا إلى حيث ستطير فى الهواء مرفرفا بجناحيك فى هواء العشق والهوى إذن اجلس هنا الآن فى استرخاء وتنفس بهدوء)........

لم أرد عليه فقال (كما تشاء يا صديقى ولكنى فقط أردت أن أحادثك.......... أتساءل لماذا فقد زبائن اليوم الحس الفكاهى؟ فقط أطلب منك أن تفكر فىّ للحظة، عندما تبدأ فى التحليق مع واحدة من أولئك الفتيات) ....

لم يتكلم بعد ذلك أبدا ولكن ظلت على وجهه تلك الابتسامة الماكرة الساخرة الهازئة طوال الطريق، عندما وصلنا إلى ركس،

دفعت لهذا الأحمق أجرته ولكنى كنت قد قذفت له نقوده الورقية عبر نافذة سيارته فانطلق فجأة بالسيارة وقد أخرج ذراعه من النافذة وقد لمحت فى طرف ذراعه يده القذرة وقد وجّه فيها نحوى إصبعه الأوسط الذى يقف منتصبا وحده فى الهواء، فى إهانة واضحة صرخت (أيها الشاذ)، فصرخ (صحيح راجل بقرون)..................

(١٢)

حاولت أن أتناسى فأنا فى حىّ ركس حيث الشبقات الصغيرات متاحات فى كل وقت مستعدات فى كل وقت لكل أنواع المقترحات المتعلقة بكل أنواع الممارسات العادية والشاذة. هنا أصبح فى بيئتى الطبيعية مثل السمكة فى الماء أنا هنا الآن تلميذ فى مدرسة (اللحم والدم) مدرسة (الشبق الجنسى) فى حى الايروس وكل فنون الإثارة الجنسية والصغيرات كلهن يعرفننى ويملن إلىّ لأنى أعرف كيف أتعشق فى أجسادهن الفتية وفى جمالهن الملتهب.

خاصة لأنى لا أعاملهن كعاهرات محترفات بل كحبيبات صغيرات هن نساء صغيرات طبيعيات وهبهن الله ملكات سحرية وإمكانيات جنسية شهوانية يعرفن بها طريقة إرضاء الرجال وهن لسن بأى حال نساء باردات مثلجات مثل زوجتى.

سألتنى واحدة من الصغيرات إن كنت أحبذ أن تدلك جسمى تدليكا خاصا يطلقن عليه اسم (تدليك شهوة السيد الرجل)؟ وافقت فورا وذلك لأنى تذكرت أن واحدا من أصدقائى وهو فى الأصل من جزر هاييتى بالبحر الكاريبى ويقيم حاليا فى مونتريال

بكندا كان قد حكى لى عن هذا النوع من التدليك وسبق له أن نصحنى بتجربته مهما كلفنى من ثمن وهكذا حدث أن أكدت للصغيرة أننى أريد أن أجربه وأؤكد لك يا زجاج مكسور أننى قد طرت فعلا فى الهواء.

عندما عدت إلى منزلى قرب الفجر كانت زوجتى قد غيّرت قفل الباب.......... نعم........هل تسمعنى جيدا يا زجاج مكسور بعد أكثر من أربعة عشر عاما ونصف العام من الزواج أحسست خلالها بالملل حتى الرغبة فى الموت وعشت فيها فيما يتعلق بمسائل الحب والغرام فى ما يشبه الصحراء القاحلة أو كأنى ألعب دورا فى مسرحية فكاهية ساخرة أو كأنى أعيش شبه حياة أوحى خلالها إلىّ الآخرون بأنى أعيش فعلا هذه الحياة أحياناً فعلا لا وهما أربعة عشر عاما ونصف العام من السُخْرة أى العمل الإجبارى الذى لا تقبض عليه أجرة أقدّم كل شىء للجميع ولا أحصل على أى شىء من أى شخص أربعة عشر عاما من العمل التطوّعى كأنى أعمل موظفا فى مؤسسة خيرية أو كأنى قديس مبعوث من العناية الإلهية..............

بعد أربعة عشر عاما غيرت زوجتى قفل باب البيت بالتواطؤ مع زوج أختها فهو نجار معروف فى الناحية ولكنى قلت فى نفسى (ليس بسبب تغيير قفل الباب سأقبل أن أنام خارج منزلى أن أنام فى الشارع مثل المتشردين)...........

لذلك فقد طرقت الباب ولكن دون جدوى وصحت عاليا باسم زوجتى حتى أزعجت الجيران ولكن أيضا دون جدوى فهى لم تفتح الباب هددت بأنى سأحطم الباب بعد أن أعدّ حتى الرقم ٥ ثم

بدأت العد بهدوء وتباطؤ واااااااااحد اتنييييييييييين ثلالالالالالاتة أربااااااااااااعة خمممممممسة ولكن دون جدوى فهى لم تأت لتفتح الباب........

لذلك أنت تفهم الآن السبب الذى استدعيت من أجله رجال شرطة المطافئ لقد أردت أن أفتح الباب دون تحطيمه وعندما وصل رجال المطافئ مستعدين بكل أجهزتهم كانوا يعتقدون أنهم سيواجهون نارا حقيقية من نوع تلك النيران التى تلتهم الغابات والأحراش فشرحت لهم أنه لا توجد نيران فى منزلى............

وقد تجادلنا طويلا أنا وهم وذلك حتى أعثر لهم على عذر مقبول أبرر به استدعاءهم وذلك لأن هؤلاء الرجال مساكين إذ إنهم يظلون ينتظرون طوال العام أن يستدعيهم أحد ويتوقعون أن يكون استدعاؤهم من أجل إطفاء النيران وهى وظيفتهم التى يقبضون عليها مرتباتهم فإذا بهم يجدون أنفسهم أمام رجل يطلب منهم تحطيم باب مغلق وطبعا هذا شىء ممل جدا بالنسبة إليهم خاصة إذا علمت أن بعضهم كان سيخرج قريبا إلى الإحالة على المعاش دون أن يكون قد شارك طوال حياته الوظيفية فى إطفاء حريق واحد ولا حتى إطفاء لهب عود كبريت واحد ضع نفسك فى مكانهم...............

واستمر مسلسل الكذب فقد اختلقت قصة ادعيت فيها أن أطفالى محبوسون داخل المنزل وأن زوجتى (والدتهم) قد أصيبت بالإغماء وفقدت الوعى............

وبسبب إحساسهم بخيبة الأمل فقد بدأوا فى مماطلتى إذ سألونى لماذا لا أحمل معى مفتاح باب منزلى فقلت إننى عند

مغادرتى المنزل للذهاب إلى عملى المسائى كنت فى شدة الإرهاق من عملى الصباحى لدرجة أننى لم ألاحظ عدم وجود سلسلة المفاتيح فى جيبى..................

فقال أحدهم (أنت أحمق)

فرددت فورا (انت اللى أحمق)

ثم فجأة تكاتف وتكاثف وتكالب كل رجال المطافىء متزاحمين على الباب لتحطيمه وبدوا لى كمجموعة من المجانين كما لو أنهم يريدون أن يدخلوا البيت كلهم مرة واحدة (فيه عضلات بس مفيش مخ) كما لو أنهم يريدون أن يمروا كلهم من نفس ثقب إبرة فى نفس اللحظة......... (وكان يسوع المسيح قد قال ذات مرة إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من دخول غنى إلى ملكوت الله)................

وبعد أن قاومهم الباب بعض الوقت سقط تحت ثقل أجسادهم المندفعة الطائشة وإذا بى أرى زوجتى وقد اندفعت خارجة من حجرتها كالقذيفة فى اتجاهى حيث كنت واقفا وإذا بها تقفز فوقى وهى تزمجر غاضبة وقد أخرجت أنيابها ومخالبها كما لو كانت أنثى نمر جريحة تدافع عن الفراخ من أولادها الصغار.............

وحيث إنها ضخمة الجثة فهى أضخم منى وهى حتى أضخم منك أنت يا زجاج مكسور فقد نجحت باندفاعها ومفاجأتى فى طرحى أرضا إنها فى الواقع جنيّة من جنيّات الجحيم لهذا السبب صرخت طالبا النجدة..............

نجح رجال المطافئ بصعوبة فى إزاحتها من فوقى ثم فى الفصل بيننا عندما استمرت فى مهاجمتى ثم سألونا عمّا يحدث

فى منزلنا وقالوا (أين الحقيقة فى كل هذه القصة؟) أردت أن أتحدّث أولا لأنى أنا رجل البيت فصفعتنى زوجتى على وجهى.....

قالت (اغلق فمك القذر الذى تقرقش به فتيات حى الدعارة) ثم بدأت سلسلة من الاتهامات القذرة إذ ادّعت كذبا وبهتانا أنه لم يعد لى الحق فى الإقامة فى هذا المنزل لأن القاضى المختص بالمسائل العائلية أصد أمرا بمنعى من ذلك وقد صدر الأمر بطردى من المنزل منذ شهور طويلة وادّعت أنى أنسى بسبب الخمور أو أتناسى بسبب مكرى وسوء طويّتى..........

صدقها رجال شرطة المطافئ وعاملونى كما لو كنت كاذبا أو خياليا مدّعيا أعيش فى أحلام يقظة من اختلاقى أو على الأقل محترف صنع مشاكل. ثم طلبوا منى أن أنسحب فورا من منزل الزوجية. قالوا (القانون هو القانون حتى لو كان قاسيا)...........

أما أنا فقد رفضت الخروج لأنى لا أعرف أن هناك قانونا قد صدر ضدّى لا أعرف أين هو ذلك القانون القاسى الذى أصدر حكما بطردى من المنزل. ثم جعجعت ببعض الكلمات مثل: لقد دفعت أنا ثمن هذا المنزل وثمن هذا التليفزيون وثمن هذه الأطباق الديورالكس وثمن وجبات طعام الأطفال وثمن مصاريف مدارس الأطفال وثمن الماء وثمن الكهرباء....................

فى هذه اللحظة كان رجال شرطة المطافئ يتصلون تليفونيا برجال الشرطة الآخرين العاديين وذلك لأن رجال شرطة المطافئ لا يحملون معهم القيود الحديدية (الكلابشات) وإنما يحملون معهم الخراطيم والنقالات لحمل الجرحى فى سيارات نقل (كاميونات) ضخمة بل هائلة الحجم تمرّ بصعوبة فى الشوارع الصغيرة وتضايق

الناس ويكون كل هذا الهمّ من أجل إطفاء شعلة نار صغيرة تسبب فيها عود كبريت............

وهم لا يستطيعون إرسال الناس إلى السجون بل هم هنا من أجل فقط إطفاء الحرائق ومن أجل فقط بعض الإسعافات الأولية لبعض الناس أو لإعادة الوعى إلى بعض الناس الذين يفقدون الوعى بعد بعض الحوادث أو لإنقاذ بعض ضعاف النفوس من ذوى الميول الانتحارية............

حضر رجال الشرطة العاديون بعد بضع دقائق فقط لا غير وذلك لأن مقر الشرطة المحلية فى هذا الحىّ لا يبعد إلا بحوالى ٢٠٠ متر فقط لا غير عن المنزل الذى أدفع إيجاره من نقودى. وقد استمرت زوجتى فى غيّها أمام رجال الشرطة العاديين بل إنها اتجهت اتجاها خطيرا إذ بدأت فى ادّعاء أننى شخص خطر على الأطفال وعليها بل إننى فى نظرها أكثر خطورة من الإرهابى المعروف أنجوا ليما الذى يقطع رؤوس الناس ويتركها معروضة على شاطئ الساحل المهجور..............

قالت زوجتى كل ما سيأتى بعد كما لو كانت فى مونولوج مسرحى طويل:

إننى هارب من العدالة وإننى ردّ سجون وإننى سارق محترف وإننى بائع محترف للقنب الهندى «الحشيش»(*) والكوكايين وإننى منذ مدة لم أعد أنام فى هذا المنزل بل أنام فى الشوارع والخرابات وإننى أصبحت قذرا جدا لأنى لم أعد أستحمّ وإننى عندما أحضر

(*) cannabis

إلى المنزل أضرب أطفالها حتى يشرفوا على الموت وإننى لم أعد أدفع أى شىء فى المنزل ولا حتى الإيجار ولهذا يهددها أصحاب المنزل بالطرد منه هى وأطفالها إلى الشارع..........

وإننى أحيانا عندما أملك نقودا أنام عند مومسات ركس حى الدعارة وإننى أعاشرهن دون استعمال الواقيات الذكرية الحقيقية القادمة من وسط أوروبا بل أستعمل الواقيات الذكرية المزيفة القادمة من نيجيريا والتى (حسب رأيها) لا تفيد فى شىء لأنها مخرومة من الأمام ولأن هذا الخرم يسمح للرجل بخداع المرأة لأنه يحصل على لذته كما لو كان عضوه بدون عازل ذكرى والمرأة المسكينة المخدوعة تعتقد أن الرجل الذى يعتليها يضع عازلا ذكريا فى حين أن العازل المزعوم مخروم من الأمام..............

وأكدت أنه من المحتمل جدا جدا جدا ثلاث مرات أن أكون مصابا بفيروس مرض متلازمة نقص المناعة المكتسب المشهور حاليا باسم الإيدز دون أن أدرى وأن من المحتمل جدا جدا جدا ثلاث مرات أن تكون حالتى خطيرة بل ميؤوس منها وذلك لأنى فقدت وزنى سريعا مؤخرا وازددت نحافة بطريقة مخيفة وأصبح وجهى يشبه وجه سمكة من سمك موسى ولون بشرتى يشبه لون بشرة شعب الهوتن توت(*) وهو شعب يعيش فى صحراوات جنوب إفريقيا ولون بشرة أفراده يميل إلى الاصفرار الشديد ثم إننى مصاب بإسهال مزمن ومصاب بقىء مزمن وإننى أتأوه من الألم عندما أتبوّل.................

(*) Hottentot

وصلت زوجتى هنا فى مونولوجها الطويل إلى أخطر فقرة عنما عادت إلى الحديث عن فتيات حى الدعارة قائلة:

إننى أسلمهنّ مرتبى كله ليتصرفن فيه كما يرغبن فهنّ يتحكمن فى كل شىء فى حياتى وأن لدى هناك عشيقات يمكنهن أن يكن من بين حفيداتى أو من بين حفيدات رجال المطافئ أو حتى من بين حفيدات رجال الشرطة العاديين.............

ارحمنى يا رب

هنا وصلت زوجتى إلى أخطر اتهام واجهته منها على الإطلاق وإذا بالموقف العام ينهار تماما فوق رأسى وتداعت كل الأشياء إذ قالت:

أؤكد لكم أنه يفعل مع ابنتنا اميلى نفس تلك الأفعال البهيمية الخنزيرية القذرة ويمارس معها نفس تلك التصرفات الحمقاء التى يمارسها مع فتيات حى الدعارة وأنه فى هذا المجال أسوأ من السحرة ومن ساكنى الكهوف غير المتحضّرين...........

ثم حكت لهم بالتفصيل وهم ينصتون جيدا كيف أننى كنت أستيقظ أثناء الليل وأذهب إلى فراش ابنتى لأسقيها منوما على هيئة شراب حتى لا تدرك ما سأفعله معها من قذارات وتصرفات خنزيرية إذ أبدأ فى لمس أعضائها الحميمة...............

ثم توقفت وهى تكاد تبكى.

هل تصدق يا زجاج مكسور أنها جرؤت على قول كل هذا؟ هل تصدق أننى أستطيع أن أقتل أولادى؟ أن أطلق النار على أولادى؟ أن أدنّس براءة طفلتى؟ أن أنزع عنها براعم أنوثتها؟ هذا مستحيل مستحيل .....

(١٣)

عندما قالت زوجتى هذا الكلام أصبت بصدمة عصبية لدرجة أننى فقدت القدرة على الكلام وبالتالى لم أتمكن من الدفاع عن نفسى ضد هذه الاتهامات الباطلة وفجأة وجدت نفسى مدفوعا نحو الحائط دفعتنى شرطية امرأة ظننتها فى البداية رجلا بسبب شعرها القصير وعضلاتها القوية دفعتنى وهى تطلق مجموعة منتقاة من السباب تجمع بين كل الصفات القبيحة التى خطرت ببالها وغد شاذ جنسيا عاشق جنسى للأطفال شاذ جنسيا من النوع الذى يسمى «سائد ومسود»(*) ثم قالت إننى لو حتى أصبحت جثة هامدة فإنها ستستمر فى سحقى تحت قدميها ثم تذهب إلى مقبرتى لتبصق عليها وأننى يجب أن أتأكد من أننى سأحصل على العقاب الجدير بكل جريمة من الجرائم التى ذكرتها زوجتى على حدة وأقسمت على أن تسجننى ووعدت زوجتى بأنها ستفعل كل ما فى وسعها لتمنع محاكمتى (لأن هذه المحاكمة هى رفاهية لا يستحقها) ....

وضعت هذه الشرطية القيود الحديدية فى يدىّ وفى نفس الوقت كان زملاؤها قد بدأوا فى ركلى بأقدامهم فى كل أجزاء جسمى حتى فى عضوى التناسلى وفى الكيس المعلق أسفله وقد تركت تلك الركلات آثارا باقية حتى الآن فى صورة ندوب يمكننى أن أريك إياها ثم تقيأت كتلا من الدم كبيرة مثل حبّات البطاطس أو مثل براز الديناصور وهو حيوان ضخم انقرض منذ ملايين السنين.............

(*) sado-maso

اقتادونى إلى قسم الشرطة فى المنطقة وبمجرد أن ذكر رجال الشرطة الذين اقتادونى من المنزل إلى رجال الشرطة الموجودين هناك أننى شاذ جنسيا وعاشق للأطفال قالوا لهم جميعا فى نفس واحد (يجب اقتياده مباشرة إلى سجن ما كا لا حيث سيدفع ثمن جرائمه من السنوات المتبقية فى حياته) هكذا دون هيئة محكمة ولا دفاع...............

وأقول لك يا زجاج مكسور إن كنت لا تعرف فإن سجن ما كا لا هو أكثر مكان يخشاه أعتى مجرمى هذه البلاد وقد اقتادونى فعلا إلى هناك حيث بقيت لمدة عامين ونصف العام.......

هنا لاحظت أنا زجاج مكسور أن عينيه تدمعان لأول مرة فى كل هذا المونولوج الطويل ثم أخذ جرعة كبيرة من المشروب أمامه واستأنف الكلام:

كانت أياما صعبة جدا خاصة منذ علم السجناء الآخرون أننى متهم بالاعتداء الجنسى على ابنتى التى من لحمى ودمى رغم أن هذا غير حقيقى إلا أنهم ألصقوا بى هذه التهمة وبدأوا فى عقابى عليها.........

إن ما تحمّلته هناك يفوق ما يمكن أن يتحمله المعذّبون فى الجحيم خاصة أن حراس السجن هم أيضا كانوا متواطئين مع السجناء من زعماء الزنازين وكانوا يغيرون لى الزنزانة كل بضعة أيام حتى يتاح للكل المشاركة فى تعذيبى وهكذا فحيثما حللت كل يوم ....

كانوا يتجمعون حولى ويتكاثرون علىّ ثم يقيدون يدىّ ويخلعون بنطالى ويبدأون جميعا فى هتك عرضى بوضع كل ما يخطر على

بالك فى مؤخرتى وهى اللعبة التى يسمّونها فى السجون (لعبة اختراق الطريق الأوسط) وكنت لعبتهم وهم كانوا كمجموعة من الأطفال الذين وقعت فى أيديهم عروسة قماش فقرروا تمزيقها فيما بينهم أو كأننى لعبة من الألعاب البلاستيكية القابلة للنفخ....................

انتهيت إلى أننى كنت أترك لهم جسدى بلا أية مقاومة بعد أن تعلمت أن المقاومة تزيدهم عدوانية وتعلمت أن الكثرة تغلب الشجاعة ثم أنهم تجاهلوا تماما آدميتى وتعاملوا معى كما لو كنت بدون إحساس أو بدون أعصاب وكانوا يتنافسون فيما بينهم على وضع الأشياء داخل مؤخرتى ويتنازعون فيما بينهم تلك الأشياء...........

وعندما كنت أصرخ من ألم تكرار لعبة الاختراق إلى ما لا نهاية كان الحراس يأتون ليسخروا منى وليساهموا فى تعذيبى بضربى بالأسواط التى معهم ويطلبون منى أن أفكر فى الألم الذى كنت أسببه لابنتى فلذة كبدى فى كل مرة كنت أعتدى عليها ثم ينطقون بألفاظ سباب وإهانة من نوع (أيتها المومس - يا كلبة الشوارع - يا زبالة الشوارع - يا حشرة المطابخ - أيها الحيوان الهلامى - أيتها الثمرة العَفِنة)..........

وحدث كثيرا أن أشرف شرطى بعينه على عملية اختراق الوسط تلك كان شرطيا شابا عصبيا قال لى ذات مرة إنه ليس شاذا جنسيا وأنه لم يفعل هذا مع أى إنسان آخر من قبل وأنه لم يفعله معى إلا لأن جرمى الذى اقترفته مع ابنتى التى من لحمى ودمى يستحق أن أنال عليه هذا العقاب وكان هو الذى يقوم غالبا

بضربى بالسياط مع ملاحظة أنه كان متين البنيان مثل الغوريللا العملاق كينج كونج...............

وهكذا يا زجاج مكسور يمكنك أن تدرك حجم التلف الذى أصاب جسمى خلال السنتين والنصف فى سجن ما كا لا وإذا حدث ذات يوم وشاهدت مؤخرتى فستعرف على الفور حجم ما تعرضت له من ظلم إذ إنه يمكنك حاليا أن تدخل يديك الاثنتين بسهولة فى الفتحة الوسطى وهذا هو السبب حاليا فى عدم القدرة على التحكم لا فى البول ولا فى البراز ولهذا فأنا أستعمل حفاضات الأطفال فأطلقوا على هذا اللقب «رجل البامبرز» (*)........

ورغم وجود هذا الدليل المادى البيّن الواضح على الظلم الذى تعرّضت إليه فى جسمى إلا أنى لم أتمكن أبدا من أن أطلب رفع قضية فى المحكمة ضد حراس سجن ما كا لا لأننا نعيش فى بلد زبالة............

وبعد أن انتهى من حكايته رفع كوبه وأنهى ما به فى جرعة واحدة بعد أن كان قد رفعه أمامى وكأنه يقول لى (فى صحتك) ثم قام من على كرسيّه فى اتجاه الباب عندها تمكنت من رؤية مؤخرته المتضخمة بسبب وجود أربع طبقات من البامبرز يضع الواحدة منها فوق الأخرى ورغم هذه الاحتياطات إلا أن مؤخرة بنطاله لم تكن جافة بالإضافة إلى بعض الذبابات التى كانت تحوم حولها فأضاف قائلا (لا تهتم بالذبابات يا زجاج مكسور فقد أصبحت من بين أصدقائى الأكثر إخلاصا ولم أعد أطردهم حتى عن وجهى فهى

(*) pampers

تعود إليه من جديد مهما طردتهم وفى أى مكان ذهبت إليه هربا منهما) ثم غادر المكان قائلاً «تشاو»(*) وتعنى وداعا بالإيطالية وخرج إلى الشارع أمام المشرب لاستجداء المارة وتابعته ببصرى حتى اختفى فى الأفق وقلت فى نفسى إنه سيصل يوما ما إلى مرحلة الجنون التام.

هل سيأتى إلى المشرب يوما ما ليسألنى (من أقتل؟ أأقتل زوجتى؟ أم أقتل الحارس؟) ولكنى لن أشجعه على هذا فلن أكون أبدا متواطئا مع قاتل ولكنى فى الواقع لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث لإنسان أكثر مما حدث لرجل البامبرز حتى يمكنه تبرير أن يصبح قاتلا.

(١٤)

قابلت رجل المطابع كما أقابل أغلب الناس أى فى المشرب فهو واحد من أولئك الأشخاص الجدد الذين يظهرون فجأة فى المشرب ولا أعرف من أين يأتون إذ أجدهم هكذا فجأة أمامى دموعهم فى عيونهم وأصواتهم مرتعشة. ورجل المطابع هذا كان يبحث عنى ويريد أن يتحدث معى منذ وطأت قدمه المفلطحة أرض المشرب كانت لديه رغبة قوية فى الحديث معى. وهكذا صاح فجأة عندما رآنى أمامه (ألست أنت زجاج مكسور؟ أريد أن أحدثك فلدى أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك دعنى أجلس إلى مائدتك واطلب لى زجاجة).

أعطيته لبعض الوقت الانطباع بأنى غير مهتم فلقد استمعت إلى الكثير من القصص والحكايات ولم تعد لدى رغبة فى إضافة

(*) tchao

قصص وحكايات جديدة فى كراسات جديدة. عند هذا الحد أظهر رجل المطابع قلة صبره ومع ذلك فقد استأنفت.تركيز نظرى على كوب النبيذ الأحمر الذى أمامي وكنت مثل أى فيلسوف يتساءل عما يمكن لهذا الغريب أن يضيفه إلى أعماقى، وهأنذا أعترف لكم بأحد أسرارى المهنية فلكى تشجع بعض الناس على الكلام يجب أن تلعب معهم أولا لعبة اللامبالاة وأن تظهر لهم عدم الاهتمام. ليس هناك ما هو أفضل من تلك الخطة القديمة حتى تضغط عند بعض الناس على زناد فينطلق الكلام. وهذه الخطة تضايق أحيانا الناس الذين يريدون الإفضاء باعترافاتهم ويظنون أن القصص التى لديهم هى أكثر القصص غرابة وإثارة للاهتمام على وجه الكرة الأرضية.

سألت رجل المطابع (وماذا قالوا لك عنى؟) قال (قالوا إنك عمدة كل الناس الموجودين هنا وأكثرهم حكمة).......قلت (لو أن الحكمة تقاس بطول اللحية لكان التيس ذكر العنزة هو أحكم المخلوقات)........ قال (زجاج مكسور لماذا تعاملنى بهذه الطريقة أنا حقا أبحث فيك عمن يستطيع أن يفهمنى فلماذا تلك القصة عن التيس؟ هل أنت تسخر منى؟)........ قلت (لا أنا لا أسخر منك ولكن ماذا يقولون عنى أيضا؟) قال (قالوا إنك تكتب شيئا ما عن ناس هذا المشرب تسجله فى كراس ما أليس كذلك؟)........... قال هذا الكلام وهو يحاول أن ينظر إلى الكراس الذى بين يدىّ فاغتظت من هذا التصرف قلت (وماذا تريد أنت؟)...........

قال (أن يكون لى مكانى فى كراسك هذا أحب أن أقول لك إننى أكثر الشخصيات الموجودة هنا إثارة للاهتمام) قلت (ما الذى يجعلك تعتقد هذا؟ فالكلام مجانى أعطنى سببا واحدا)........

وبدون أى تفكير قال (السبب هو أنى ذهبت إلى فرنسا وهو ما لم يتح لأى واحد منهم).......... وقد ذكر هذه المعلومات كما لو كانت شيئا منطقيا جدا لا يحتمل أى تشكيك إذ كانت فرنسا بالنسبة إليه هى وحدة القياس أن تضع قدمك ذات يوم على أرضها يعنى أنك قد ارتقيت إلى مستوى أولئك الذين لا يجانبهم الصواب أبدا، كيف كان يمكننى أن أعترض عليه ولديه هذا المنطق؟ .... قلت (إذن اجلس يا صديقى وسنبحث فورا فى هذا معا)............

وهكذا جلس إلى مائدتى ثم هاهوذا يمدّ يده إلى زجاجة نبيذى ويصب لنفسه كأسا منها ويتجرّعه كله على ثلاث مرات قال (أؤكد لك أن قصة حياتى تستحق أن تتحول إلى فيلم سينمائى وليس فقط أن تذكر مع غيرها من القصص فى أحد الكتب الروائية)........ طالت فترة الصمت بيننا فقطعتها قائلا (حسنا بأى شىء سنبدأ؟).......... قال (فى الحقيقة أنا لا أكره الفرنسيين ولكنى أكره فرنسية واحدة بالذات)........ قلت فى نفسى (بداية موفقة)........... ثم استأنفت صمتى إذ لم أرد عليه حتى ينتهى تماما من عملية الوضع المتعسرة بتأثير الضغط العصبى الذى تمارسه عيناى المركزتان على عينيه......... وهكذا أخرج كل أسلحته الثقيلة........

(آه من فرنسا يا زجاج مكسور لا تكلمنى عنها أرجوك فإن مجرد الكلام عنها يقودنى إلى الإحساس بالغثيان بل إلى الإحساس بالرغبة فى التقيّؤ)....... كان يتحدث وكأنه يبصق الكلمات على الأرض بالإضافة إلى تقلصات فى ملامح وجهه كأنه سيتحول إلى قرد من فئة الغوريللا قال (إذن سأبدأ قصتى من أولها ولكن أنصت

لى جيدا وأرجو أن تبدأ فورا فى تسجيل ملاحظاتك فكل ما سأقوله لك مهم وسترى فى قصتى كيف أننا لا ينبغى أبدا أن نثق فى أى إنسان ثقة تامة عمياء)......كانت لديه القدرة على إطالة أمد الأشياء وكدت أن أطلب منه أن يذهب مباشرة إلى هدفه.......

قال:

فى الواقع أنا سأحدثك عن امرأة وسترى كيف قتلتنى وحطمت حياتى وحولتنى إلى بقايا آدمية غير صالحة للاستعمال، تعلم أولا أنه لا ينبغى أبدا العبث مع امرأة بيضاء أقول لك لو اعترضت طريقك ذات يوم امرأة بيضاء فلا تنظر إليها بل أكمل سيرك فى طريقك وكأنك لا تراها فإنها قادرة على فعل كل شىء يكفيها أن تنظر إليها مرة واحدة.........

أنا لم أعد أعرف كيف عدت بين يوم وليلة إلى الكونغو بعد أن كنت أعيش فى فرنسا وهكذا وجدت نفسى بين يوم وليلة عدت من فرنسا لأقضى كل وقتى إما فى هذا المشرب أو على رمال الشاطئ المهجور......... فى الحقيقة فإنى إذا كنت أنغمس اليوم هكذا فى احتساء الخمور فإن السبب هو تلك الساحرة البيضاء الشريرة التى أفرغت جسمى من كل الدماء التى كانت تجرى فيه..........

صدقنى يا زجاج مكسور لقد كنت رجلا طيبا وناجحا فى فرنسا قادرا على أن أعيش عيشة جيدة من حرّ مالى الذى أكسبه بعرق جبينى وأدفع ضرائب الدخل المفروضة علىّ فى حينها وكان لدى حساب ادخار فى البنك وأسهم وسندات فى بورصة باريس للأوراق المالية وكان هناك ما يجعلنى أعتقد أننى يوما ما سأكون من ضمن الفرنسيين الذى يتمتعون بمعاش محترم فى نهاية

خدمتهم الوظيفية وذلك لأن نظام المعاشات فى بلدنا الكونغو هو نظام زبالة ولم تعد لنا فيه أية ثقة..................

عندما تقبض معاشك هنا فى الكونغو لا تستطيع أن تعرف كيف يحسبونه منتهى الضبابية وليس منتهى الشفافية كما لو أن المسألة هى لعبة من ألعاب الحظ أنت وبختك أنت ونصيبك كل شىء بالصدفة البحتة. ثم تكتشف أن المسألة تتعلق بصلاتك الشخصية بالناس الكبار فى الحكومة الذين يشغلون مناصب مهمة فى الوزارة كوسة يعنى لو عندك كوسة تقبض معاشا جيدا لو لم تكن لديك كوسة لا تقبض معاشا جيدا.............

الذى يحدث فى هذا البلد البائس هو مأساة بكل المقاييس فهناك بعض كبار موظفى هيئة المعاشات الذين يستغلون أموال معاشات فقراء الموظفين أولئك الذين دفعوا مستقطعات من مرتباتهم الشهرية طوال عمرهم الوظيفى على أمل الحصول على معاشات معقولة فى نهاية عمرهم الوظيفى وكانوا يعيشون فى الوهم إذ بدّد كبار الموظفين أموال صغار الموظفين فى المضاربات على الأوراق المالية وفى العمليات التجارية الفاشلة............

ولكننى هنا أحكى قصتى أنا وأكرر عليك أولا ما سبق أن قلته أنا فى فرنسا كنت رجلا مهما جدا فى الجالية السوداء كان الكل يعرفنى وكنت مشهورًا بقدرتى على العمل باجتهاد ولم أكن أبدا مثل بعض المهاجرين الذين يتسكعون دون أن يحاولوا الحصول على عمل وإنما يجلسون فى مداخل أماكن إقامتهم ينتظرون ساعى البريد الذى يحمل إليهم كل شهر إذن صرف الإعانة الشهرية من مؤسسة الضمان الاجتماعى أو من الصندوق الفرنسى للإعانات العائلية....

لم أكن محتاجا إلى مثل تلك التصرفات الحمقاء وذلك لأنى كنت موظفا مهما فى واحدة من أهم دور النشر والطبع الفرنسية وكان مقرها فى إحدى ضواحى باريس حيث كنت أقوم بإدارة فريق عمل وكنت أقوم كذلك أحيانا بتعيين بعض الموظفين الجدد حسب احتياجات العمل وذلك لأنى كنت قادرا على التمييز بين الرجال المجتهدين والرجال الكسالى، ولم أكن أقوم فقط بتعيين الزنوج وإنما كانت هناك أجناس أخرى فليس الزنوج وحدهم هم البؤساء فى هذا العالم فالزنوج لا يحتكرون البؤس والبطالة فى هذا العالم.............

كنت أقوم بتعيين عاطلين تعساء من الجنس الأبيض وكذلك أقوم بتعيين عاطلين تعساء من الجنس الأصفر بالإضافة إلى العاطلين التعساء الأصليين من السود ثم أقوم بخلط بعض هؤلاء التعساء من ملاعين الأرض ببعض التعساء الآخرين من ملاعين الأرض الآخرين أى فى فرق العمل داخل المطبعة كنت أضع بعض البيض مع بعض الصفر بحيث لا يحدث أبدا أن يكون كل البيض فى فريق وكل الصفر فى فريق ثانى وكل السود فى فريق ثالث. أحكى لك هذه القصة فقط حتى تعرف مقدار أهميتى داخل المطبعة فهم فى المؤسسات الفرنسية عادة لا يسمحون لأى رجل أسود مهما كان بتعيين الرجال البيض.................

فلا أحد يستطيع أن ينسى حتى الآن أن البيض هم الذين احتلوا بلاد السود وأن البيض هم الذين حوّلوا السود إلى الديانة المسيحية وأن البيض هم الذين نقلوا السود فى باطن السفن كما تنقل الحيوانات إلى أسواق النخاسة فى أوروبا وأمريكا وأنهم كانوا

يذيقونهم العذاب من كل صنف من ضرب بالسياط إلى سحق بالأقدام بل إن البيض هم الذين مسحوا حضارات القبائل الإفريقية بالممحاة وأزالوا إمبراطوريات سوداء كاملة من الوجود وحرقوا تماثيل الآلهة السود............ بل أكثر من ذلك لا أحد ينسى أن البيض هم الذين حرقوا وقتلوا كل الثوار السود الذين حاولوا أن يتمردوا على الاحتلال الاستعمارى الأبيض ويطالبوا باستقلال البلاد................

كنت أقبض مرتبا جيدا عن تلك الوظيفة لأننا كنا نطبع الكثير من الصحف والمجلات المهمة مثل بارى ماتش والجمعة والسبت والأحد VSD وفواسى ولو فيجارو والايكو (الأصداء)............. وهكذا حدث أن تزوجت سيلين من إقليم الفانديه فقد وجدت أنها تتميز بمؤخرة ضخمة كما لو كانت هى الأخرى من أصول زنجية بعيدة............

كانت سيلين تعمل سكرتيرة إدارة فى أحد مصانع الأدوية فى منطقة كولومب بشمال غرب باريس وقابلتها بالصدفة فى ملهى ليلى مشهور للجالية الباريسية السوداء يقع فى حى بيجال وهو حى الدعارة المشهور فى الدائرة الثامنة عشر شمال باريس واسم الملهى هو تيميس........... لم أفهم ماذا كانت هذه الفتاة البيضاء تفعل وسط كل هؤلاء الزنوج السود الذين كانوا يمارسون فى ذلك الملهى كل نزواتهم فى شبه انفلات تام للأخلاق. صحيح كانت هناك داخل الملهى فتيات بيضاوات أخريات يمكن عدهن على أصابع اليد الواحدة ولكن........ مؤخراتهن........ كانت ممسوحة تماما حتى أنه كان يمكننا استعمال تلك المؤخرات كموائد لكواء الملابس عليها لكونها مسطحة تماما بلا أى انبعاجات محببة ....

أما سيلين فقد ومضت أمامى ببريق قدّها وقوامها ومؤخرتها وبثمرتىّ البطيخ الضخمتين اللتين علقتهما على صدرها حتى أن كل فرسان الملهى التقليديين كانوا قد تقدّموا نحوها متردّدين واقتربوا منها. وقد فعلت مثلهم ولكنى تميزت عنهم فقد تقدّمت نحوها مثل محارب قديم شجاع تزيّن كتفيه الشرائط الملونة التى تدل على فوزه بنوط الشجاعة وعلى ترقية فى مجال خدمته العسكرية وقلت فى نفسى باللاتينية «ليكن لى الحظ/ لتكن لى الشجاعة»(*)..........

شعرت للحظة ببعض الوجل وذلك لأن أقسى ما يؤلم الفارس النبيل من أمثالى أثناء بحثه الدؤوب عن فارسة نبيلة مثله تليق به هو أن يضطر إلى التراجع فى منتصف حلبة الرقص أمام منافسيه الآخرين الذين تنثنى أجسامهم وهم يضحكون سخرية منه.....

لكن الحمدلله فتلك الليلة كنت أرتدى أفضل ما عندى من ثياب فقميصى مثلا كان من قمصان المناسبات التى تباع فى محلات كريستيان ديور وكنت قد اشتريته من المحل بشارع فوبور سانت أونوريه وفوقه كنت أرتدى سترة بليزر blazer من محلات ايف سان لوران الكائنة بشارع ماتينيون وزوج أحذية ويستون من جلد التمساح الطبيعى اشتريتها من المحلات بالقرب من ميدان المادلين أما العطر الذى كنت أضعه فى ذلك الوقت فهو من محلات جان بول جوتييه واسمه لو مال (أى الذكر) وأخلطه ببعض العطر من زجاجة لوليتا لمبيكا للرجال ولن أذكر لك كيف كان شكل شعرى إذا كنت قد رأيتنى فى تلك الليلة كان يمكنك أن تعتقد أننى أحد نجوم

(*) alea jacta est

السينما الهولى ووديين من أمثال سيدنى بواتيه فى عز مجده..................

مددت يدى إلى الفارسة النبيلة الجالسة على حشية من القطيفة فأطفأت سيجارتها الرفيعة القوام فى الحال وقامت معى كأنها لم تكن تنتظر بفروغ صبر إلا هذه اللحظة وللتو بدأ قلبى يقفز ويتشقلب فى مكانه كأنه لم يصدق ما يحدث ولمحت الحسرة فى عيون المنافسين الافتراضيين الذين فقدوا الآن الأمل فى السخرية منى فهم لم يكونوا يعرفون قواعد اللعبة العادلة التى يأخذ فيها كل متنافس الفرصة التى يستحقها..........

قلت فى نفسى (ينبغى أن أعطى كل إمكانياتى لهذه الرقصة مع هذه الفتاة ينبغى أن أرقص الآن كما لم أرقص من قبل حتى أترك لهذه الفتاة انطباعا لا ينسى بحيث تكون هى فى المستقبل التى تطلب أن نتقابل مرة أخرى) ولقد كان رقصنا فعلا تلك الليلة جيدا جدا ولن تصدق يا زجاج مكسور ما حدث فى نهاية تلك السهرة.........

لقد ذهبت الفتاة معى إلى منزلى دون أى نقاش ودون أى تقعّر تستعمل فيه اللغة الفرنسية التى يستعملونها فى جامعة السوربون وكذلك دون الدخول فى الجدل التقليدى وتلك المتاهة التى اعتادت عليها الفتيات أى دون أن تقول (إننا بالكاد تقابلنا اليوم وأنا أحتاج إلى وقت حتى يعرف أحدنا الآخر بشكل أفضل ولا تعتقد أننى من نوع أولئك الفتيات اللائى يفرجن ما بين سيقانهن فى المساء الأول أريد أن نتقابل أولا عدة مرات نتحدث ونشرب فناجين قهوة ثم نقرر بعد ذلك أن نستمر سويا أو لا نستمر)........

قدت سيارتى الرينو ١٩ ، وتبعتنى هى فى سيارتها التويوتا وركنا سيارتينا أمام العمارة التى كنت أقيم فيها وتبادلنا بعض القبلات فى ممر المدخل وفى المصعد وعلى عتبة باب شقتى الذى لم أتمكن من فتحه بمفتاحى وذلك لأنى كنت فى قمة السكر وهكذا لم نبحث عن حل آخر بل سقط جسدانا على الموكيت المفروش فى الممر أمام باب الشقة وأنجزت مهمتى على خير وجه وعندما أيقظنا ضوء النهار وجدنا أننا كنا يحتضن كل منا الآخر وقد أصابنا بعض الارتباك لأن المسائل كانت قد ذهبت إلى آخر مداها فى زمن وجيز وقد تبدّد هذا الارتباك وحده بسرعة بفضل السعادة الغامرة التى شعرنا بها.................

غادرت سيلين المكان وهى تكرر أنها أمضت ليلة جميلة بل أتذكر أنها قالت إن تلك السهرة كانت من أجمل سهرات حياتها وأننى كنت رجلا كما ينبغى أن يكون الرجال. تبادلنا أرقام التليفونات وتبادلنا على مدار أيام الأحاديث التليفونية بانتظام وأحيانا كانت المكالمة الواحدة تستغرق أكثر من ساعة فتحكى لى وأحكى لها عن كل أخبارنا وعن كل الحماقات التى ارتكبناها أثناء النهار ونذكر كل تلك الأشياء الغبية التى تخرج من أفواه العشاق الأغبياء فقط عندما يكون الحب فى بداياته وهكذا لم أخف عنها مشاعرى الفياضة تجاهها بدون أية مخاوف أو محظورات فقلت لها إننى أحبها..............

كانت تلك هى المرة الأولى التى أقول فيها لامرأة إننى أحبها وأنت تعلم يا زجاج مكسور أنه ليس من عادة الرجال على الإطلاق فى بلادنا الإفريقية أن يقولوا للنساء إنهم يحبونهن لأن نساءنا اعتدن للأسف على الاعتقاد فى أن مثل تلك التصريحات هى نوع

من ضعف شخصية الرجل إذ يعتقد الناس فى إفريقيا أن التصريح بالحب هو نوع من الضعف هنا فى بلادنا ننام مع المرأة فى المساء دون كلمة حب واحدة وفى الصباح التالى ننساها لكن فى فرنسا الموضوع مختلف..................

هناك لا ينبغى التلاعب بالمشاعر هناك لا يصح أن تحوّل مسألة العواطف مع النساء إلى أضحوكة[1]؛ وهو كما تعرف عنوان مسرحية لماريفو وهكذا حدث أننى بسرعة جدا طلبت منها أن نتزوج فادعّت أن إحساسها الغريزى كان قد همس فى أذنها منذ يوم لقائنا الأول أننى هو الرجل الذى ستقضى معه بقية أيام عمرها كانت قد حكت هذا حتى تبدو المسألة كما لو أن الرب نفسه هو الذى همس فى أذنها أنه ينبغى أن نتزوج...........

(١٥)

أقنعت سيلين والديها بسهولة بمسألة زواجنا وهما مبدئيا لم يكونا متعصبين ضد السود بدليل أنهما يعطيان دائمًا صوتيهما الانتخابيين للحزب الشيوعى فى انتخابات أعضاء المجالس البلدية المحلية أما فى الانتخابات الرئاسية فإنهما يصوّتان لحزب الخضر وهكذا ذهبنا للقائهما فى منطقة الفانديه المطلة على شواطئ المحيط الأطلنطى فى غرب فرنسا حيث يقيمان فى مدينة صغيرة اسمها نوار موتييه[2] ، تقع على جزيرة لا تتصل بأرض القارة الأوروبية إلا بواسطة كوبرى...........

---

(١) on ne badine pas avec l amour

(٢) Noirmoutier

قال والدا سيلين إننى شاب متميز جدًا وذكى ومرهف الحس وطموح وأننى أحترم القيم والتقاليد الخاصة بالجمهورية الفرنسية. وقد أسعدنى أن أسمع منهما كل هذه الصفات الحميدة والخصال النبيلة التى استعملاها فى وصف شخصى المتواضع ثم إنهما أعجبا حتى بالملابس التى كنت أرتديها فى ذلك اليوم وكان هذا شيئا طبيعيا جدا لأننى ذلك اليوم كنت أرتدى بذلة من إنتاج محلات فرانشيسكو سمالتو لم تكن مشتراة جاهزة بل كانت بالتفصيل على المقاس وهو ما يكلف تقريبا ضعف ثمن الجاهزة ....

قالا أيضًا إنهما يحبان إفريقيا فى أعماقها الحقيقية فى أصالتها وغموضها فى أحراشها وأدغالها فى أراضيها الصحراوية الحمراء بل إنهم حتى يحبّون حيواناتها المتوحشة التى ترتع حرة فى مساحات شاسعة ثم أضافا قائلين إن الأغبياء وحدهم هم الذين يظنون أن مستقبل إفريقيا السوداء مظلم وأن إفريقيا السوداء ترفض وتقاوم التنمية والتقدّم ثم اعتذرا لى عن الأخطاء التاريخية وبشكل خاص عن تجارة العبيد الزنوج وعن الاستعمار الأوروبى وعن صدام أوروبا مع القوى الوطنية فى سنوات محاولات الاستقلال وعن كل تلك الحماقات التى من نفس ذلك النوع والتى يجيد بعض المتطرّفين السود استغلالها والاتجار بها للإساءة الى العلاقات بين إفريقيا وأوروبا ....

فى ذلك اليوم لم أكن أرغب فى أن نترك أنفسنا لكل تلك الأحاديث القديمة التى يعلوها غبار الزمن وقد جعلتهما يفهمان أن كل تلك الأشياء المتعلقة بالماضى لم تعد تعنينى وأننى رجل ينظر إلى الأمام إلى الأفق إلى المستقبل الذى يبدو لى مشرقا. ثم حدثتهما عن الكونغو فسألانى فى أيٍ من دولتىّ الكونغو نبتت جذورى؟ سأل

الأب إن كنت من الكونغو الجنوبى البلجيكى الأكبر حجما (أى من كينشاسا/ زائير حاليا) وسألت الأم إن كنت من الكونغو الشمالى الفرنسى الأصغر حجما فأجبتهما بأنه لم تعد على أيامنا هذه لا كونغو بلجيكى ولا كونغو فرنسى فإنه إذا كانت لا تزال هناك دولتان تحملان اسم الكونغو فإنى أنتمى إلى الشمالية الأصغر حجمًا......

هنا هتف الأب قائلا (طبعًا لا بد أن تكون من الكونغو الفرنسية مستعمرتنا القديمة الجميلة التى أعلن الجنرال ديجول بنفسه أثناء احتلال الألمان لباريس على زمن الحرب العالمية الثانية القرار بأن عاصمتها برازافيل ستكون هى عاصمة فرنسا الحرة وهكذا أصبحت الكونغو بالنسبة للفرنسيين هى أرض الأحلام وأرض الحرية ومن جهة أخرى فإن أهل الكونغو هم أفضل من ينطق الفرنسية من بين كل شعوب قارة إفريقيا الناطقة بالفرنسية وحتى أفضل من نطق بعض الفرنسيين الذين يعيشون فى فرنسا فى الوقت الحالى)...................

كانت أم سيلين قد تضايقت بعض الشىء وأنّبت زوجها على استعمال كلمة مستعمرة فى إشارته إلى بلدى قالت (انظر يا جوزيف إن كلمة مستعمرة[1] لم تعد هى الكلمة المناسبة الآن وأنت تعرف ذلك جيدا) فاعتذر الأب قائلا إن هذه الكلمة قد سقطت منه سهوا وإنه كان يودّ أن يستعمل كلمة أخرى أفضل منها مثل كلمة منطقة [2] فقالت الأم (مستعمرة أو منطقة هما مثل أن تقول غطاء الرأس هو أبيض أو أن تقول أبيض هو غطاء الرأس)

---

(١) colonie
(٢) territoire

هنا غضبت سيلين قائلة لوالديها إننا لسنا هنا فى نوارموتييه لنتناقش فى لون غطاء الرأس.............

فقال الأب (حسنا إنها مناسبة طيبة لإحتساء زجاجة من نبيذ بوردو أليس كذلك) وقام لفتح زجاجته التى شربناها سويا وانتهزنا أنا وسيلين فرصة هذا الجو المريح المسترخى لنعلن لهما خبر زواجنا القريب. فوجئ الأب بهذا الإعلان لدرجة أنه كاد أن يبتلع نبيذه فى قصبته الهوائية بدلا من أن يمر كالمعتاد فى المرىء (يزِوَّر) قال (أنتم شباب اليوم دائما تتعجلون المسائل على أيامنا كنا نتسكع طويلا ونلف وندور حول عائلة المحبوب حتى نعلن زواجنا أنتم الآن مثل القطار الجديد فائق السرعة (تيه جيه فيه TGVهنا ضربت الأم قدم الأب بقدمها قالت (عندما تحب فالحب هو السيد هو الذى يعطى الأوامر أنت تعرف هذا يا جوزيف) ورغم هذا الحوار إلا أنهما وافقا وأعطيانا مباركتهما للزواج وعلى أية حال فإن سيلين لم تكن لتترك لهما خيار الرفض.............

حضر والداها إلى باريس للاحتفال معنا بالزواج وكنا حوالى خمسين شخصا فى قاعة صغيرة للاحتفالات فى شاتنيه مالابرى فكان هناك أصدقاء سيلين وكان هناك زملائى فى العمل وبعض معارفى وأغلبهم من الوسط الباريسى الأسود من أعضاء جمعية SAPE، وتعنى جمعية أصدقاء اللطف والظرف وكانت من بينهم فى ذلك اليوم شخصيات مهمة ذات نفوذ من أمثال: بينوس - موكى - موليه موليه - ميشيل ماشابيه - جو بالار وآخرون ....

وهكذا أصبحت أمامنا الحياة التى ينبغى أن نضع خطتنا لنحياها سويا أي أن نخطّ سويا طريقا واحدا لا طريقين وحيث إنه

كان لكل منا وظيفة جيدة فقد تمكنا على الفور وبنظام القرض البنكى من شراء منزل كبير فى ضواحى باريس على بعد نصف ساعة بالسيارة من وسط المدينة وبدأنا فى الانتقال إليه والاستقرار فيه راضيَيْن قريرَىْ العين............

كنا نريد أن نعيش سعداء بعيدا عن المشاكل أى بوضوح .... بعيدا عن الأحياء التى يكثر فيها الزنوج. أنا لست عنصريا ولكن مع ذلك عليك أن تعلم أن أسوأ أنواع الأعداء للزيجات المختلطة أى بين السود والبيض ليسوا دائماً من جيرانك البيض ولكن غالبا هم من جيرانك السود. هذه هى حقائق الأشياء دون تزويق و....... سحقا للأحكام الأخلاقية التى يطلقها أولئك الذين يخالفوننى الرأى.......... أنا أعرف أننى أغيظ كل زنوج فرنسا عندما أقول هذا الكلام ولكنى لن أغيّره............

ففى الحقيقة عندما يراك الزنوج الآخرون مع امرأة بيضاء يعتقدون أنهم هم أيضا يستطيعون أن يناموا معها لأنهم يقولون فى أنفسهم (إذا كانت هناك امرأة بيضاء طبيعية وسليمة الطويّة قد قبلت أن تنام مع غوريللا من الكونغو فلماذا لا تقبل أن تنام كذلك مع بقية حيوانات حديقة الحيوانات وبقية حيوانات المحميّات الطبيعية فى غابات إفريقيا).......

أنا لست هنا فى سبيلى إلى ممارسة انتهاكات نفسية لنوع بشرى لم يضمّد بعد كل جروح الماضى التى لا تريد أن تلتئم وأكرر لا تريد أن تلتئم..........

فى الأساس أردنا أنا وسيلين أن نبتعد عن صخب باريس وأن ننعم بهدوء الضواحى لكننا أردنا كذلك أن نبتعد قدر الإمكان عن

الزنوج الغيورين الحسودين الذين يودّون دائما أن يمارسوا أمامك كل مسرحياتهم الفكاهية التقليدية من الكوميديا الكلاسيكية.......

.... كنا نقول لأنفسنا إن المرء حتى يتمكن من العيش سعيدا عليه أن يعيش مختبئا قدر الإمكان عن عيون الآخرين.......

وهكذا كانت حياتنا جميلة وردية(*) (أغنية أديث بياف التى كانت قد غنتها عندما كانت واقعة فى غرام إفريقى آخر من عرب الجزائر) ثم زادت سعادتنا بعد مرور عامين بإنجاب طفلتين توءم وكان لون بشرتهما هو لون شوكولاتة جميل وسط بين الأبيض والأسود ولكنهما لحسن حظهما ورثا لون عينى أمهما الأزرق كإثبات أكيد لأصلهما الأوروبى، لم أكن أحلم بحياة أفضل من تلك التى كنت أحياها كان زواجا نموذجيا رغم ما تشيعه ألسنة (السوء) فى مجتمع (السود) الباريسى من أن تلك الزيجات المختلطة لا تعيش طويلا...............

يقولون إنهم لم يروا أبدا زوجا أسود مع زوجة بيضاء وقد شابت شعورهما أى تقدّما فى العمر سويا. ويقولون إنه حتى يعيش لرجل أسود زواج مع بيضاء عليه أن يعيش على الحافة بين عالمين وعليه أن يقدّم تنازلات وعليه أن يهرب من إخوته ووالديه الذين يعتمدون عليه فى كل شىء إلى حد مبالغ فيه باختصار عليه أن ينكر أهله ثلاث مرات قبل صياح الديك (إشارة مسيحية من الإنجيل إلى ما فعله بطرس تلميذ المسيح عندما أنكر ثلاث مرات أمام الناس معرفته بالمسيح قبل أن تمر الليلة الأولى بعد القبض

(*) la vie en rose

على المسيح) باختصار آخر عليه أن يضع فوق لون بشرة وجهه الأسود قناعا من اللون الأبيض الناصع البياض ....

ولكنى أقول لك يا زجاج مكسور إن زواجنا صمد أمام كل هذه الصعوبات ولم يكن هناك ما يعكر صفونا إذ لم أكن أحتاج إلى وضع القناع الأبيض على وجهى كى أخفى به بشرتى السوداء كنت فخورا بلونى الأسود وسأظل كذلك إلى نهاية حياتى كما أنى فخور بثقافتى الزنجية وكان هذا بالتحديد هو السبب فى احترام سيلين لشخصيتى ولذاتيتى، كنت أبا طيبا وكانت الأمور تسير على ما يرام فالسماء زرقاء والعصافير المتعددة الألوان تأتى لتقف على أفرع أشجار حديقتنا وكنت قد دهنت المنزل باللون الأخضر الذى أحبه ولهذا بدأ الجيران فى تسميته (المنزل الأخضر)............

وعندما تكون السماء زرقاء إلى هذه الدرجة فإنه من المعتاد أن يحدث شىء يعكر صفو هذه السماء وقد حدث فعلا ما عكر صفو حياتنا ودفعت ثمنه غاليا من حسابى الشخصى فأظلمت سماؤنا ورحلت عصافيرنا عن حديقتنا دون أن تعود أبدا بعد ذلك فى الصباحات التى كانت جميلة لتتمنى لنا صباحات جديدة تالية لا تقل بهاء بل جاءت بدلا منها عصافير الندامة والتعاسة بأجنحتها الثقيلة ونعيقها المشؤوم وبدأت تلك العصافير للتو فى نقر جذع شجرة حبنا أنا وسيلين بمناقيرها الصلبة الخشنة تلك الشجرة التى كانت راسخة تماما فى حديقتنا.................

(١٦)

عند أول وصولى إلى باريس كنت قد عرفت فتاة من جزر الأنتيل وهى من جزر البحر الكاريبى التى كانت يوما ما مستعمرة

فرنسية عرفتها وتزوجتها حين كنت أطلب العلم فى المركز القومى للفنون والصنائع وأنجبت منها قبل حوالى خمسة عشر عاما ولدا ذكرا ثم انفصلنا وانقطعت أخبارها عنى واختفت من حياتى. والآن يظهر هذا الولد فجأة وقد أصبح مراهقا يسبب لأمه المشاكل هنا فقط بدأت أمه فى البحث عنى حتى وجدتنى..........

الآن فقط تهددنى تلك الزوجة الأولى وترفع الأمر إلى القضاء! عن أى أمر تتحدث تلك المرأة؟ تقول إننى قصرت تقصيرا مخلا فى مسئولياتى المالية تجاه تكاليف تعليم وتغذية ابنى الوحيد!!! أين كانت هى طوال تلك السنوات؟؟؟؟.......... كان الحل هو أن أتخذ لنفسى محامية جيدة تمكنت من أن تجد لى مخرجا إذ أثبتت أننى لم أقصّر وأن التقصير جاء من طرف المرأة لأنها لم تتصل بى أبدا ومنعتنى بالتالى من القيام بمسئولياتى تجاه ولدى تلك المسئوليات التى لم أكن لأتأخر عن تحمّلها. حصلت فى النهاية على حق حضانة ابنى الذى أتى ليعيش معى حتى أتمكن من الإشراف على تربيته وتعليمه وعلى مساعدته فى تحسين ظروف مستقبله خاصة أنه كان لدينا المكان الكافى لاستقباله فى منزلنا الأخضر..........

وقد ساعدتنى سيلين فى اتخاذ هذا القرار وشجعتنى عليه قائلة (لا ينبغى أن تترك فلذة كبدك لعواصف الحياة كما لو كنت أبا بلا ضمير) هذا هو ما قالته سيلين!!.........

هكذا جاء ابنى ليقيم معنا ولكنه للأسف بدأ على الفور فى الاختلاط بكل منحرفى الضاحية من السكان الصغار الذين يقاربونه فى السن وقد فعلت كل ما فى استطاعتى لإعادته إلى الطريق القويم. ثمّ أصبح الوضع فجأة مستحيلا إذ بدأ فى التطاول

علىّ كأن يرفع صوته أمامى ويسخر من المستقبل الباهر الذى أعدّه له بل حاول مرة أن يرفع يده لضربى وقد أصبح أكبر منى حجما هل تصدق هذا؟؟ لم أعد أعرف فى أى عالم نعيش أى عالم هذا الذى يفكر فيه الابن أن يضرب أباه باليد؟ منذ متى لا أعرف حدث فى هذا العالم أن صارع ابن أباه باليد؟............

كنت أعرف أنه لم يقبل أبدا انفصالى عن أمه عندما كان طفلا صغيرا وكنت أشعر بأنه كان يحتقرنى لهذا السبب ولكنى لم أكن مسئولا وحدى عن هذا بل هناك كذلك أمه. كان إذن يعتبرنى خائنا مدّعيا مزيفا معقدا وكان يسبّنى بعبارة (عبد الجنس الأبيض) بل عرفت كذلك أنه كان يسمينى (أقدام الخنزير) هل تتخيل؟ كانت هذه هى بداية الجحيم بالنسبة إلىّ............

جعلنى ذات مرة أفقد أعصابى إذ حكى لى كيف أنه قابل سيلين فى الشارع وكان مع اثنين من أصدقائه الجدد من الأفارقة سكان المنطقة، وبعد انصرافها قال له أحدهما واسمه فرديناند إنه عشيق لها. غضبت أن يأتى ابنى ليحكى لى شيئا قبيحا مثل هذا عن زوجتى أن يدّعى مثل هذا الادّعاء على زوجة أبيه. اعتبرت أن هذه القصة هى فقط محاولة منه لإثارة أعصابى وواحدة من الأزمات التى يتعمّد أن يخلقها لى بين وقت وآخر فأنا لم أتخيّل أن تجرؤ سيلين على الإساءة إلى زوجها إلى هذه الدرجة، قلت فى نفسى (إن ابنى ليس إلا كذابا من الدرجة الأولى) ولم أبحث عن التحقق من هذا الادعاء الذى لم يكن فى نظرى إلا أكذوبة..........

صحيح أننى كنت أترك حرية حركة كبيرة لسيلين حتى تتفرغ لعملها ولانشغالاتها الشخصية بالإضافة إلى أن هذا هو العرف

السائد هنا فأنت فى فرنسا لو تزوجت فرنسية بيضاء فلا تستطيع أن تتدخل فى حرياتها الشخصية حريتها مثلا فى الدخول والخروج كيفما تشاء وقتما تشاء، وقد تنازلت كثيرا عن بعض مما كنت أصرّ عليه فى بداية زواجنا وحدث أحيانا فى أوقات راحتى وفراغى أن جلست مع طفلتينا لرعايتهما فى حين كانت هى فى الخارج مع صديقاتها وأصدقائها إذ كنا نتفق فيما بيننا على مثل هذه المسائل...............

إلى اليوم الذى حدثت فيه مفاجأة إذ وجدت ذات صباح فى حمّام منزلنا ما عكّر دمى وجدت عازلا ذكريا طافيا فوق ماء مقعد دورة المياه والملفت للانتباه هو حجمه الكبير إذ كان على الأقل ضعف الحجم الذى كنت أستعمله رغم أن عضوى كبير الحجم مقارنة بالأحجام السائدة. وإن كنت لا تصدقنى يا زجاج مكسور يمكننى أن أريك إيّاه. قلت فى نفسى (إنه من المؤكد الولد الخلبوص ابنى وقد أحضر معه إلى المنزل فى غيابى واحدة من الفتيات البيض أو السود اللائى يصعن دون توقف فى شوارع المنطقة) رغم أننى كنت قد نبّهته إلى نتائج مثل هذه التصرفات فهو فى الثامنة عشرة من عمره ولم يعد صغيرا ماذا سيفعل لو حملت الفتاة منه؟ كيف سيدبّر مصروفات الطفل الوليد؟...............

ولكنى لم أستطع تخيّل ابنى ممتطيًا فتاة فأنا لم أره أبدًا يدور حول فتاة فى الشوارع وقد تساءلت حتى أحيانا إن لم يكن متأخرا بعض الشىء فى هذه المسائل مقارنة بأقرانه. ولكن عندما شاهدت العازل فى دورة المياه بدا لى أنه أصبح قادرا على فعل مثل هذه الأشياء ولكن أن يلقى العازل هكذا فى مقعد دورة المياه دون أن يتأكد من اختفائه فى المياه هو تصرّف يدل على قدر كبير من عدم

الاحترام لمن هم فى المنزل لأبيه ولزوجة أبيه بل إن مجرّد إحضاره لفتاة إلى المنزل يدل على قلة الاحترام لأهل المنزل..............

وبينما كنت أفكر فى هذه المسائل وليس فى دماغى إلا صورة هذا العازل الكبير الحجم إذا بأفكار غريبة جديدة تغزو رأسى وتمنعنى من النوم ليلا. إذ قلت فى نفسى يجوز أن رجلا آخر قد جاء إلى منزلى فى غيابى وأنه عشيق لسيلين ولماذا والحالة كذلك لا يكون هو ذلك الإفريقى فرديناند المقيم فى الجوار والذى حدثنى عنه ابنى؟ وهكذا بدأت الثورة الغاضبة تشتعل فى قلبى ثم بدأت أرى كأن كل الأشياء تتساقط عند قدمىّ وأرى السعادة وهى تهرب من منزلى الأخضر ولم أفهم كيف يأتى شيطان ويلقى بذوره الشريرة فى حديقة منزلى الأخضر الفردوسية ....

لقد فكرت فى كل شىء حتى فى القتل ولو بسكين من المطبخ أو بمفك النجارة حاد النصل أو بفأس العزق فى الحديقة أو بالمطرقة من الجاراج وفكرت فى قتلهما معا هو وهى فقد تغيرت فجأة نظرتى إليها إذ بدت لى فجأة قذرة حقيرة لبؤة خائنة ولا شك لدىّ فى أنها هى التى أغوت فرديناند بهزّ مؤخرتها أمامه بطريقة شهوانية وقحة فاحشة مخلة بالحياء يجب أن أقتلهما فى نفس اللحظة بعد أن أنصب لهما فخا..............

اعتقدت أنه من السهل الإيقاع فى الفخ بامرأة بيضاء تحب زنجيا وتخونك معه يكفى لاستثارة مشاعرها أن تتعمّد أمامها سبّ إفريقيا وإهانة الزنوج أو أن تقول أمامها إن الزنوج كسالى متخلفون يعيشون فى أكواخ من جذوع النباتات ويثيرون حروبا عرقية ولا يتفاهمون إلا بالسواطير وسترفع المرأة البيضاء على الفور قناعها الذى تخفى خلفه وجهها...............

ولكنى سرعان ما تراجعت عن فكرة الفخ والانتقام فى مجملها قائلا فى نفسى إنه ليس لدىّ دليل مادى ملموس على الخيانة وهكذا استأنفت الحياة ثم بدأت حتى فى تأنيب نفسى على الشك فى سيلين قائلا فى نفسى إننى كنت على وشك أن أشعل النار فى منزلى. ومع ذلك فقد بقى منظر العازل الذكرى الضخم الطافى على سطح مياه مقعد دورة المياه أمام عينى بدون أى تفسير مقبول.............

وحدث بعد بضعة أسابيع من تلك المأساة التى اعتقدت أنها مزيّفة وأننى تخيّلتها أن اكتشفت مرة أخرى عازلا ذكريا من نفس المقاس طافيا فوق سطح نفس المياه لأن المشكلة مع هذا النوع من العوازل هى أننا نلقيها فى الماء ونجذب ذراع شفاط الماء إلا أن هذا العازل لا ينجذب مع الشفط وإنما يعود إلى الطفو من جديد. قررت ألا أتجاهل هذه المسألة مرة أخرى وذلك لأنى اعتقدت أننى لست أحمق إلى هذه الدرجة ولست مستعدا أن أترك بابى هكذا مفتوحا لكل من هبّ ودبّ من زنوج الناحية ومن الإخوان من جيران الضاحية فهم يعتقدون الآن أن إشارات المرور كلها خضراء وأنهم يستطيعون كلهم المرور قبلى باتجاه فراش زوجتى ومنصّة عملياتى ليقوموا هم بدلا منى بعزق الأرض ....

قررت أن أنتقل إلى مرحلة العمليات التكتيكية المباشرة حتى لو أدّى هذا إلى تحطيم كل شىء وهكذا قمت بأداء تحرّياتى الخاصة كما لو كنت رجل تحرّيات محترفًا مثل المفتش كولومبو فى حلقات مسلسله أو المفتش ماجريه حتى أفهم ما الذى يحدث فى منزلى عندما أكون غائبا عنه. وفى يوم إثنين من الأيام الباردة المعتمة قلت

لسيلين إننى ذاهب إلى العمل وإننى من المحتمل أن أعود متأخرا جدا فى المساء بسبب طبع مجلة جديدة يجب أن تطرح فى الأسواق خلال ٢٤ ساعة وقد بلعت الطعم لأنى لم أكذب عليها أبدًا من قبل............

خرجت من المنزل وأخذت سيارتى وتسكعت بها لمدة ساعة فى وسط المدينة ثم جلست فى مقهى وشربت قهوة سادة كانت مُرّة جدا ثم دخنت سجائرى كالمدخنة ثم اتصلت بعملى وطلبت إجازة عارضة لمدة يوم واحد مدّعيا أن السبب هو معالجة مسألة عائلية. فى طريق عودتى إلى المنزل أخذت معى فى السيارة زجاجة خمر لأحتسى نصف ما بها حتى الوصول إلى المنزل بحجّة أن أكون فى حالة تسمح لى بمداهمة المكان وضبط سيلين مع عشيقها فى وضع التلبّس وهى مسألة صعبة جدا على أى زوج وينبغى لذلك أن أكون فاقدا لجزء من وعيى. فى طريق العودة إلى المنزل دار شريط الذكريات فى مخيلتى كفيلم سينمائى به لقطات متتالية للقائنا الأول فى ملهى تيميس الليلى فى بيجال ثم مناظر قبلاتها لى فى المصعد وممارستنا الحب أمام باب شقتى الذى لم أتمكن من فتحه ثم سمعت صوتها وهى تصرخ تلك الليلة من اللذة...............

وفجأة وجدت يدى من الانفعال تضغط على مقود السيارة فينطلق صوت بوق السيارة فى الفضاء حادا عنيفا كأنه صرخة احتجاج عندما قلت فى نفسى وأنا أعض على شفتى السفلى (لعلها تطلق الآن نفس صرخات اللذة مع فرديناند)......... (فى الحقيقة أنا لم أكن إلا أحمق مسكينا حين اعتقدت أننى كنت الرجل الوحيد القادر على القذف بسيلين إلى السماء السابعة حتى تصرخ بهذه

الطريقة فى حين أن هناك ـ الآن ـ نذلاً قذرًا من أبناء عمومتى قد يكون أكثر فحولة منى يقذف بها الآن إلى السماء الثامنة أو حتى التاسعة)..................

(١٧)

وصلت إلى الضاحية وهذه الأفكار السوداء تغزو رأسى..... ركنت سيارتى على بعد بضعة مبان من منزلى الأخضر...... صلّيت إلى الله لبضعة ثوان..... كانت الساعة السادسة مساء...... مشيت بضع دقائق حتى أصبح المنزل الأخضر على بعد بضع خطوات...... مررت من الفناء الخلفى..... كنت مخمورا تماما...... حرصت على ألا تصدر منى أية أصوات..... مشيت على أطراف أصابعى....... وصلت إلى أمام باب حجرتنا أنا وسيلين...... وجدته نصف مفتوح...... كنت مرتبكا ...... دفعت الباب........ لم يكن هناك أحد بالداخل........ اجتزت الممر عبر حجرة المائدة....... سمعت أصواتا صادرة من حجرة ابنى...... وصلت إلى أمام باب حجرة ابنى المغلق.... كان قلبى يدق بشدة........ كنت فى نفس الوقت أريد أن أعرف الحقيقة....... خائفا من اكتشاف تلك الحقيقة...... هناك صوت ضحكات...... وفراش يئز فى صرير متقطع...... وأصوات صفعات باليد على الجلد العارى.... تتلوها أصوات تأوّهات ألم مفتعل غير حقيقى...... تحفزت ودفعت الباب.......... لأجد سيلين مع ابنى فى نفس الفراش.........................

كانت سيلين تعتليه...... ممسكة فى يدها بسوط قصير........ وكأنها تضرب به جلده العارى.......... وكأن هذا يعيد إليها ذكريات تفوق عنصرها الأبيض.... أيام الاستعمار الأولى

فى إفريقيا...... على الزنوج السود المتخلفين........ وعلى شعوب جزر البحر الكاريبى .... فإن ابنى يحمل ملامح أمه الكاريبية ببشرة سمراء .... تضربه بالسوط ثم تحتضنه...... شاهدت هذا بنفسى ولو لمرة واحدة.......... كان جسداهما مبتلين تماما بالعرق الغزير...... انطلقت منى فجأة صرخة ألم حادة آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه.... لم أعد أعرف ماذا أفعل..... كنت واقفا أمامهما أرتجف من رأسى إلى قدمى...... وكأن العالم كله قد انهار الآن أمامى..........

قفزت فوق ابنى ونزعته من الفراش ودفعته إلى أرض الحجرة تمهيدا لذبحه ولكنه ردّ على بضربة من قبضة يده فى بطنى حاولت أن أقف لأفرد جسمى ويخفّ تأثير ضربة البطن وكانت سيلين تصرخ من طرف الحجرة الآخر ولكنها هنا اقتربت منى لتدافع عن ابنى ضدّى لتساعد ابنى فى معركته مع أبيه وهكذا دفعنى الاثنان نحو الحائط وكنت بسبب كمية الخمر الكبيرة التى ابتلعتها غير قادر على أى تصرّف فلم أتمكن من الإتيان بأى تصرف معقول فى هذه المعركة غير المتكافئة ضد خصمين متحدين متواطئين معا بالجسد والدم وبالخطيئة الأولى خطيئة آدم وحوّاء...........

بدأ ابنى فى ضربى بالسوط الصغير بعد أن أخذه من يد سيلين ثم ألقى بالسوط على الأرض بعد أن وجد أن ضربى بقبضة يده فى بطنى أكثر إيلاما ثم واصل ضربى بقبضة يده فى أماكن متفرقة من جسمى ومنها ضربى فى جمجمتى وهو ما أدّى إلى فقدى الوعى فى إغماءة طويلة حضر أثناءها رجال الشرطة فاختلقا لهم قصة إصابتى بالجنون ولم تفهم ابنتاى العزيزتان ما

يحدث وكانتا عند وصول الشرطة تلعبان فى الحديقة ثم حضرتا إلى حجرة النوم بعد وصول الشرطة وبدأتا فى البكاء..........

عندما استعدت وعيى صباح اليوم التالى لم أعرف أين كنت ثم اكتشفت أنهم كانوا قد وضعونى فى أحد ملاجئ المرضى العقليين التى يعزل فيها أولئك المرضى الخطرين لحين دراسة حالاتهم وتقرير مصائرهم. تركونى هناك مدة طويلة لا أستطيع تحديد زمنها بدقة وكان الوقت يمرّ بطيئا ولا أجد حولى إلا هؤلاء المجانين بالإضافة إلى ذوى القمصان البيضاء الذين كانوا يصرون على ألا يتركونى نهارا وليلا بل يحيطون بى باستمرار وكانوا أحيانا يأخذوننى فى نزهات خلوية فى حديقة هذا الملجأ أو المستشفى وقد أجلسونى على كرسى متحرّك يدفعونه أمامهم كما لو كنت قد تحولت إلى أحد العجزة من مستوطنى أستراليا الأوائل(*) الذين صدمتهم الحضارة الحديثة ففقدوا القدرة على السير..........

حلقوا لى شعر رأسى تماما ثم قيدونى إلى الكرسى المتحرك بربط اليدين عند المعصم فى الكرسى وعدم فكهما إلا عند النوم وبعد إعطائى المخدّر القوى كأنهم كانوا يخشون لو ظلت اليدان حرتين أن أحطم كل شىء أمر إلى جواره. المؤلم هو أن المجانين كانوا يسخرون منى قائلين (تعالوا يا أصدقاء استمعوا إلى قصة هذا المجنون الذى يعتقد أن ابنه كان ينام مع زوجته ويصرخ طوال الوقت إنه مجنون حقيقى إنه حقيقى مجنون)...........

وضعت بعد ذلك فى قسم المجانين الخطرين الذين يظلون طوال يومهم يصرخون دون توقف وقد اضطررت إلى تقليدهم وإلى

(*) australopitheque

أن أصرخ مثلهم وإلا فإنهم يعتقدون أنك لست مجنونا حقيقيا وإنما أنت مدسوس عليهم فيبدأون فى ضربك كلهم معا أو كل واحد منهم على حدة مع الاحتفاظ بالدور............

كم مرة حاولت أن أشرح للأطباء والممرضين أننى لست مجنونا وإنما أنا فقط مصدوم من رؤية ابنى الوحيد فى الفراش مع زوجتى إذ لم أحتمل منظرهما معا عاريين تماما مثل دود الأرض وأحدهما فوق الآخر...........لم أستطع تحمّل فكرة أن ابنى الوحيد يدخل ذكره فى نفس المكان الذى أدخل أنا فيه ذكرى هناك فى أسفل بطن تلك المرأة التى اخترتها للزواج أنا وهو معا فى نفس المرأة ألا يدعو هذا إلى الجنون؟...........

المؤلم هو أننى عندما كنت أصل إلى هذا الجزء من القصة التى أعدتها مرارا وتكرارا كنت دائما أسمع صوت ضحكات متناثرة قادمة من أنحاء المكان المختلفة مما كان يزيد من انفعالى وهياجى. وذات مرة تصادف وجود ممرضة إلى جوارى تمدّ إلىّ يدها بكوب ماء فأدى هياجى وميلى بجسمى عليها أن سقط من يدها كوب الماء وسقطت أنا من فوق الكرسى وتدحرجت به على أرض المكان وانقلبت عدة مرات محدثا ضجّة كبيرة وكان مدير المستشفى قريبا من المكان فجاء جريا تتبعه نصف دستة ممرضين وقال لهم بلهجة آمرة مكتسبا سلطته من شهادة الدكتوراه التى حصل عليها فى علم الأمراض النفسسية والعقلية (قلت لكم اربطوه جيدا ولا تبتعدوا عنه قيد أنملة يجب علينا الآن مضاعفة جرعة الأقراص التى يحصل عليها لنحدّ من هياجه بالإضافة إلى الحقنة الآن وفورا وذلك حتى يهدأ تماما وإلى الأبد) ثم بعد أن ابتعد قليلا عنى قال (عيان زبالة)...............

أخذت الحقنة ونمت. كل هذا العذاب كان بسبب اعتقادهم أن ما أحكيه لهم بإصرار عن تلك العلاقة بين ابنى وزوجتى ما هو إلا تخريف وخيالات مريضة. وكان لسيلين اليد الطولى فى هذا فكلما سألوها عمّا حدث أسهبت فى شرح الموضوع من وجهة نظرها قائلة إنها منذ مدة تلاحظ الجنون التدريجى الذى كان قد أصابنى وذلك فى رأيها بسبب إدمانى الخمر وحالة السكر الدائم التى كنت فيها ثم بدأت فى ضرب ابنى كل يوم بدون أسباب واضحة وكان ابنى الموجود معها يؤكد على هذه الأكاذيب مما كان يضيف إليه الكثير من المصداقية أمام جمهور المستمعين من مرضى وممرضين فكيف لشاب برىء مثله أن يكذب....................

وهكذا استمرت الحقن شبه اليومية واستمر بالتالى تدهور حالتى فتزيد ساعات نومى كل يوم وأستيقظ لأكتشف أننى أفقد ذاكرتى بالتدريج حتى وصل بى الأمر ذات يوم إلى الاعتقاد فى أنى غادرت الأرض ووصلت إلى السماء ولم أعد أرى فوق رأسى إلا السحب البيضاء وحولى إلا الفراشات الملوّنة وهكذا قلت بصوت مرتفع (أريد أن أرى الله هو نفسه وليس أحد ملائكته هؤلاء من ذوى القمصان البيضاء) ثم صمتُّ تماما وعندما عدتُّ إلى الكلام قلت (إننى لن أتحدث إلا أمام الله الآب نفسه وليس حتى أمام الابن) وقلت (أشعر أننى أُضَجِر كل هؤلاء الملائكة الواقفين حولى ومن معهم من الكائنات السماوية الأخرى ولكنى لن أتحدث بعد الآن إلا أمام الآب) فكانوا ينظرون إلىّ بعيون تزداد اتساعا..........

طلبوا منى أن أهدأ وقالوا إنهم سيبحثون لى عن طريقة تمكننى من الحديث مباشرة مع الرب وأضافوا أنهم قد أعدّوا

مسبّقا لهذا اللقاء منذ وطأت أقدامى أرض الجنة. جعلونى أصدق أننى قد وصلت إلى الجنة. وفجأة رأيت أمامى رجلا زنجيا ضخما مثل تمثال ضخم كان متقدّما فى السن إلى حدّ ما ومرتديا قميصا أبيض اللون جاء يمشى بطريقة فيها قدر من الجلال والعظمة كما لو كان مقبلا على قراءة نصوص من القدّاس الإلهى فى كنيسة ما قدّم نفسه إلىّ قائلا (أنا الله كلّى القدرة) فقفزت من مكانى فورا بعصبية شديدة وقلت (إنها إهانة كبيرة وهرطقة لا تغتفر فهذا الرجل ليس الله وذلك لأن الله لا يمكن أن يكون أسود البشرة). فنظروا إلىّ من جديد وعيونهم تزداد اتساعا...............

جاءوا لى برجل آخر يرتدى هو الآخر قميصا أبيض وكان هو الآخر ضخم الجثة وبشعر رأس رمادى كثيف وبذقن رمادى كثيف وبعينين زرقاوين وبلون بشرة شديد البياض وهذا هو المهم فشعرت للتوّ بدخولى فى حالة وجد شعورى وارتعش جسمى كله كما لو أن الروح القدس نفسه قد جاء فى هذه اللحظة ليسكن جسمى فهذا هو الرب. بدأت أتحدّث إليه مباشرة موجها كلامى إليه باستعمال صيغة (يا ربّ) طلبت منه أن أمارس أمامه طقس الاعتراف بخطاياى وهو طقس يمارس فى الكنائس أمام الكهنة ويسمح للمعترف بالتطهر من خطاياه والتخلص منها بعد الاعتراف بها..............

ثم شعرت بضعف صوتى الذى لم أعد قادرا على إخراجه من فمى ثم اختفى صوتى تماما ولم أعد قادرا على الكلام ثم بدأت أرى الناس حولى مزدوجين أى أرى كل شخص مزدوجا فى شكل شخصين متطابقين متشابهين متلاصقين وتولد لدى انطباع بوجود

ضوضاء أصوات لا يمكن تمييزها تنتشر فى المكان حولى وأن الناس يتحدّثون إلىّ بأصوات مرتفعة جدا..........

لم تأت زوجتى لترانى فى حالتى الجديدة تلك ولم يأت ابنى الذى هو من لحمى ودمى ليرانى فى حالتى الجديدة تلك ولم أعد قادرا على تمييز زملاء العمل السابقين الذين جاءوا لزيارتى حاملين باقات الزهور والأعداد الأخيرة من مجلة بارى ماتش وقد أسأت إليهم جميعا إساءات بالغة فكان من الطبيعى بعد مرور أقل من شهر على حالتى الجديدة تلك أن يتوقف الجميع عن زيارتى..........

تقدّمت زوجتى إلى المحكمة بطلب الطلاق بعد أن كانت قد استشارت محاميا إفريقيا أسود من مواطنى بلدى.........لم تجد زوجتى فكرة أفضل من تلك أن تختار للدفاع عنها محاميا كونغوليا يجوز حتى أنه من مواليد نفس الحىّ الذى ولدت فيه حى الثلاثمائة (الترواسان) وأستطيع أن أتخيّل أن ذلك المحامى الزبالة هو الآخر من المؤكد قد شارك سيلين فراشها ليمارس معها كل تلك النجاسات وكل تلك الأفعال الحيوانية الخنزيرية القذرة فهى تريد دائما أن تتذوق كل جديد وعندما تجد أمامها رجلا أسود تحب دائما أن تقرقشه ثم تلتهمه فهى لا تشعر أبدا بالإرهاق من ممارسة الجنس مع أى رجل أسود............

وقد حصلت زوجتى بسهولة على الطلاق إذ يبدو أن القانون واضح جدا فى هذه النقطة فإن أحدا لا يستطيع أن يفرض على امرأة فرنسية زوجا مأفونا مخبولا خطرا لا أعرف حسب أية مادة فى القانون المدنى لسنة ١٨٠٤؟ ولا فى أية فقرة بالضبط من تلك

المادة. قالوا لى (مادة كذا/ فقرة كذا) فسكتُّ ولم أعلق. وهكذا احتفظت كذلك بحق حضانة الطفلتين وهكذا حصلت بالأخص على أمر بترحيلى فورا من الأراضى الفرنسية عائدا إلى بلدى الأصلى وهو بالمناسبة ما كان والداى يسعيان إليه منذ علما بالمصير البائس الذى أصاب زواجى أو فلنقل الذى أصاب كل تلك المغامرة الباريسية المبهمة وقد استمر عجزى عن الكلام طوال مدة الشهر الذى سبق عودتى النهائية إلى بلادى..........

فى الحقيقة عادت الىّ روحى فى اللحظة التى هبطت فيها الطائرة على أرض بلادى وشاهدت والدتى ووالدى فى انتظارى على أرض المطار رغم نظراتهم الحزينة. كنت أجد فى نظراتهم الكثير من الألم لحالتى ولكن هل كان فى نظراتهم كذلك بعض الإحساس بالخزى أو العار؟ وعندما عدت إلى الحياة اليومية فى هذه المدينة بدأت فى التردد اليومى على المشارب واكتسبت عادة احتساء الخمر كل يوم للتخلص من مطاردة الخيالات والظلال التى تطاردنى بل تجرى خلفى فى كل مكان أذهب إليه............

رفضت الإقامة مع والدىّ فى نفس منزلنا القديم رفضت ذلك الشعور المستمر بالمهانة (كأنك يا أبو زيد ما غزيت) وبدأت أهرب من كل شىء بالمشى طوال النهار والليل أمشى غالبا بمحاذاة ساحل البحر وأتناقش خلال المشى مع الخيالات التى تطاردنى علها تعتقنى لوجه الله أمشى وأمشى وأمشى حتى ينهد حيلى وتنقسم سلسلة ظهرى ثم قبيل المساء آتى إلى هنا لأشرب حتى أنسى نفسى وأستطيع أن أذهب لأنام وأنت عندما ترانى تعتقد أننى رجل عجوز ولكنى فى الحقيقة شاب حطمته الحياة..........

الآن بعد أن استمعت إلى قصتى هل ما زلت تعتقد فعلا فى داخلك أننى مجنون؟ بعد كل ما تحدّثت به إليك هل أبدو لك الآن مجنونا؟ أم أنك ترى ـ كما أرى ـ أنها النوايا السيئة للبشر التى تشيع عنى هذه الأقاويل؟ قل الحقيقة يا زجاج مكسور على الأقل عدنى بأنك ستضع كل التفاصيل التى ذكرتها لك عن حقيقة حياتى فى كتابك المزمع طبعه. أودّ أن أذكرك بأن قصتى تلك هى التى ستعطى لكتابك قيمته الحقيقية وذلك لأنى كما ترى بنفسك أهم شخص فى هذا المكان البائس وأهميتى تنبع من أننى الوحيد من بين كل هؤلاء البؤساء الذى تمكن من العيش فى فرنسا وكانت لى هناك تجربة حياة وليس بمقدور أحد من هؤلاء الأغبياء أن يفعل ذلك.

بعد تلك المقابلة الطويلة مع رجل المطابع كنت أراه فى المشرب تقريبا كل يوم وهو ينفرد بأحد روّاد المشرب ليعيد على مسامعه نفس تلك القصة بكل تفاصيلها تلك القصة التى حكيتها لكم هنا والتى يسمّيها أحيانا (مغامرته المبهمة الغامضة)، رغم أنه كان قد جعلنى أعتقد أننى الشخص الوحيد الذى سيميّزه عن الباقين بأن يحكى لى أنا وحدى تفاصيل قصته الغامضة. أعتقد الآن مخلصا أن هناك فعلا شيئا ما فى دماغ هذا الرجل قد توقف فعلا عن العمل، كما ينبغى أن يعمل منذ مدة ليست وجيزة فرغم أنه يمرّ أحيانا بفترات من وضوح الرؤية إلا أننى أعتقد أن مأساته تلك قد حولته فعلا إلى شخص مجنون.

(١٨)

أحبّ كثيرًا أن أتحدّث إلى صاحب مشرب (لو كريدى) وأحبّ أن أناديه (يا مدير) والكل يعرف مدى قوة صداقتنا والكل يعرف

كذلك أنه لم يتزوج وبالتالى فهو بدون أولاد. هو يعتقد أن كل تلك المسائل من زواج وإنجاب أبناء هى مسئوليات وأحمال إضافية ومشاكل مزعجة لا معنى لها ثم إنه يقول إنه حتى نهاية العمر متزوّج من مشربه أى أنه ينشغل به كما ينشغل الرجل بزوجته.

ورغم هذا فنحن نراه بين وقت وآخر يصعد إلى الطابق العلوى من المشرب ومعه امرأة عادة ما تكون مرتفعة التضاريس وذلك لأن النساء مسطحات التضاريس لا يعجبنه. فى الطابق العلوى ينغلق عليهما الباب ثم عندما يعود إلى الطابق الأرضى يكون عادة مقطوع الأنفاس ولكن بابتسامة كبيرة فوق شفتيه فنعرف جميعا أن القوقع الحلزونى العنيد قد حقق ذاته مع تلك المرأة وأنجز مهمته بنجاح وهنا يحدث غالبا أن يتحوّل فجأة إلى شخص كريم جدا فيوزّع المشروبات المجانية على كل من يطلبها منه.

كنت أحيانًا ألمح فى المشرب والديه العجوزين اللذين يقيمان فى قرية نجو لو بوندو ويأتيان إليه لزيارته بين وقت وآخر وبالمناسبة فهذه القرية هى مسقط رأس العنيد حيث عاش طفولته. والغريب هو أن القوقع يشبه والده تماما كما لو كانا قطرتىْ ماء تساقطتا واحدة بعد الأخرى ولكنه خلال صداقتنا تلك الطويلة لم يقل لى أبدا أى شىء عن والديه. كل ما أعرفه هو أنهما ما زالا يعيشان فى تلك القرية وبالطبع أن السن يتقدّم بهما مع مرور السنوات ولكنهما كانا حاضرين إلى جواره فى الوقت الذى عانى فيه الكثير من المشاكل بسبب الجدل الذى دار حول المشرب فى بداية إنشائه ثم فضلا بعد ذلك أن ينسحبا من جديد إلى قريتهما.

هو ابنهما الوحيد وهما لم يدّخرا وسعًا بل فعلا كل ما فى إمكانياتهما ليوفرا له مستقبلا طيبًا فاهتما بإرساله إلى المدرسة حتى البكالوريا ليتمكن فيما بعد من الحصول على وظيفة جيدة فى أحد المكاتب أو أن يصبح موظفًا حكوميًا بمرتب شهرى ثابت وبجدول عمل كامل يشغل كل وقته أى عمل يقضى فيه اليوم كله لا نصف اليوم كما هو سائد حاليا ولكن لم تجر الرياح بما تشتهى السفن إذ كان القدر قد قرّر له مصيرا آخر.

لم يكن القوقع أبدًا تلميذا كسولا فإذا وضعنا فى اعتبارنا الشهادة التى أدلى بها زميله السابق فى نفس المدرسة وهو وزير الزراعة الحالى البير زولو لوكيا فإننا نقول إنه كان تلميذا لامعا نجيبا بل شديد الذكاء كان تلميذا يحب الواجبات المنزلية خاصة عندما يطلب منه القيام بأبحاث منزلية فى موضوعات أدبية أو فلسفية كما أنه كان يحب الجغرافيا والحساب بل فى الواقع إنه كان يحب كل المواد الدراسية.

هو ما زال قادرًا حتى الآن على أن يتلو من الذاكرة وبدون أن يتردّد ولا حتى فى كلمة واحدة قصائد كاملة وموهبته تلك تعذبنى بل تقتلنى فقد حاولت مرارا وتكرارا حفظ تلك القصائد وتلاوتها هكذا مثله من الذاكرة إلا أننى لم أتمكن أبدا عند الاستظهار من تلاوة أكثر من بيتين متتاليين من نفس القصيدة. صديقى المدير يحب بشكل خاص قصيدة (موت الذئب) للشاعر الفرنسى المعروف الفريد دو فينى(*) ويتلوها باستمرار فتغرورق عيناى بالدموع فى كل

(*) de Vigny

مرة يتلوها فيها خاصة عندما يصل إلى الأبيات الأخيرة كما لو أن تلك الكلمات كان الشاعر قد كتبها خصّيصا لصديقى.

الأنين والبكاء غالبا كلاهما بلا جدوى/

حتى الصلاة إلى الله غالبا هى الأخرى بلا جدوى/

ما كل هذا إلا نوع من الإحساس بالقهر/

نوع من الإحساس بالجبن/

نوع من الهروب من المواجهة/

.... ولكن........ ولكن عليك أن تتحرّك بنشاط وقوّة/

وتسير فى طريق تنفيذ مهمتك/

المهمة الموكلة إليك/

المهمة الشاقة التى ستستغرق وقتًا طويلاً/

وتسير على ذلك الطريق الذى دعاك إليه مصيرك/

.... ثم فيما بعد يمكنك مثلى أن تتعذب وتموت/

ولكن بشرط ألا تتكلم.

هو يفخر بأن قد حصل على الثانوية العامة الفرنسية من أول محاولة وأنه كان يستطيع أن يذهب الى أبعد من ذلك أى أنه كان يمكنه أن يدرس فى الجامعة ولكنه للأسف هجر مقاعد الدراسة دون حتى أن يعلن الأمر لوالديه إذ كانت طريقة الشباب فى التفكير فى ذلك الوقت هى محاولة البحث أولا عن النجاح خارج البلاد كنا نسمّى ذلك الوقت مرحلة البقرات العجاف وكانت الأوضاع فى

بلادنا مأساوية. كان كل الرجال الذين يشغلون وظائف حكومية مهمة فى البلاد لا يوظفون فى الحكومة إلا أقاربهم حتى لو كان أولئك الأقارب غير أكفاء لشغل تلك الوظائف.

هكذا تجوّل القوقع العنيد بين بلاد الجوار أنجولا والجابون وتشاد لأنه أراد دائما أن يكون رجل أعمال حرًا غير مضطر إلى تقديم كشف حساب إلى أى شخص آخر وهكذا وصل فى نهاية المطاف إلى الكاميرون حيث جاءته فكرة افتتاح مشرب فى مدينته على غرار مشرب كان قد رآه هناك وأنتم تعلمون ما تبع ذلك من مشاكل أشرت إليها بالتفصيل عند بداية السرد فى الفصول الأولى من هذه الكراسة ولن أعود إلى ذلك الموضوع مرة أخرى فأنا حتى لو كنت مخمورا لا أحب التكرار غير المفيد أو الحشو الفارغ الذى يلجأ إليه بعض الكتاب والمؤلفين والمعروفين بإجادتهم للثرثرة والذين يبيعون لقرّائهم نفس الصلصة فى كل كتاب جديد تخرجه لهم المطابع جاعلين جمهورهم يعيش فى وهم أنهم يخلقون له عوالم جديدة.

ذات مرة قال لى الحلزون (أعتقد يا زجاج مكسور أنه تنقصك فى حياتك بعض النواحى العاطفية وبعض المشاعر الملتهبة أنصحك بأن تجد لك رفيقة مسليّة طيّبة تستطيع أن تترك نفسك معها على سجيّتك بين وقت وآخر فإن لهذا تأثيرًا طيبًا)

فقلت (هل تعتقد يا مدير أنها فكرة جيدة فى هذا السن الذى بلغته وأنا لم أعد أجد نفسى مهتما بمثل هذه المسائل)

قال (ينبغى أن تبدأ حياتك من جديد والسن لا دخل له بهذا لا تضعه فى اعتبارك)

قلت (يا مدير من تلك التى ستقبل خرقة قماش ممزقة مثلى أتمنى أن يكون كلامك هذا مزاحا)

قال (أبدا أنا لا أمزح بل إنى جاد تماما ما قولك فى روبينات/ صنبورة إنها فتاة طيبة أليس كذلك)

قلت (يا إلهى بالأخص أنا لا أريد روبينات لأنها سمينة جدا بالنسبة لى ولا أستطيع أن أبلعها) ثم بدأت فى الضحك وبدأ هو كذلك فى الضحك.

تذكرت بعد ذلك كيف أن المدير كان قد أراد توريطى معها عندما كانت هنا فى المشرب لآخر مرة وكنت قد اعتقدت أن المدير يمزح إلا أنه يعود الآن إلى نفس الموضوع، لا يمكن أن أقبل روبينات فهى تشرب كميات من الخمر أكثر مما أشرب أنا وهى امرأة قدّت من حديد فمهما شربت من كميات مهولة لا يبدو عليها السكر أبدًا. تذكرت كذلك كيف أنها تشرب مباشرة من البراميل الضخمة التى يأتى بها اللبنانيون من آديليد فى أستراليا ويبيعونها فى السوق الكبير. بالإضافة إلى كل هذا فهى تتصرف أحيانا تصرفات لا تليق بالناس المحترمين كأن تذهب مثلا للتبوّل فى الفناء الخلفى للمشرب بدلاً من الذهاب مثل الناس المحترمين إلى دورة المياه.

وقد لاحظت مرة أنها ظلت تتبول عشر دقائق حتى أفرغت تمامًا ما فى مثانتها من سوائل. عشر دقائق!! ظلّ الماء يتدفق غزيرا لمدة عشر دقائق كما لو أنك كنت قد فتحت صنبور ماء أنا لا أخدعك وأعرف أن هذا لا يمكن تصديقه ولكنها الحقيقة. وكل الرجال الذين اعتقدوا أنه يمكنهم منافستها فى مسابقات مدد التبوّل اعترفوا لها بتفوّقها وتنازلوا لها عن قصب السبق وأقرّوا

بمكانتها الأولى فى هذا المضمار بل إنهم أقرّوا أمام شهود بأنها قد هزمتهم وسحقتهم واستبعدتهم وهمّشتهم وسخرت منهم ومرّغت رؤوسهم فى الوحل بل إنها حتى مرّغت رؤوسهم فى دقيق نبات الذرة.

(١٩)

جاءت روبينات ذات مرة إلى المشرب فوجدت رجلا مهندما لم نكن قد رأيناه من قبل فى المشرب فأرادت على الفور إغواءه وبدأت بالهجوم عليه بشكل مباشر ومباغت وشرس هجوم من نوع تلك الضربات الخفيفة غير المرئية التى كان محمد على كلاى قد لطم بها خصمه سونى ليستون فى مباراتهما الشهيرة فى الستينيات للاحتفاظ بلقبه كبطل العالم فى الملاكمة.

قالت له فجأة (أنت أيها المهتاج مثل ديك الفناء الخلفى هأنذا أعلنك أنك إذا تمكنت من الاستمرار فى التبوّل لمدة أطول منى فأنا سأسمح لك بأن تعتلينى مجانًا فى أى وقت تشاء وفى أى مكان تشاء وهذه هى كلمتى لك التى ألتزم بها أمام هذه الكائنات).

أجاب الرجل (أيتها المدّعية المتخايلة أنت لا تعرفين قدر الرجل الذى تماحكينه هذه المماحكة ولكنى أقبل تحدّيك أيتها الصنبورة المدعوّة روبينات وأعلنك أننى سأعتليك لاحقًا فأنا أحب المؤخرات الممتلئة والأثداء الفاحشة).

عندئذ ضحك كل من فى المشرب لأن الرجل تبدو عليه بوضوح مظاهر الادعاء والخيلاء ولم يكن يدرك حجم الخرابة التى تنغرز قدمه فيها فى هذه اللحظة فلو كان قد سمع مرة واحدة عن

روبينات (صنبورة) لما كان قد جرؤ عل توجيه مثل هذا التحدّى العلنى إليها ولما كان قد نطق أمامنا بمثل هذه الكلمات المتهوّرة غير المسئولة، كنا نحن زبائن الكريدى مسرورين جدًا من هذه التسلية غير العادية وسعداء لأننا موجودون هنا الآن لنكون شهودًا على هذه الواقعة وكنا نتوقّع فى نهاية هذا التحدّى أن نرى جثة هذا المجهول ممدّدة أمامنا على أرض المشرب. فى الواقع كانت روبينات مغتاظة من المقدّمات التى نطق بها هذا الدخيل فهى تعتبر نفسها ملكة التبوّل فى هذا الحىّ من المدينة بل فى المدينة كلها وهى التى لم يغلبها أحد على الإطلاق حتى الآن فى هذا المجال.

وهكذا فقد ردّت على هذا الرجل قائلة (هل أنت مجنون أم ماذا؟ فقبل أن تنادينى بذات المؤخّرة الممتلئة ينبغى عليك أولاً أن تكسب معركتك فأنت لم تقل بعد أى شىء فى أى موضوع فأنت بطولك هذا وعرضك هذا اللذين أراهما أمامى لن تستطيع أن تغلبنى).

قال (نعم أستطيع أن أغلبك يا بطتى).

قالت (يا صغيرى المسكين المدّعى المتفاخر يجب أن يكون المرء مجنونا ليعتقد أنه يمكنه مقارنة كفاءته بكفاءتى اسأل إذن كل هؤلاء الرجال الآخرين الواقفين حولنا وسيقولون لك من أكون).

قال (لست مدّعيا يا كتكوتتى فغالبا ما أنفذ كلامى).

قالت (يا لك من متبجّح متباه هل أنت فعلا تعتقد أنك لمجرّد إجادتك الكلام تكون قادرًا على تنفيذ هذا الكلام أنا أقول لك إنك لست بقادر).

أنا الراوى زجاج مكسور من حيث كنت جالسًا فى الطرف الآخر من المشرب أنظر إلى هذين الشخصين وأستمع إلى هذا الحوار الدائر بينهما اعتقدت لبعض الوقت أنهما يعرفان كلٌ منهما الآخر معرفة جيدة وأنهما فقط يدّعيان أمامنا أنهما غريبان عن بعضهما وأنهما يلعبان دورين فى تمثيلية فكاهية أو فى أحد مناظر المسرحية المعروفة (ثلاثة يتقدّمون لخطبة امرأة من زوجها) وهى على أى الأحوال من المسرحيات الفكاهية الممتعة وكان لدى هذا الشعور الذى يتأكد بمرور الوقت أنهما يعرفان بعضهما بعضا مثلما يعرف كل لصوص هذه المدينة وأفّاقيها بعضهم بعضا. إلا أنه كان هناك احتمال ضعيف أنهما لا يعرفان بعضهما بعضا وأن المسألة ليست تمثيلية فكاهية بقدر ما هى أن هذا الرجل المدّعى يحاول أن يلعب دور الرجل الشجاع الذى لا يهاب المخاطر رغم أن هذا الدور لا يناسبه شكلاً وموضوعًا فهو يقدّم نفسه كما لو كان رجلاً لا يقهر رغم أنه لا يعرف ما الذى ينتظره عند منحنى النهر.

ورغم كل ما قلته فإن الرجل كان يرتدى ثيابًا قد توحى فعلا بأنه شخصية مهمة، بذلة سوداء وقميص أبيض وربطة عنق حمراء مع زوج من الأحذية التى تلمع بطلاء ذى بريق. غالبًا هو يظننا فقراء معدمين متسولين صعاليك من أولئك الذين يقتعدون تراب الأرض من طبقة البروليتاريا من العمّال اليدويين الذين ينادى عليهم فى كل مكان (يا عمّال العالم اتحدوا).

لكنى فى الحقيقة لم أعرف كيف تمكن من الحصول على شعر بهذه النعومة؟ كيف حلّ عُقَد وفكّ تجاعيد شعره المجعد الأكرت؟ فى الحقيقة كان شكل شعره غريبا وهو بهذه النعومة واللمعان والبريق مشدودا كله إلى خلف رأسه فى مناخ هذا الموسم الصيفى

فنحن كنا فى شهر أغسطس. ولكنى أعرف كذلك أن المتأنقين لا يبالون بالمواسم ليست لديهم مواسم للتأنق فهم يتأنقون طوال العام أريد أن أقول إن شعر هذا الرجل سيكون لامعا بنفس هذا القدر من اللمعان حتى فى ظلام الليل. أعتقد الآن أن هذا الرجل كان يقضى الساعات الطوال أمام مرآته فى منزله لتحسين منظره وهندامه ومن المؤكد كذلك أن المشط الكهربائى الساخن المخصّص لتنعيم الشعر هو آلته المحبوبة المفضلة ومن المؤكد كذلك أن هذا الرجل يعتقد أن الشعر الناعم سيقربه من أصحاب الشعور الناعمة الآخرين أقصد من أفراد الجنس الأبيض المعبود ففى هذا البلد يعتقد البشر أن الشعر المجعد هو أكبر لعنة يمكن أن يصاب بها أى إنسان.

لاحظت كذلك أنه يدخن كثيرا مؤديا فى ذلك الحركات التقليدية للقوم المرفهين. عندما أراد أن يقدّم لنا نفسه قال (اسمى كازيمير ورغم أننى رجل مشهور وأن كل الناس تعرفنى فى كل مكان هنا وهناك إلا أنى ذكرت اسمى حتى يعرفنى أولئك الذين لم يكونوا يعرفوننى ثم إن شيئا لا يمنعنى أبدا من تحقيق مآربى ولو كنت قد توقفت عندكم هنا فى هذا المشرب اليوم فإن هذا ليس إلا لاحتساء كوب خمر هذا هو كل شىء ولكن يجب أن تعرفوا أننى لست معتادا على احتساء الخمر مثلكم أنتم المدمنين وذلك لأنى أبحث عن الحياة العظيمة). قلت فى نفسى (ما هذا الخراء؟ من هو هذا البنى آدم الذى يتحدّث إلينا بهذا الأسلوب؟ هل هو يدرك على الأقل فى أى مقلب مفخخ هو بسبيله إلى أن يغرز قدمه؟)

فى التو واللحظة شعرنا كلنا بكراهية هذا البنى آدم المدعو كازيمير والذى يدّعى أنه يعيش حياة عظيمة والذى يعتبرنا جميعا

من مدمنى الخمور لماذا لم يذهب إذن ليحتسى خمره فى مكان آخر؟ عند الرجال الآخرين الذين يعيشون حيوات عظيمة مثله؟ لماذا جاء إلينا؟ هل ليذكرنا فقط بأننا لسنا إلا مجموعة من البؤساء؟ مجموعة من المشبوهين؟ كانت روبينات محقة عندما قالت عنه إنه لم يذكر أى شىء عن أى شىء. قلت فى نفسى (هذا البنى آدم يستحق أن يُلَقّن درسا بل يستحق أن يحصل على عقاب شديد).

ثم ما هى هذه الملابس التى يرتديها والتى تجعله شبيها بكتاب المحاكم الشرعيين وموثقى العقود الرسميين ولحّادى القبور وقائدى الأوركسترات السيمفونية وفرق الأوبرا ذلك النوع الممل من الموسيقى والغناء الذى يدّعى كل الناس الذين يعيشون حيوات عظيمة مثل كازيمير أنهم يتذوّقونه مما يجعلهم يصفقون فى نهاية العزف والغناء رغم أنهم حتى لم يفهموا معنى الكلام الذى يُغَنّى، ثم ما هى هذه الموسيقى التى نكتفى بسماعها جلوسًا ولا نستطيع أثناء سماعها حتى أن نحرّك مؤخراتنا كى نقول للآخرين (انظروا كيف نرقص). ما هى هذه الموسيقى التى لا ينبغى عند سماعها أن نتنفس ولا حتى أن نفرك منطقة العانة فى أسفل بطن المرأة الجالسة إلى جوارنا لنجعلها تفكر معنا فى ذلك الفعل الحيوى المميت الذى ينبغى علينا القيام به عند نهاية الحفل.

أنا عندما كنت شابا صغيرا فى مثل سن كل أولئك الشباب كنت عندما أرقص مع امرأة أضع نفسى وأضعها معى فى تلك الحالة النفسية التى ينبغى أن تقودنا فى نهاية الرقصة مباشرة إلى الفردوس. كنت أعرف كيف أجعل تلك التى ترقص معى تشتعل بالرغبة إلى درجة أن تقفز بين ذراعىّ وتترك لى حرية اختيار كيفية

قضاء نهاية السهرة كنت راقصا جيدا وكنت أرى الملائكة تحملنى على أجنحتها. ولكنى فى الوقت الحالى لم أعد أرغب فى الحديث عن نفسى وذلك حتى لا يعتقد أحد أننى مصاب بجنون العظمة أو أننى شخص لم يكن يفكر إلا فى شهواته.

لقد قرر هذان الاثنان خوض غمار لعبة التحدّى وهكذا خرجت روبينات مع هذا البنى آدم إلى الفناء الواقع خلف المشرب لإعلان قيام حرب نهاية العالم بينهما. بالمناسبة فالفناء خلف المشرب يصلح لجميع أنواع الشجارات المخاتلة أى التى لا يعرف فيها أىٌّ من المتشاجرين السبب فى اندلاع الشجار فالناس يأتون إلى هنا للتفاهم بخصوص كل تلك المسائل المعلقة بينهم خاصة تلك المسائل المختلطة الملتبسة وفجأة يندلع الشجار لايعرف أحد كيف.

وهكذا وجد المتنافسان الاثنان نفسيهما وجهًا لوجه وقد تبعهما من داخل المشرب إلى الفناء كل شهود العيان الذين كانوا بداخل المشرب فى ذلك التوقيت ولم نكن فى الحقيقة إلا متلصصين ومتطفلين فضوليين وكنا ننتظر بفروغ صبر أن يسقط كازيمير فى الاختبار حتى يتعلم أخيرا التواضع ولذلك كنا نشجّع روبينات ونصفّق لها فى ذلك المكان القذر الذى لا نشم فيه إلا رائحة عفن بول كل القطط الضالة وعفن براز كل الأبقار المجنونة. خلع كازيمير سترته وفك ربطة عنقه وطواهما جيدا ووضعهما على أرض المكان فى أحد الأركان ثم بدأ فى تحديد موقع هدفه على الأرض بين قدميه اللتين كانتا لا تزالان داخل فردتى الحذاء الاستفزازى اللامع وهما الشىء الوحيد المتبقى من ملامح عياقته وقيافته. سألت نفسى من جديد (من هو هذا الأحمق؟ هذا البنى آدم الذى يشبه

وجهه ثمرة تين مهروسة سيتعلم اليوم درس حياته على يد روبينات عندما تهزأ به وتجعل منه موضع سخرية). وإذا بهذا المتبجّح يمرّر يده على شعر رأسه اللميع رغم قلة الإضاءة ليتأكد من حسن تسويته.

(٢٠)

بدأت روبينات فى خلع تنورتها وبأمانة تامة كان منظرها بعيدا عن أى إغراء يمكن لأى نجمة سينما أن تحدثه فى الجمهور بمجرد أن تجذب تنورتها إلى أسفل أو تخلع المشدّ أسفل التنورة، ثم رأينا مؤخرة روبينات الضخمة الشبيهة بمؤخرات الثدييات مفردات الأصابع(*) أى الثدييات ذات الأصابع المنفصلة بعضها عن بعض. ثم رأينا فخذيها الضخمين الشبيهين بأفخاذ الشخصيات النسائية فى فنون الرسم الساذج لقبائل جزر هاييتى فى البحر الكاريبى. ثم رأينا كذلك سمّانتى الساقين الشبيهتين بزجاجتى جعة من نوع بريموس. ثم يا للفضيحة! إنها لم تكن ترتدى لباسا داخليا لتغطية الجزء الأسفل من بطنها........ يجوز أنها معذورة لأنه لا يمكن أن يوجد المقاس المناسب لهذه المؤخرة الضخمة.

نفرنا منها بل كرهناها فى اللحظة التى تجشأت فيها ثم قالت (بعون الله ستكشف الحقيقة عن نفسها على ضوء هذا الفجر القادم). ثم فرّقت ما بين برجى التجارة العالميين (فخذيها) فرأينا منطقتها الجنسية فصفق كل الحضور ثم حدث انتصاب سريع لكل الأعضاء الجنسية الذكورية لجميع شهود الواقعة حتى أنا فالأمانة

(*) perissodactyle

تقتضى ذكر الحقيقة كاملة نعم انتصبت وذلك لأن مؤخرة امرأة هى دائما مؤخرة امرأة رغم كل شىء سواء أكانت كبيرة أو صغيرة أو ممتلئة أو مسطحة فتنتصب الأعضاء الجنسية أولا ثم يرى الرجال بعد ذلك ماذا سيفعلون. المقرف هو وجود بقع عديدة على جلدها منها بقع ذات لون داكن وأخرى بلون نبيذ البلح وبقع ثالثة بسبب إصابة سابقة بمرض الجدرى.

خلع كازيمير بنطاله فرأينا ساقيه النحيفتين اللتين تشبهان سيقان الطيور المائية من رتبة طويلات الساق ورأينا كذلك ركبتيه اللتين تشبهان العقد الجوردية التى تقول الأساطير إن الإسكندر الأكبر وحده كان القادر على قطعها بسيفه ثم رأينا لباسا تحتيا قديما بلون الطماطم الحمراء لم يخلعه تماما بل تركه معلقا عند الكعبين. هنا انفجرنا كلنا فى الضحك عندما رأينا عضوه الجنسى الذى كان ضامرا متآكلا يصح أن يسمى جزيئا دقيقا مثلما يقولون عند الحديث عن تركيب الذرة حتى أننا تساءلنا من أين سيخرج تبوّله البائس؟

ومع ذلك فهو لم يشعر بالخجل من نفسه وإنما عرض علينا هذا الجزىء الدقيق الذى لا معنى له معلقا فوق كريتين يغطيهما الشعر وقد تدلّيتا مثلما تتدلى ثمار شجرة الخبيز المعروفة باسم شجرة الكاكا أو الجاكا فى أحد المواسم الجافة قليلة المطر، وهكذا انشغل لحظة بدعك عضوه فى محاولة منه لزيادة حجمه فهو على أية حال صارى سفينته التى تقوده إلى النعيم الأرضى. الغريب أن كازيمير كان يتحدّث إلى عضوه بصوت خافت كما لو كان الساحر الفقير الهندى الذى يعزف على مزماره فيتحرك ثعبانه ويفرد طوله أمام حشد من السيّاح فى أحد الأسواق السياحية، حاول كازيمير

أن يعطى لعضوه حجما مزيفا ليس له ولم تكن هذه العملية سهلة خاصة وسط سخرية الشهود من حوله الذين كانوا يساندون روبينات على طول الخط ويحاولون بكل الطرق تشتيت جهوده هو.

ومع ذلك فقد حاول أن يسيطر على نفسه ويركز تفكيره وبدأ يتصرف كما لو أنه يقف وحده فى الفناء الخلفى وهى حيلة معروفة أن تتجاهل وجود العناصر السلبية ولكنه كان يدرك أيضا أنه فى الواقع يقف وحده فى معسكره ضد كل الآخرين فى معسكر الخصوم معسكر روبينات فأظهر بذلك ثقة قوية فى النفس وبدأ فى استعداداته بصفاء الذهن ونقاء السريرة اللازمَيْن للمحترفين فى هذا النوع من التحديّات وعاد إلى التعامل مع عضوه المتآكل أولا بهزّه وجذبه ثانيا بثنيه ومدّه لعل هذه الحركات تفيد فى تحفيزه على عملية التبوّل، وهكذا بدأت فعلا عملية التبوّل وهنا بدأت فعلا مباراة التحدّى.

وسّعت روبينات ما بين ساقيها مثلما تفعل كل الحيوانات من فصيلتها الحيوانية فصيلة الحيوانات من ذوات الجلد السميك أمثال الأفيال والخراتيت فاقتربنا منها أكثر فى نفس اللحظة التى أطلقت فيها صوتا قريب الشبه بصوت الأرنبة عندما تلد صغارها أو هو فى الحقيقة أقرب إلى صوت أنثى الضبع عندما تلد صغارها وكدنا باقترابنا أن نصاب برشاش من السائل الأصفر الساخن الذى اندفع من مثانتها كما لو أن كيسا مملوء بالماء ثقب ثقبا صغيرا فاندفع منه الماء ولكننا تراجعنا فى الوقت المناسب حتى لايصيبنا الرشاش. بالمقارنة ببول كازيمير المنافس المدّعى كان بول روبينات أثقل وزنا وأقوى اندفاعا وأبعد فى مرماه حيث يسقط.

أما بول كازيمير فكان يسقط على دفعات صغيرة مثل طريقة تبوّل حيوان الكانجارو الرضيع فى غابات أستراليا وسهوبها أو مثل تبوّل الضفدع الذى يريد أن يكبر حتى يصبح فى حجم فحل الجاموس أو الغراب الذى يريد أن يصبح فى حجم النسر كما حدث فى أساطير لافونتان. هذا بالإضافة إلى سقوط بول كازيمير متردّدا متعرّجا صانعا على التربة أشكالا شبه هيروغليفية قد تضايق شخص يدعى شامبوليون كان قد هرس ودهس سحائيات مادته المخية من أجل كشف أسرار رسومات تلاميذ مدارس رياض الأطفال على زمن الفراعين وغيرهم من المومياءات.

وقد سقط بول هذا البنى آدم المدعو كازيمير بشكل غير منتظم يوحى بأن صاحبه لا يمكنه التحكّم فيه وعلى بعد سنتيمترات قليلة من قدميه وقد أمتع أسلوبه هذا منافسته روبينات التى لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول (تبوّل...... يا فاشل......... يا من لا تصلح لأى شىء أهكذا ستقوم باعتلائى). استأنف المتنافسان التبوّل كل منهما بطريقته كما شاهدنا لمدة دقيقتين متصلتين وهى بمقاييس التبوّل مدة طويلة وكان من الواضح أن كلا من المتنافسَيْن مصممٌ على الفوز فرغم كل شىء تمكن كازيمير من البقاء على مستوى المنافسة فى حين أننى لو كنت مكانه لكنت قد أنهيت تبوّلى منذ فترة وأعدت عضوى المتآكل الضامر إلى جرابه ولكن هذا البنى آدم العنيد استمر فى رفع رايات النصر لمدة خمس دقائق أخرى مغمض العينين رافع الرأس إلى السماء وبدا لى كما لو كان يدندن بنشيد دينى أو بقدّاس كنسى سماوى وهو ما مكنه من البقاء فى حالة سكون وثبات وعدم اضطراب كما لو أنه بإغلاقه عينيه قد قام كذلك بإغلاق أذنيه عن

كل كلمات التهديد والوعيد ومحاولات الإثارة المتناثرة حوله والقادمة من المتجمّعين حول روبينات.

أضافت كميات جديدة إلى منسوب مياهها وزادت من قوة اندفاعها وهى تقول له (توقف عن محاولاتك اليائسة يا فاشل فأنت حتى لا تعرف كيف تتبوّل وأنا لعلمك ما زلت أحتفظ بكميّات إضافية فى مخزون مثانتى فانتبه وانسحب الآن بدلا من أن تصبح أضحوكة الجميع توقف الآن وسأسامحك لو قلت شكرا ووداعا) قال (تبوّلى وأنت صامتة أيتها الدجاجة السمينة إن المعلمين الحقيقيين لا يثرثرون وهم يتنافسون ثم لماذا تعتقدين أننى يجب أن أقول لك شكرا ووداعا لن يحدث هذا أبدا بل سأغلبك وسأعتليك).

ثم ضغط على بيضتيه المغطيتين بكيس الشعر فزاد بهذه الحركة من اندفاع مياهه ففركنا أعيننا حتى نصدّق ما نراه إذ أصبح هذا البنى آدم فجأة أكثر إقناعا بل المذهل أن حجم عضوه الجزىء الدقيق الذى كان فى البداية ضامرا متآكلا قد تضاعف فى الحجم عدة مرات فعدنا من جديد إلى فرك أعيننا غير مصدّقين ما نراه وقد انتفخ كذلك كيس الصفن المحتوى على البيضتين فأصبح أقرب شبها بنبات اليقطين أو بقربة ماء ممتلئة بنبيذ النخيل متدلية على جذع شجرة.

استأنف كازيمير التبوّل وهو ينضح بالبشر والحبور وتجلى ذلك فى الأغانى والأهازيج التى كان يصفّر ألحانها بفمه فى شبه احتفالية موسيقية فأولا هناك أحد الأناشيد القديمة المنتشرة بين الشباب من صُيَّع حى التروسان ثم ثانيا هناك لحن من موسيقى

الباروك وهى موسيقى أوروبا فى القرن ١٨ ومن أشهر مؤلفيها باخ وهاندل وفيفالدى ثم ثالثا صفّر بفمه لحنا للموسيقى الشعبى زاو[1] لجذب المزيد من الأنظار والأسماع إليه بهذا اللحن الشعبى.

فى تلك الأثناء كانت روبينات مستمرة فى عملها بهمّة ونشاط مما جعلها تتساهل بعض الشىء مع أجهزتها الهضمية فأصدرت من فتحة الشرج أصواتا وأخرجت من نفس المكان روائح اضطررنا معها إلى سد فتحات أنوفنا وإلى سد فتحات آذاننا وأنت بيدين اثنين لا تستطيع سد كل تلك الفتحات ولذلك فقد تراجعنا قليلا لأن الروائح كانت قوية جدا مثل روائح النفثالين المصنّع فى نيجيريا والمهرّب بطرق مخالفة للقانون أما الأصوات فكانت أقرب إلى أصوات مدافع الألعاب النارية فى سماء المدينة فى ليلة أحد الاحتفالات أو صوت آلات النفخ النحاسية فى مدينة الزنوج الأمريكية أى فى نيوأورلينز[2] .

وهكذا عندما كنا مشغولين فى تأمل المؤخرة الضخمة ضخامة مؤخرة الأفيال وهى الشهيرة بمؤخرة الآنسة روبينات جاء أحد الشهود من الطرف الآخر للفناء يبلغنا أن كازيمير يمرّ بمرحلة تحوّل مصيرية حاسمة وأنها معجزة تستحق مباركة بابا روما نفسه فاندفعنا كلنا إلى حيث يقف كازيمير لنرى ما يحدث عن قرب فإنه لا ينبغى أبدا تفويت فرصة مشاهدة معجزة حتى لو أنها ليست معجزة ظهور العذراء مريم فى مدينة لورد الفرنسية إذ ينبغى أن تكون شاهدا على المعجزة التى ستتحدث عنها الأجيال القادمة

(١) Zao

(٢) New Orleans

لقرون عديدة ومن الأفضل أن تكون شاهدا عليها عن أن تكون منصتا لما سيحكيه الببغاوات الآخرون عنها فيؤلفون لك روايات مثل تلك المسمّاة (الحب فى زمن الكوليرا) وهكذا اندفعنا نحو كازيمير لنشاهد معجزته التاريخية.

لم يكن ما وقعت عليه أعيننا قابلا للتصديق كان ينبغى فعلا أن نكون هنا أمام الحدث حتى نصدّق فقد تمكن كازيمير برشات بوله المتعرّجة تلك وبموهبة أكيدة من رسم خريطة فرنسا وتمكنت رشاته من السقوط فى قلب مدينة باريس قال (أنتم لم تروا أى شىء بعد فأنا يمكننى كذلك أن أرسم خريطة للصين وأجعل بولى يسقط فى قلب مدينة بكين). لم تكن روبينات المسكينة تتابع ما يحدث ولذلك استدارت نحونا قائلة (ماذا تنظرون هناك؟ هل أصبحتم كلكم فجأة من الشواذ جنسيا أم ماذا؟ أقول لكم عودوا جميعا إلى هنا). لكننا أصبحنا كلنا فى الواقع أسرى سحر غموض المنافس المجهول الذى بدأ منذ تلك اللحظة فى حمل اللقب الجدير به وهو لقب (رجل الجغرافيا) بدلا من لقبه القديم (المدّعى المتفاخر) وبدأنا فى التصفيق له دلالة على إعجابنا بأدائه المتميّز.

وبدا واضحا أن كازيمير يستمتع بهذه المباراة التى اعتقدنا فى بدايتها أنها منافسة غير متكافئة قال (أنا عدّاء المسافات الماراثونية الطويلة ال ٤٢ كيلومترًا ولست عداء ال ١٠٠ متر ثقوا فى قدراتى سأنهك هذه المرأة تماما ثم أعتليها) وعاد إلى الصفارة التى يستعمل فمه فيها ويخرج بها الألحان المتنوّعة من أناشيد الصياعة فى حوارى حينا الشعبى (التروا سان) إلى برنامج موسيقى الباروك المشهور فى أوروبا القرن ١٨، باخ وهاندل وفيفالدى لينتهى كما فعل سابقا باللحن المألوف للمغنى الشعبى زاو Zao .

وقد تناسبت زيادة تصفيقنا له طرديا مع اتساع خريطة فرنسا فكلما أضاف المزيد من التفاصيل الجغرافية والطوبوغرافية إلى الخريطة مثل تفاصيل أقاليمها وبيئاتها المختلفة ازداد تصفيقنا له قوامة وحماسة وعندما لاحظ بعضنا وجود رسم صغير إلى أسفل الرسم الكبير وقليلا إلى اليمين منه سأله أحد الشاردين الدائمين أى أحد دائمى الشرود - قائلا (قل لنا يا كازيمير ما هذا الشىء الصغير الذى رسمته إلى جوار خريطة فرنسا؟) فأجاب الفنان دون أن يوقف مرش البول (أيها الغبى إنها جزيرة كورسيكا) فصفقنا جميعا من أجل كورسيكا وللواقع والتاريخ كان من بيننا نحن الشهود من كان يستمع لأول مرة فى حياته إلى هذا الاسم (كورسيكا) لأنهم تهامسوا به فيما بينهم بلغط خفيف ولذلك سأله شاهد آخر من نفس مجموعة الشهود دائمى الشرود قال (ومن هو رئيس كورسيكا؟ وهل هو أبيض أم أسود؟ وأى نوع من الدول هى؟ وما هى عاصمتها؟). قمنا على الفور بطرد هذا الشاهد الشارد من بين صفوفنا قائلين له كلنا فى جوقة واحدة (أيها الشارد أيها الجاهل أيها الغبى).

من فرط حماسى لهذه المباراة وهذه المنافسة الشريفة التى مرت عليها حتى الآن عشر دقائق وجدت نفسى راغبا أنا الآخر فى التبوّل. هى لم تكن إلا رغبة بريئة فى تبوّل كميّة متواضعة من البول وهذا شىء طبيعى يعرفه الجميع أى أن الجميع يعرف أنه بمراقبة شخص يتبوّل تتولد لديك الرغبة الطبيعية فى التبوّل أنت أيضا وهو السبب الذى من أجله يطلب الأطباء فى المستشفيات بعد العمليات الجراحية والتخدير ترك الصنابير مفتوحة فى حجرات المرضى الذين نريد تحفيزهم على التبول.

(٢١)

فى تلك الأثناء حدث أن أحد الشهود الذى كان ملاصقا لردفىّ روبينات ولم يرفع عنهما عينه أخرج فجأة عضوه من بين فتحة بنطاله وبدأ فى دعكه بعصبية ثم سمعنا فورا خواره الدال على الوصول إلى قمة اللذة بعد أن كان قد توارى قليلا إلى الخلف وبدا لنا خواره شبيها بخوار تلك الخنازير التى نذبحها فى أعياد الأضاحى. هنا قالت روبينات (إذا كانت المسألة هكذا فأنا سأتوقف لأنى لا أستطيع أن أعمل فى مثل هذه الظروف من تعتقدون أننى أكون؟ هل أنا من النوع الذى يضايق الناس أثناء عملهم؟ لقد انتهى العرض). استدار الجميع نحوها وقد توقفت فعلا عن التبول وادّعت أننا السبب فى توقفها لأنها بمثل تلك التصرفات الصبيانية التى تحدث خولها التصرفات الجديرة بتلاميذ المدارس لم تعد تستطيع التركيز فى عملها.

ورغم ضيقها إلا أنها تصرفت بلباقة وكياسة تجاه منافسها كازيمير فاتجهت نحوه ولمست عضوه بحنيّة ثم قالت له (كانت هذه المباراة عادلة يا صديقى أليس كذلك؟ وقد انتصرت فعلا فى معركة اليوم لأنك متبوّل حقيقى والآن سنذهب سويا إلى المكان الذى يمكننا فيه أن نرى إن كان قذفك لسائلك المنوى على نفس قدر كفاءة تبوّلك أى أن السؤال هو هل تقذف سائلك المنوى بنفس الكميات ولنفس المدد الطويلة كما تفعل فى التبول؟ عليك أن تحدّد الزمان والمكان المناسبين لك وسأكون هناك).

صفقنا لها جميعا لأنها كانت تتعامل بروح رياضية تتقبل الهزيمة وكانت تلك هى المرة الأولى التى نرى فيها روبينات مهزومة،

تستسلم بهذه الطريقة رافعة رايتها وتقترح بطريقة غير مباشرة وقفا لإطلاق النار. حدّد الاثنان موعدا فى واحدة من تلك الحجرات التى تستأجر لمثل هذا الغرض وتقع فى ميدان الاحتفالات بحىّ الترواسان وكنا جميعا نحن الشهود قد أبدينا استياءنا وقررنا التوقف عن الاهتمام بمتابعة الأحداث لأن المتنافسَيْن قررا أن يكون لقاؤهما بدون شهود. كنا نفضل لو أن كازيمير الذى لا يقهر كان قد تمكن من فعل هذا الآن أمامنا.

تركناهما أمام المشرب وهما يوقفان سيارة أجرة للذهاب بها إلى حجرتهما الموعودة وعدنا إلى داخل المشرب وقد خاب أملنا ولم نعرف أبدا بعد ذلك ما الذى حدث بينهما بالضبط فى تلك الحجرة الموعودة فنحن لم نر أبدا بعد ذلك البنى آدم المدعو كازيمير أما روبينات فهى مستمرة فى المجىء إلى المشرب بين وقت وآخر وقد أعلنت أنها لن تخبرنا على الإطلاق بأى تفاصيل إضافية بخصوص ذلك الموضوع. أعتقد فى رأيى الشخصى أنها قد نالت علقة ساخنة من كازيمير عندما اكتشف أنها فى الفراش ليست على نفس المستوى الذى تدّعيه فإذا لم يكن هذا هو فعلا ما حدث فى الواقع لكانت قد صدّعت رؤوسنا كعادتها بالحديث عن تفاصيل المعركة التى انتصرت فيها فى الفراش على كازيمير الذى انتصر عليها فى معركة التبوّل.

إن فكرة امتطاء روبينات ليست فكرة سيئة على الإطلاق بل فى الواقع إنها تعجبنى إلى حد ما فأنا منذ مدة طويلة لم أحصل على امرأة وكما يقول المثل إذا لم يكن هناك سمّان (وهو طائر به لحم يؤكل) يمكن الاكتفاء بالشحارير (وهو طائر قليل اللحم). أنا لا أعرف حتى إذا كنت أستطيع أن أصمد أمامها إلى النهاية لأن

النساء أمثال روبينات يمكنهن مفاجأتك بهزات جماع مثل الهزات الأرضية فى حالة الزلازل فيجب بالتالى أن ترمح معها كالحصان وأن تضربها وتلسوعها بسوط رغباتك حتى تنتهى بها إلى أن تزقزق معك كعصفور صغير.

فى النهاية لقد رفضت هذا العرض غير المحتشم الذى اقترحه علىّ صديقى الحلزونى بخصوص هذه المرأة لسببين أولهما اعتقادى فى عدم قدرتى وثانيهما هو أننى لا أتخيل إمكانية أن أعتلى نفس المرأة التى يعتليها صديقى طالما أن صورته وهو يعتليها مسيطرة على ذهنى، صورته وقد أخذها ثم بدأ فى الارتجاج مثل أرنب أصابه مرض الصرع. ثم من يضمن لى أن المدير لن يشعر نحوى ببعض الغيرة فأنا قبل أى شىء آخر فى الحياة لا أريد أن يحدث أى تشويش يمكنه أن يعكر صفو صداقتنا صفو صداقتى مع من أعتبره أخا لى. ثم هناك سؤال مهم وهو: هل ستتركنى روبينات أعتليها؟ بشكلى هذا الذى يشبه ممسحة الأرضيات والأسقف؟

ثم بالإضافة إلى كل هذا هناك مشكلة فنيّة عويصة مشكلة فنية تتعلق بحجم أعضائى بالمقارنة بأعضاء روبينات فأنا لا أعتقد أن حجم أعضائى يناسب حجم أعضائها. مثلا بالنظر إلى حجم ردفيها الزائد تماما عن الحدود المعقولة أنا متأكد من أننى سأظل نهارا بطوله أبحث عن النقطة (ج) فى المنطقة المتسعة الممتدّة بين فخذيها وقد أصل بصعوبة إلى النقطة (ب) وقد لا أصل أبدا ثم يجب أن أتأكد من النقاط الأخرى (أ) (ت) (ث) (ح) (خ) حتى أتأكد من موقع النقطتين (ب) و(ج) بالنسبة إلى بقية النقاط. ولهذا فهى لن تكون راضية أبدا عن أدائى ولهذا يجب أن أتوقف تماما عن التفكير فيها.

فى الحقيقة أعتقد أننى بوصولى إلى هذه المرحلة من الكتابة فى كراساتى فإن أكثر ما أحتاج إليه هو بعض الراحة أنا لا أريد أن أكتب كلمة إضافية واحدة خلال فترة من الزمن أريد أن أشرب وألا أفعل أى شىء آخر عدا الشرب الاحتساء البلع أن أبلع جرعات متتالية من الخمر فقد ظللت خلال بضعة أسابيع ألهث وراء الكلمات حتى انقطع نفسى. ثم إن هناك من بين جمهور المشرب من يسخر منى ومن مجهودى فى الكتابة مهنتى الجديدة! وهناك من بينهم من يشيع أننى أذاكر فى كراساتى تلك استعدادا لدخول امتحان قد يسمح لى بالعودة إلى ممارسة مهنة التدريس! وقد ادّعوا أننى لنفس هذا السبب قد أتوقف عن الشرب بل حتى قد أتوقف عن مجرّد المجىء إلى المشرب ولكن كل هذا كلام فارغ. بالله عليكم كيف يمكننى أن أعود إلى مهنة التدريس وقد بلغت من العمر أرذله ٦٤ سنة.

على أى الأحوال ينبغى لى أن أحصل الآن على قدر من الراحة وألا أكتب سطرا واحدا إضافيا وألا أعيد قراءة سطر واحد مما سبقت كتابته وهكذا يمكننى فيما بعد هذه الإجازة أن أبدأ من جديد ولا أعرف الآن متى بالضبط سيكون هذا ولكنى من المؤكد سأبدأ من جديد يوما ما فأنا أريد أن أبذل كل ما يتبقى لى من طاقة فى إنجاز هذه المهمة وعندما أنتهى تماما من هذا الكتاب سأذهب بعيدا لا أعرف إلى أين ولكنى سأذهب بعيدا ولن أهتم فى تلك الحالة بما يمكن أن يقوله عنى الحلزونى العنيد فسأكون فى تلك الحالة بعيدا جدا عن (لو كريدى).

مجموعة الوريقات الأخيرة

(٢٢)

اليوم هو آخر يوم رمادى اللون وأحاول جاهدا ألا أكون حزينا جدا فروح أمى المسكينة ما زالت تطوف فوق المياه الرمادية لنهر تشينوكا الذى سقطت فيه فجرفتها مياهه. كانت تقول لى دائما إنه لا ينبغى أن نترك العنان للحزن والكآبة لقيادتنا فى الحياة فهناك فى مكان ما فى هذه الحياة تنتظرك فرصتك وينتظرك شخص سيهمّه أمرك. أنا أجلس فى ركنى هذا منذ الساعة الخامسة صباحا أراقب من على بعد كل تلك الأحداث فأن تكون على بعد هو أفضل وضع ممكن لرواية الأحداث. وهأنذا قد أنهيت الجزء الأول من هذه الكراسات منذ أربعة أو خمسة أيام. وهأنذا أبدأ الجزء الثانى.

أجد نفسى مبتسما عندما أطالع بعض صفحات الجزء الأول التى تنتمى الآن إلى زمن مضى رغم أنه لم يمض إلا منذ فترة وجيزة وأتساءل فى أعماقى هل أستطيع أن أكون فخورا بما كتبته؟ فى الحقيقة أننى عندما أعيد قراءة بعض الأسطر أشعر بقدر من الإحباط بدلا من الشعور بالسعادة والفخر فليس هناك فيما كتبته

ما يؤجج المشاعر أو يلهب العواطف فى الحقيقة إن ما كتبته يثير أعصابى ولا أستطيع أن ألوم فى هذا أى شخص آخر عداى. أشعر الآن بنفسى ضعيفا أشعر وكأن لسانى أصبح ثقيلا أو كأنه مغطى بطبقة من العجين كما لو أننى كنت أمس قد أكلت طبقا من لحم الخنزير المطبوخ مع الموز الأخضر مع أنى فى الواقع لم آكل أى شىء منذ أمس.

تركت نفسى هكذا أتراجع أمام موجة مدّ من أفكار سوداء كأمواج بحرية سوداء تغزو سكينتى وتسكننى بل إننى تساءلت بينى وبين نفسى إن لم يكن مجديا الآن كتابة وصيّتى؟ فى الواقع أنا لا أستطيع أن أتحدّث عن وصية إذ لا توجد أية ثروة هناك ليرثها الورثة لا ثروة لدى أتركها لأحد من بعدى لا تركة هناك على الإطلاق كل هذا التخريف ليس إلا أضغاث أحلام ولكنها من نوع الأحلام التى تجعلنا نتمسّك بالحياة رغم أنها حياة غادرة ففى الواقع ورغم هذا العمر الذى بلغت أرذله إلا إنى ما زلت أحلم بالحياة ولم أكن أبدا طوال حياتى على هذه الدرجة من صفاء الذهن ووضوح الرؤية.

تمرّ الأيام بسرعة رغم أنه غالبا ما يتولد لدينا شعور بعكس ذلك طالما ظللنا جالسين هكذا لا نفعل أى شىء بأيامنا ننتظر لا أعرف ماذا ونشرب ثم نشرب حتى نصبح أسرى الإحساس بالدوار والغثيان وحتى نرى الأرض تدور حول نفسها ثم تدور حول الشمس، أنا لم أكن قد صدّقت أبدا هذه النظريات العلمية رغم أننى كنت أكررها أمام تلاميذى عندما كنت لا أزال رجلا كبقية الرجال أى عندما كنت أمارس مهنة فى الحقيقة كيف يستطيع

الإنسان أن يكون مستنيرا وهو يستطيع أن يروى أكاذيب على هذا القدر من الجسامة؟ أنا عندما أحتسى كؤوسى ثم أجلس راضيا قرير العين عند مدخل المشرب لا أصدّق أن الأرض التى أراها ثابتة أمامى يمكنها أن تكون مستديرة ويمكنها أن تسلى نفسها بالدوران حول نفسها ثم تسلى الشمس كذلك بالدوران حول الشمس.

كأن الأرض ليست لديها أشياء أخرى أكثر أهمية فتقضى كل وقتها فى الدوران وتفضى بنا إلى الإحساس بالدوار. أريدكم متى حدث ذلك أن تقولوا لى حتى أبدأ فى ملاحظتها وهى تدور. فى أية لحظة بالضبط يحدث لها هذا؟ أن تدور حول نفسها ثم تذهب بعد ذلك لتدور حول الشمس! يجب أن نكون واقعيين ويجب ألا نترك هؤلاء المفكرين يستغلوننا فهم منذ بضعة قرون لا أكثر كانوا يحلقون ذقونهم بقطعة غير مصقولة جيدا من حجر صوّان.

فى الواقع إنه يمكننا التمييز بين نوعين مختلفين من هؤلاء المفكرين فمن ناحية كان هناك أولئك الذين كانوا يستحمّون فى أحواض استحمام وهم يصدرون أصواتا قبيحة من مؤخراتهم ثم فجأة يصرخ الواحد منهم قائلا (وجدتها... وجدتها) ولكنهم لا يقولون ماذا وجدوا بالضبط ثم إنه كان عليهم الاحتفاظ بما وجدوه لأنفسهم فأنا مثلا كنت كثيرا ما أغطس بجسمى فى نهر تشينوكا الذى قتل أمى وسحب جثتها فى مياهه ولم أكتشف أبدا أى شىء مثير للاهتمام فى تلك المياه الرمادية القذرة حتى أننى لست متأكدا من إمكانية تطبيق قوانين الطفو على مياه ذلك النهر وذلك لأن هناك الكثير من الجثث التى تغوص فى مياهه ولا تعود أبدا بعد

ذلك إلى الطفو على السطح من جديد كما ينبغى أن يحدث لها حسب تلك القوانين لتندفع بطريقة رأسية من أسفل إلى أعلى. هذا لا يحدث. ولهذا السبب فكل قمامة حيّنا التى يقذف بها أهلنا فى النهر تغوص فى القاع ولا تعود إلىّ الطفو من جديد، فليقل لى أحدكم كيف تنجح هذه القمامة فى الإفلات من قانون الطفو لأرشميدس عليها؟

ثم هناك كذلك الفئة الثانية من المفكرين المستنيرين الذين كانوا فى حالة بطالة دائمة عن العمل، وكانوا لا يصلحون لأى شىء فى هذه الحياة ولذلك فهم كانوا دائمى الجلوس تحت شجر التفاح القريب من الناحية فى انتظار أن يتساقط التفاح فوق رؤوسهم لاختراع قصة الجاذبية الأرضية دون بذل أى مجهود يذكر من طرفهم. أنا ضد كل هذه الأفكار الجاهزة التى نملأ بها رؤوسنا دون أن نتعب هذه الرؤوس بالتفكير فى مدى صحتها، وأنا أقول لكم إن الأرض مسطحة مثل شارع الاستقلال الذى يمر أمام المشرب ويبدو لنا هو الآخر مسطحا وليس هناك ما يمكن إضافته إلى هذه المسألة وأنا أدّعى أن الأرض لا تتحرك بتاتا بل أرى أن الأرض ثابتة إلى درجة محزنة تدعو إلى الرثاء وأن الشمس هى التى يمكن اعتبارها كائنا مهتاجا لا يثبت على حال وفى حالة دوران دائم فأنا أراها تستعرض نفسها كل يوم فوق أسطح المنازل وفوق سطح مشربى المفضّل (لو كريدى) ولم أعد أريد أن أستمع إلى أى شخص يأتى ويحكى لى قصصا خرافية إذ سيكون جزاؤه هو قطع الرأس فى التوّ والحال حتى لو قال قبيل إعدامه (ومع ذلك فهى تدور) مثلما فعل جاليليو أمام قضاته.

(٢٣)

أنا لا أعرف لماذا لم أحدثكم حتى الآن عن القصة القصيرة للمدعو مو بيه كيه وهو من البشر الذين ترددّوا على هذا المشرب لفترة من الوقت ثم لم يعد يحضر إلى هنا لأسباب يمكن فهمها بسهولة. لا أستطيع أن أتجاهل قصته ولا أستطيع إبعاده عن هذه الكراسة حتى لو أنه لم يكن إلا ضوء برق لمع للحظة قصيرة فى سماء هذا المشرب، فى الحقيقة أنا أحب مثل تلك الشخصيات التى تسير فى حياتها على هذا المنوال التى بالكاد نراها تمرّ أمامنا للحظة مثل الكومبارس الصامت فى الأفلام السينمائية يظهرون فى بعض اللقطات دون أن ينطقوا بحرف واحد أو مثل الظلال السوداء التى تقع على حائط أبيض تمرّ خلفك دون أن تراها وعندما تستدير لتنظر إلى هؤلاء البشر الذين تركوا ظلالهم تسقط على الحائط أمامك تجدهم قد اختفوا.

فهناك مثلا هذا الشخص المدعو هيتشكوك الذى كان يظهر خلسة فى أفلام من إخراجه بدون حتى أن يدرك وجوده أغلب المشاهدين فيهمس لك المثقف الجالس إلى جوارك فى أذنك (انظر أيها المغفّل هناك فى ركن الشاشة إلى أقصى اليسار حيث ذلك الرجل المنحنى قليلا صاحب الذقن المزدوج الذى يعبر المنظر مرورا خلف الأشخاص الآخرين إنه هيتشكوك نفسه). لكن مو بيه كيه ليس طبعا من نفس قامة عبقرى السينما هذا إذ لا يجب أن نبالغ عند إجراء المقارنات فهيتشكوك فى حجمه الطبيعى كان شخصية موهوبة، شخصية قادرة على جعلك ترتجف فقط باستعمال منظر لبعض الطيور أو منظر لنافذة مفتوحة على فناء كان قادرا على

جعلك تغوص فى أعماق النفس البشرية المريضة باستخدام أساليب بسيطة ولكن بطريقته العبقرية المعهودة. فى حين أن القصة المتعلقة بمو ييه كيه تجعلنى أكثر ميلا إلى الرغبة فى الضحك منى إلى الرغبة فى الارتجاف ومع ذلك فأنا ليست لدىّ أية مشاعر شفقة تجاهه وذلك لأنى لا أحتمل النصّابين المخادعين الذين لا يتحلون بقدر كاف من العبقرية أو حتى مجرد بعض الذكاء وبعض الشخصية.

يقال إن مو ييه كيه قد تم أخيرا عتقه من ربقة السحر الشرير الأسود إذ كان قبل ذلك يدّعى أنه ينتمى إلى طائفة من السحرة العظام القادرين مثلا على إيقاف سقوط المطر من السماء أو على إعادة ضبط درجة حرارة قرص الشمس أو على التنبّؤ بنتائج مواسم الحصاد أو على قراءة الأفكار التى تدور فى رؤوس الآخرين أو على إيقاظ أرواح الموتى كما فعل المسيح الذى قال ذات مرة بقوة وشموخ إلى جثة بائسة باردة هامدة كانت قد دفنت قبل ثلاثة أيام (لعازر استيقظ واخرج خارج القبر وامش).

بخصوص هذه العودة إلى الحياة يجب أن نقول إن هذه الجثة البائسة كانت تشعر بخوف شديد من السيد المسيح وبخوف أكبر من أبيه ربّ المسيحيين الذى يختفى هناك فى الأعالى مختبئا منذ أزمنة سحيقة بين ركام السحب يراقبنا أثناء ارتكابنا الشرور وأثناء تكدّس هذه الشرور فى سجلاتنا فى حين أنه كان يستطيع أن يساعدنا على تجنّب ارتكاب مثل هذه الشرور بعملية إنقاذ بسيطة يتم تكليف الروح القدس بإنجازها ولكن الرب الكائن فى الأعالى الذى يتمكن من رؤية منظر بانورامى إجمالى شامل لكل البشر

المساكين أثناء ارتكابهم شرورهم ينشغل بدلا من عملية الإنقاذ تلك بتسجيل كل تفاصيل الذنوب التى نرتكبها بحرص ودقة شديدين فى دفاتره استعدادا ليوم الحساب العظيم.

عندما تحدّث يسوع باسم أبيه المختفى فى الأعالى استيقظت الجثة البائسة للعازر قافزة من مكانها وقد بدأ هذا المكابى (وهى جنسية لعازر الذى ينتمى إلى المكابيين) فى الارتجاف من الرعب بسبب صوت الرب. ورغم أن النصوص الدينية تقول إن إرادة الرب لا يمكن تغييرها وإن طريق الرب لا يمكن اختراقه ومع ذلك فإن لعازر الذى كان قد اخترق بعضا من طريق الرب لأنه كان قد مات منذ ثلاثة أيام أقام خلالها لدى الموتى وبدأ السير فى الطريق المؤدّى إلى الأبدية اضطر إلى العودة من نفس الطريق، عندما خرج لعازر من قبره سار على الأرض بطريقة شبيهة بما يحدث من عرائس الماريونيت التى يحركها الناس بواسطة خيوط مربوطة إلى أطرافها.

كان مو ييه كيه يقول إن معجزات المسيح لا تعتبر معجزات حقيقية بالنظر إلى ما يمكنه هو مو ييه كيه أن يقوم به من معجزات ففى طرفة عين مثلا يمكنه أن يحوّل بول القط إلى نبيذ من نوع نبيذ سوفينكو الأحمر الفاخر وأن يعطى أطرافا من سيقان وأذرع إلى من فقدوها فى حوادث طرق أو فى عمليات بتر جراحية، كان يقول إن معجزات المسيح التى ننبهر بها لا يمكن أبدا أن نتأكد من صحتها هم ملأوا رؤوسنا بها منذ قرون طويلة كما لو أن كل البشر كانوا لا يزالون أطفالا فى سن الحضانة، لكن يبدو أننا الآن فى أيامنا هذه يمكننا أن نناقش هذه المعجزات وأن نتشكّك فى

تصديقها. ثم إنها لم تكن أبدا محل إجماع الآراء حتى بين المؤمنين المتشدّدين.

ووفقا لكلام مو ييه كيه يجب أن نكون حريصين جدا أثناء معالجتنا لتلك المعجزات إذ ينبغى أن نتعامل معها بالملقاط كما ينبغى أن يكون تعاملنا مع الأشياء القابلة للكسر أما معجزاته هو مو ييه كيه فيمكن أن يجريها أمامنا حتى نتأكد منها جميعا دون الحاجة إلى الاستعانة بنصوص إنجيلية كتابية تعود إلى أزمنة عتيقة حين لم يكن للرجال من مواد يكتبون عليها إلا الألواح الحجرية البدائية المتآكلة مثل تلك التى تلقوا عليها الوصايا العشر التى بالكاد همس بها لهم الرب وهو مستمر فى توّخى الحذر فى اختبائه خلف طبقات من ركام السحب كالمعتاد.

من جهة أخرى لم يعد البشر يحترمون أيا من تلك الوصايا العشر بل إنهم فى الغالب يعتقدون أن الأكثر إثارة للاهتمام والأجدر بالفعل هو التلاعب بهذه الوصايا وبدلا من أن يقضى البشر العمر كله فى محاولة اتباع العمل بهذه الوصايا وفى ملاحظة تنفيذها إذا بهم يجعلون من عالمهم عالما لا يعيش سكانه إلا وهو يحيطون أنفسهم بكل ما يدعو إلى الإثارة الجنسية ولا تتحكم فيهم إلا الرغبات الغريزية ووسائلهم إلى تلك الإثارة وإلى تحقيق تلك الرغبات أصبحت فى متناول أيدى الجميع. إنه العالم الذى لم يعد فيه للإخلاص بين الزوجين أى معنى، إنه العالم الذى أصبح فيه الزاهدون من رهبان ونسّاك الصحراوات يغارون من وسائل المتعة والإثارة الجنسية التى يتمتع بها أولئك الذين يعيشون الحياة الحديثة غير زاهدين فى شىء. إنه العالم الذى لا تحكمه إلا

الرغبات الجنسية ومشاعر الغيرة بين الناس، إنه العالم الذى يقتل فيه بعض البشر بالإعدام بالكرسى الكهربائى رغم أنه مكتوب فى الكتب المقدّسة (ينبغى ألا تقتل أبدا أى إنسان). بهذه الطريقة كان مو ييه كيه يتحدّث بكلمات قاسية عن كتاب أورشليم المقدّس إذ إنه لم يكن يرغب فى تقديم أية هدايا عيد ميلاد أو أية تنازلات أخرى لا إلى من يدّعون أنفسهم رجالا للرب ولا إلى قادة جيوشه من الرتب العسكرية المختلفة.

قال لنا مو ييه كيه ذات يوم:

(إخوانى الزنوج أصدقائى الأعزاء ألم تفكروا أبدا فى هذه الظاهرة العجيبة لماذا يكون كل ملائكة الرب الذين تتحدّث عنهم كتبه المقدّسة هم من الجنس الأبيض؟ ألم يكن فى إمكانه أن يضع على الأقل واحدا أو اثنين من الزنوج بين الملائكة؟ على الأقل كنوع من تطييب خاطر زنوج الأرض الذين فهموا الآن هذه اللعبة لعبة توزيع الأدوار، الأدوار التى وزعت على الجميع عداهم فكلى القدرة لم يعمل لهم أى حساب وكلى القدرة قد أساء الاختيار عندما منحهم هذا اللون الأسود ولهذا بالذات فهم يرفضون تغيير أوضاعهم البشرية المزرية وذلك لأنهم فهموا أن لا أمل لديهم على الإطلاق مهما حاولوا)...........

(ليس فقط أنه لا يوجد فى الكتب المقدّسة ملائكة سود البشرة بل إن المسألة أكبر من ذلك إذ إنك عندما تقرأ تلك النصوص تلاحظ على الفور التحامل الشديد على السود وعلى اللون الأسود ففى تلك الكتب لا يظهر اللون الأسود إلا عندما يتعلق الحديث بالشياطين أو بأفعالهم الشيطانية السوداء فالسود دائما

هم الشياطين وهم الشخصيات الغامضة المبهمة المظلمة الظالمة. حتى بين حواريى المسيح ليس هناك أسود واحد وهذا رغم كل شىء أمر مدهش ومحيّر ولا يمكن لأى شخص أن يحاول أن يوهمنا بأنه أثناء وقوع الأحداث الكبرى فى الكتاب المقدّس لم تكن هناك أية فرصة حتى يقوم أى شخص أسود بلعب أى دور مهم فى تلك الأحداث)...........

(لكل ذلك فأنا أفهم الرجال البيض وأعذرهم فهم لم يكونوا مخطئين عندما لم يعطوا للسود هنا فى هذا العالم الأرضى إلا المهن الحقيرة مثل مهنة منظفى مداخن المنازل حيث إن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنهم فى العالم السماوى لا وجود لهم على الإطلاق......... لا وجود لهم على الإطلاق).

كنت أنا زجاج مكسور عندما أنصت إلى كل هذا الكلام الذى يوحى بأن قائله متعلم ومثقف وقارئ مطلع على الكتب أجد أنه من الغريب أن يصدر من شخص وثنى طوطمى أقصد من شخص يعبد الطواطم مثل التماثيل الخشبية وجذوع الأشجار فالطوطميون تكون ثقافتهم العامة غالبا محدودة جدا وهذا الكلام جدير برجل من مثقفى الثقافة الحديثة فى الجيل الحالى ممن يرتدون ربطات العنق ويستعملون النظارات الطبية بالإطارات المستديرة. ولكنى يجب أن أوضّح أنه ليس بسبب هذه الأفكار كان دخول مو بيه كيه السجن بل بسبب عمليات النصب العديدة التى كان ضالعا فيها.

(٢٤)

إنه شخص حقير نفسيا وقبيح المنظر جسمانيا له عضلات بارزة وله عين ذات نظرة دموية ثم عندما تراه تتساءل (كيف يمكن

لشخص أن يبدو إلى هذا الحد قذرا؟) يبدو أن المثل الذى يقول (إن صانعى الأحذية هم أسوأ الناس فى اختيار أحذيتهم) هو مثل صحيح وذلك بالنسبة لكون مو ييه كيه شخصا طوطميا كان يمكنه أن يلحّ على آبائه الروحيين من السحرة أن يحصلوا له بطرقهم السحرية على ملابس لائقة حتى لو لم تكن الأزياء من تصميم إيف سان لوران كما كان الحال مع رجل المطابع أو أن يطلب من آبائه أحذية من النوع اللمّيع كما كان الحال مع كازيمير. كان مو ييه كيه يخطط لعمليات نصب يكون ضحاياه فيها عادة من شرفاء الناس الذين يتميّزون بقدر من السذاجة فيسلمونه يدا بيد مبالغ مالية ضخمة، وفى يوم محاكمته فى محكمة الجنح أمام قاض عجوز كان هو المسئول عن إدارة الجلسة وقد أراد أن يحاصره ويحرجه.......

قال القاضى (إننا لن نلف وندور معا فى حلقات مفرغة فالمسألة تبدو لى واضحة تماما كما لو كنت أنظر فى بللور زجاجى قل لنا يا مو ييه كيه ما هو حجم المبالغ التى أعطاك إيّاها ضحاياك؟)

فأجاب (سيدى القاضى أنا لست واحدا من صغار عبدة الطواطم المحليين وإنما أنا لى اسمى الدولى وسمعتى الدولية ولذلك فقط هم قد أعطونى مبالغ ضخمة جدا حقا لقد كانت المبالغ ضخمة جدا وذلك لأنى أستحق هذه المبالغ المعطاة لى وهو ما لا يمكن أن يكون متاحا لعبدة الطواطم الآخرين)

قال القاضى (ماذا تقصد بالمبالغ الضخمة؟ فلنكن أكثر تحديدا فيما يتعلق بالأرقام فهنا ليس هو المكان المناسب للسخرية

من الناس هل تعرف أنه يمكننى أن أسجنك فى الحال لو تماديت فى لعبتك الصغيرة تلك معى؟).

مو بيه: (نعم يا سيدى القاضى أعرف).

القاضى: (إذن لتجب على سؤالى بدون مراوغة كم دفع لك هؤلاء الناس الشرفاء؟).

تمتم المتهم (كانت الاستشارة تكلف الواحد منهم مليونا من الفرنكات المحلية).

ظل القاضى صامتا لبعض الوقت كأنه كان يحسب فى دماغه الحجم الإجمالى للمبالغ الكلية التى حصل عليها هذا النصّاب ثم عندما تحدّث من جديد بدا على ملامحه أنه لا يصدق الأرقام أو أنه على وشك أن يترك عاصفته تهبّ على المتهم.

قال القاضى (ولكن ماذا كان عليك أنت أن تفعل بالضبط مقابل الحصول على تلك المبالغ الطائلة؟ مليون فرنك محلى من كل شخص؟ من يستطيع أن يدفع مثل هذا المبلغ؟).

مو بيه: (سيدى القاضى كان ينبغى علىّ مساعدتهم فى تجارتهم كان ينبغى علىّ أن أصنع لهم الطواطم التى تجلب لهم الحظ لتسير تجارتهم سيرا حسنا وتتحسّن أحوالهم الحياتية قل لى أنت كم يبلغ فى رأيك عدد الناس فى بلدنا هذا القادرين على صنع مثل تلك الطواطم التى تحول حيوات الآخرين إلى طريق السعادة أقولها لك للأسف أنا الوحيد من هذا النوع فى هذا البلد).

كاد القاضى أن يضحك هازئا ثم قال (إذن فأنت تساعد الآخرين. أسألك من تعتقد أن أكون؟ هل أبدو لك على هذه الدرجة

من السذاجة؟ فإذا كنت تصنع طواطمًا تجلب الحظ لغيرك فلماذا لا تصنعها لنفسك وتجلب الحظ لنفسك وتكون غنيا مثلهم؟ هل نظرت إلى نفسك فى المرآة ورأيت كيف تكون؟ إذا حكمنا عليك بمظهرك لقلنا إنك من المؤكد تعيش كل وقتك فى مزيلة أو مقلب قمامة مع الكلاب وبقية الحيوانات).

أجاب مو ييه كيه على الفور دون أن يفقد المظهر الجاد الذى احتفظ به حتى تلك اللحظة وهى مقدرة خاصة يتمتع بها النصابون المحترفون (سيدى القاضى إن الطواطم هى فقط لمساعدة الآخرين وهو ما كان أسلافى يقومون به وهو ما تركوه لى كميراث حضارى وكإرث مادى).

القاضى: (نعم ولكن فعل الخير لنفسك أولى من فعل الخير للآخرين فأنا إذا كنت مكانك لبدأت بنفسى وحوّلت حياتى أنا إلى طريق الثراء والسعادة والنجاح ونحن لا يمكن أن ندّعى أن حياتك هى نموذج للنجاح).

بعد لحظة تفكير قال مو ييه (سيدى القاضى هل سبق لك أن رأيت طبيبا يجرى لنفسه عملية جراحية؟ إن صانعى الطواطم هم أيضا كذلك لا يستطيعون أن يصنعوا طواطم لأنفسهم هذا لا يحقق نتائج طيبة).

القاضى: (إذن اصنع هذا الطوطم لأفراد من أسرتك أنت فعلى الأقل عندما يصبحون أغنياء يمكنهم مساعدتك وتستفيد من ثرائهم).

تناثرت فى القاعة بضع ضحكات استأنف القاضى (إذن أنت تدّعى أنك قادر على تحويل أى شخص إلى شخص ثرى أليس كذلك أيها السيد مو ييه كيه).

مو ييه: (نعم هو كذلك سيدى القاضى وإذا جئت أنت إلى منزلى لاستشارتى أستطيع أن أحولّك إلى شخص ثرى جدا ثم تصبح رئيسا لقضاة هذا البلد فى أقل من خمس دقائق وثلاثين ثانية أقسم لك ولن تكون مضطرا بعد ذلك إلى قراءة الملفات لأنك سترى الحقائق مكتوبة بوضوح تام أمام عينيك كل صباح عندما تستيقظ وهكذا ستصدر أحكامك على الناس بقدر أكبر من العدالة بدلا من إدانة أبرياء مثلى).

القاضى: (لكل منا عمله أيها السيد ولا أحتاج إلى مساعدتك فى أداء عملى كى أكون قاضيا عادلا محايدا ومن جهة أخرى سأبيّن لك هذا هنا فورا لأن النصّابين الذين على شاكلتك من الرعّاع والأوباش أرسلهم فورا إلى السجن ليتناقشوا مع الفئران هناك فى موضوع الفلسفة فى الأزمنة القديمة ولن أطلب حتى التداول فى قضيتك وسأتحمّل مسئوليتها شخصيا لأن القانون هو أنا).

هنا ضحكت القاعة حتى كاد القاضى أن يطلب إخلاءها من الجمهور ثم جفف القاضى عرق جبهته قبل أن يقرأ الحكم قراءة سريعة بصوت رتيب. وهكذا حصل مو ييه كيه على حكم بالسجن لمدة ستة أشهر وعلى دفع غرامة قدرها ٤ ملايين فرنك بالعملة المحلية مع حرمان خمس سنوات من حقوقه المدنية فصفق الموجودون بالقاعة استحسانا فأغلبهم من ضحاياه ثم وقف القاضى قائلا لرجال الشرطة (ارسلوا هذا النصّاب إلى أصدقائه الفئران الذين ينتظرونه).

بعد ستة أشهر عاد إلى الظهور بين وقت وآخر فى (لو كريدى) ولم يعد يتكلم كثيرا ولم يعد يتناقش مع أى شخص. لنقل إننى

أردت بحديثى عن مو ييه كيه أن أشير إلى قصة أخرى، قصة مواجهة حدثت لى أنا شخصيا مع واحد من هؤلاء السحرة الذى كان يعتقد فى نفسه أنه لا يخطئ أبدا ولكن قد لا يكون هذا هو الوقت المناسب للحديث عن تلك القصة التى سأعود إليها حتما عندما يحين وقتها فما زالت لدىّ أشياء أخرى كثيرة أذكرها لكم وأكتبها فى هذا الكراس هذا الصباح ومن بينها أشياء أخشى أننى لو لم أكتبها الآن ستضيع حتما من ذاكرتى لاحقا.

(٢٥)

منذ بضعة أيام غادرت مشرب (لو كريدى) وفى نيتى أن أتنفس قليلا بعض الهواء وأن أتوقف عن التفكير فى كراستى لبعض الوقت، ذهبت أتسكع باتجاه حى الدعارة (ركس) فى ظلال أولئك الفتيات الصغيرات المزهرات المورقات مثل أولئك اللائى كان رجل البامبرز قد أحبّهن قبل أن يصبح خرقة قماش مهلهلة ترشح منها الإفرازات الشرجية عند المنطقة الشرجية، أردت أن أُسْعِد نفسى قليلا لأول مرة منذ عدة سنوات كبيسة. كنت أقول لنفسى لا شك أن توطيد علاقتى بواحدة أو أكثر من أولئك الفتيات سيَفُك جليدى ويحل جمودى بعض الشىء............

ولكن لم ترض أىٌ منهنّ بى.......... لم ترض أى منهن أن أقضى معها بعض الوقت طال أو قصر لأشبع رغبتى فيها ولو بطريقة متعجّلة، قلن لى كلهن فى نفس واحد (أنت عجوز جدا ونحن نعرف أنه لن يحدث لك أى انتصاب وبذلك فأنت تضيّع وقتك ووقتنا وننصحك بالذهاب لمشاهدة بعض الأفلام الإباحية أو بالذهاب إلى أحد منازل العجزة ممن أحيلوا إلى التقاعد فنحن

نلاحظ أنك جتى لا تستطيع أن تظل واقفا ثابتا على قدميك ونحن نعرف أنك تتحدث إلى نفسك فى الشوارع ثم إن رائحتك نتنة إذ يبدو أنك لم تعد تستحم حتى ذقنك لم تعد تهذبها بل تتركها غير محلوقة).

قلت لهن (ليس هذا مهما)............ وفكرت أن سن ٦٤ لا يمنع الانتصاب ففحل الحصان الذى كان ماضيه مجيدا ويكسب سباقات الخيول للضواحى لا يعودوا يشركونه فيها بسبب بلوغه سن الشيخوخة رغم أنهم لم يختبروه.........إنه شىء مخيف أن نرى كيف أن الناس يتحاملون على الشيوخ ويجهلون أنه لا ينبغى أبدا التقليل من قيمة الديناصورات العجوز وأنه لا ينبغى أبدا لحمار شاب أن يضرب بحوافره أسدا عجوزا.

قالت الفتيات (لقد فات زمانك) فقلت (أؤكد لكنّ إنه لا علاقة للزمن بالمسألة) ثم شعرت بالمهانة أحسست كما لو كنت حطام سفينة تلعب به الأنواء البحرية مع أنه كان لدى فى جيوبى المال الكافى لدفع ثمن واحدة من أولئك الفتيات ثم تساءلت (عمّ تبحث أولئك الفتيات؟ عن المال أم عن الحب؟) يبدو لى الآن أنهنّ يبحثن عن الفتيان الذين لا يقلون عنهنّ جمالا الفتيان الذين يصلحون لأدوار البطولة فى الأفلام السينمائية. يجب على الفتيات أن يحدّدن بوضوح أولويّات رغباتهن فى هذا العالم المتعفن الفانى.

وها هى ذى إذن مهنة الدعارة تتغير عما كانت عليه سابقا خلال قرون طويلة فالآن تسمح الفتيات لأنفسهن باختيار زبائنهن وقريبا سيشترطن أن يُدفع لهن بالجنيه الاسترلينى أو بالفرنك السويسرى فى حين أننا فى الماضى كنا نستطيع أن نقضى سهرة

لطيفة مقابل علبة سردين مصنّعة فى المغرب وهكذا انتهى زمن الخير الوفير زمن الدولة التى كانت ترعى كل مواطنيها فى جميع مطالبهم، أصبحت المسائل الآن شكلية فقيمة الملابس التى ترتديها هى التى تحدد قيمتك الإنسانية وهكذا فحتى تحصل على ملاطفة فتيات حىّ الدعارة يجب أن تعطر جسدك بعطر (لازارو) وأن ترتدى بذلة (فرنشسكو سمالتو) وقميص الاحتفالات الرسمية من (فيجاريه)، هكذا أدركت فعلا أن زمانى قد فات وانتهى.

وحيث إن فتيات حى ركس كنّ قد طردننى وأبعدننى عنهن كما لو كنت موبوءا أو على الأقل بائعا متجوّلا حاولت أن أستعيد كرامتى السليبة وأن أعالج زهوى وخيلائى الجريحين الضائعين مغنيا النشيد الوطنى الفرنسى (وداعا للسلاح) بدلا من (مرحبا بالسلاح) كما فى النشيد الحقيقى وهكذا استأنفت التجوّل متسكعا فى نفس الحىّ، حدث فى تلك اللحظة أن انقطع التيار الكهربائى عن المدينة بأكملها بسبب عطل فى شبكة كهرباء الإنارة وهكذا لم أعد أرى أى شىء أمامى على الإطلاق ولم تعد هناك حتى سيارات تأتى من خلفى لتضىء لى الطريق ولو مؤقتا.

فى هذه اللحظة وكنت أسير فى شارع (الأب سعادة) لمحت فى أحد الشوارع الجانبية المتقاطعة معه والملطخة بالزفت اللزج الضوء المتراقص لأحد مصابيح الجيب التى تعمل بالكهرباء المخزّنة فى بطاريات كما لو أن أحدا يشير إلىّ بهذا الضوء المتراقص أن أقترب منه وفعلت وإذا بى أجد إحدى مومسات الحىّ وكانت تقترب من سن التقاعد والإحالة إلى المعاش أو حتى يجوز أن المسألة أكبر من ذلك إذا كانت قد وضعت فعلا إحدى قدميها فى تابوت النعش.

تردّدت بعض الشيء لأنى لم أعرف إن كانت هذه المسألة تستحق المحاولة أم لا.

ولكن ما حدث هو أنى توقفت أمامها وبدون أى نوع من أنواع المقدّمات أو التحيّات سألتها (كم تكلف المرّة؟)، فوجئت بتجاعيد وجهها وهى تسرح ببصرها على جسمى لتقيس طولى وعرضى ولكنها نظرت نحوى بما يوحى بالشفقة والعطف قائلة (أين كنت طوال حياتك حتى تأتى الآن فى سنك تلك تسألنى كم تكلف المرّة؟ السعر هو نفسه لم يتغير منذ سنوات طويلة وذلك لأن زمننا الحالى يحاول أن يجعل حياتنا أصعب فأصعب) شعرت فعلا بالإحراج لأنى لم أكن أعرف ما هى تلك الأسعار المتعارف عليها.

تلعثمت قليلا ثم تمتمت (يجب إذن أن أعترف لك فى الحقيقة أنا لست معتادا على المجىء إلى هنا وإنما أنا أقضى فقط بعض الوقت فى التجوّل) ثم أردت أن أستخف دمى فقلت (أنا لم أر القمر منذ أكثر من ١٠٧ سنة). وجدت فى عينيها نفس نظرة الإشفاق قالت (أيها العجوز الصغير المسكين أرجو ألا تسقط ميّتا وأنت فوقى). أشارت لى بيدها أن أتبعها فمشيت خلفها فى هذا الشارع الجانبى المنحدر الذى تفوح من أركانه روائح العفن النتن وهو يضيق مع ابتعاده عن الشارع الرئيسى حتى يختفى تماما قرب المساكن الأخيرة على أطراف الحىّ.

كنت أتبعها كظلها بسبب ضعف الإضاءة رغم إحساسى باليأس من مظهرها العام وكان العنصر الإيجابى الوحيد الذى دفعنى إلى هذه المغامرة هو أنها لم ترفض استقبالى لديها ولكننا لم نكن قد اتفقنا بعد على السعر، وهكذا فكرت أنه يمكننى أن أحدد هذا

السعر وفقا لمدى استمتاعى وتبعا لمزاجى. مشينا حوالى عشر دقائق فى ظلام دامس لم يكن يسمح لى برؤية أى شىء وكأننى أعمى البصر واعتقدت للحظة أنه يمكنها أن تقودنى إلى فخ أو مقلب يربض لى فيه بعض القوّادين للاستيلاء على ما معى من نقود رغم قلتها فأنت لايمكن أن تثق فى بائعة هوى.

وصلنا فى النهاية إلى قطعة أرض مهجورة تنمو فيها الأعشاب عشوائيا توقفت واستدارت وقالت (هنا يمكن أن نفعل فعلتنا) لم أفهم هنا أين قلت (هل هذه الأرض لك؟) قالت (وماشأنك أنت بالسؤال عن لمن تكون هذه الأرض هل جئت إلى هنا لتعرف أسرار حياتى أم جئت من أجل غرض آخر محدّد يمكنك أن تنتهى منه فى أى مكان؟) ثم دفعت بابا صغيرا لكوخ خشبى من عصور ما قبل التاريخ كان يشغل أحد أركان قطعة الأرض المربعة والذى لم أكن لاحظت وجوده فى البداية. عند دفع الباب قفزت من الداخل أسرة كاملة من القطط السوداء التى قذفت فى وجهنا بصياحها القططى المحتج طبعا بكلمات من لغة القطط لايفهمها إلا القطط.

قلت لنفسى (فى ركن منعزل مثل ذلك الذى أجد نفسى فيه الآن يمكنهم ذبحى إذا أرادوا فهنا مهما صرخت لا يمكن لأحد أن يسمعنى ففى هذه الناحية من الشارع لا يوجد جيران، فى أى مستنقع رذيلة ورّطت نفسى؟). اختفت المرأة العجوز داخل الكوخ ثم أضاءت مصباحا ضعيفا ودعتنى إلى الدخول. قالت (هل ستدخل أم غيّرت رأيك؟ ما هذا الخراء؟ هل تعتقد أنه ليس لدى زبائن غيرك؟)، دخلت بعد أن كنت فعلا قد أبديت لها بعض التردّد بسبب مخاوفى المتنامية، قذفت العجوز بحقيبة يدها إلى الطرف الآخر

من الكوخ الذى كما بان لى يتكون من حجرة واحدة ثم سعلت ثم ضربت بيدها على عنقها فى منطقة الحلق فتوقف السعال ثم تمدّدت على مرتبة تفوح منها فى نفس الوقت مجموعة من الروائح ميّزت منها روائح عرق الإبط وروائح الفطريّات المتعفّنة وروائح الجدّات.

رفعت تنّورتها التى تعود إلى زمن الاحتلال الألمانى فى أواخر القرن التاسع عشر ثم أصدرت صوت صرير أسنان بسبب ارتعاش طقم أسنانها ثم قالت (هم هنا يسمّوننى آليس فأنا بطلة رواية آليس فى أرض العجائب(*) وإذا أراد الرجال أن يروا العجائب فما عليهم إلا أن يأتوا إلى هنا لا أن يذهبوا إلى أولئك الفتيات الصغيرات اللائى ما زلن يرضعن اللبن من أثداء أمهاتهن اقترب منى يا عزيزى). لم تعد لدى أية رغبة فيها وأصبحت أمنيتى الوحيدة فى تلك اللحظة هى أن أحاول أن أخرج جريا من هذا المكان هاربا بجلدى.

ثم تراجعت قليلا عن هذه الفكرة فإن من المؤكد أننى لو تصرفت بهذه الطريقة لتضايقت هى وربما شعرت بالإهانة ثم إننى قد أكون الفرصة الوحيدة التى أتيحت لها اليوم لكسب بعض المال فبالنظر إلى ملامح وجهها التى تجعلها أقرب شبها بالجنّيّات الشريرات لا أتوقع أبدا أن يكون زبائنها يتزاحمون عليها ويقفون متزاحمين فى طوابير ليصلوا إليها. على العكس من ذلك أعتقد أنهم عندما يلمحونها على الرصيف بغطاء الشعر ذاك الذى تضعه على رأسها ولا يغطى إلا ثلث هذا الرأس يعبرون إلى الرصيف

(*) Alice in the wonders land

المقابل حتى يتجنبوا المرور أمامها، ناهيك عن الاستعمال المكثّف والمبالغ فيه لمساحيق التجميل وطقم الأسنان الذى يتماسك بصعوبة داخل فمها. فى الواقع إنها تبدو مثل مصّاصى دماء البشر «الفامباير»(*).

عادت إلى دماغى من جديد فكرة الهروب بجلدى من هذا الكوخ الذى يعود إلى عصر ما قبل التاريخ وتأكدت أننى لا يمكن أن تكون لدى أية رغبة فيها إذ تغلبت على حواسى روائحها الكريهة التى تدعو إلى القىء والغثيان ومع ذلك فأنا أعرف أنه لا ينبغى أبدا إهانة كرامة مومس بصرف النظر عن كونها امرأة عجوز أو شابة فالمومسات هنّ قبل كل شىء كائنات بشرية مثلنا ولهنّ كرامتهنّ وخيلاؤهنّ فإذا أنت أسأت إلى كرامة واحدة منهن فهى فى حالة غضبها قادرة على فعل أى شىء، ومن الخطأ الاعتقاد فيما يشيعه العامة من أنهن لا عقل لهن يفكرن به وأنهن لا يفكرن إلا بأعضائهن التناسلية. لكل تلك الأسباب لم أغادر الكوخ.

وهكذا تمدّدت إلى جوارها وقد فاحت منها رائحة جديدة لم أكن قد ميّزتها حتى تلك اللحظة وأدركت أنها رائحة المسحوق الذى يحفظ جثث الموتى من التحلل والتعفّن ويُرَش عليها خلال الاحتفالات الجنائزية التى تسبق طقوس الدفن، نظرت إليها فوجدت أن أوردة رقبتها بدت شبيهة بالعروق التى نراها على جذوع الأشجار التى تعمّر قرونا والتى تأتى الضباع لتتبوّل إلى جوارها، ثم نظرت إلى ساقىّ آليس الرفيعتين المقوّستين. قالت (كيف حالك يا عزيزى؟) لم أرد، قامت آليس ذات الساقين الرفيعتين المقوّستين بعد

(*) vampire

ذلك بفك الحبل الذى أستعمله كحزام حول وسطى ثم فكت كذلك أزرار بنطالى الكابى اللون الشائخ مثلى ودسّت يدها المشوّهة الأصابع حتى وجدت عضوى منزويا منكمشا خائفا.

قالت (سأشغل نفسى به يا عزيزى لاتقلق فعضوك سيقف حالا كما لو كنت شابا فى العشرين من عمره صدّقنى فأنا معتادة على ذلك)، ثم بدأت فى محاولة استعادة ذكريات شبابها عندما كانت لا تزال مومس شابة ذات يدين قادرتين على إدخال البهجة إلى قلوب التعساء ممن كانوا على وشك الإقدام على الانتحار، ولكن حركاتها كانت ضعيفة فاترة مثل حركات طائر بحرى وقع منذ مدة طويلة جدا فى الأسر ونسى الطيران ففى الحقيقة لم تكن العجوز تداعب عضوى أو تحفزه بل كانت فى الواقع تعجنه.

وحيث إنها لم تصل إلى أية نتيجة واضحة محدّدة فقد بدأت تفقد أعصابها مثل بعوضة المستنقعات وهو ما جعلنى أشعر بأنى غير مستريح لما يحدث، حاولت أن أهرب بفكرى إلى ذكريات آخر مرة تسلقت فيها قمة جبل منطقة العانة أسفل بطن امرأة فلم تأتنى إلا ذكريات ضبابية وبعض الصور الخاطفة بدون أى تفاصيل. وبالتالى لم يكن من السهل بهذا الضباب الخاطف أن نعيد إلى الحياة آلة توقفت عن العمل منذ مدة طويلة جدا، قامت العجوز من مكانها وقد بدت غاضبة وأعادت تثبيت غطاء شعر الرأس المستعار على ثلث رأسها وقد فاحت فى تلك اللحظة رائحة زيت النخيل ثم أعادت ارتداء التنورة التى حصلت عليها فى زمن الاحتلال الألمانى فى نهايات القرن التاسع عشر ثم أخذت حقيبة يدها وقالت (أنت لست إلا عجوزا غبيا سخيفا فقد جعلتنى أفقد وقتى الثمين).

وقفت بدورى وأنا أزرر بنطالى وأعيد تثبيت الحبل حول وسطى ثم مددت لها يدى بورقتين نقديتين فئة العشرة آلاف فرنك بالعملة المحلية. قالت (احتفظ بنقودك أيها المتخلف العقلى فإن المهانة التى جعلتنى أشعر بها الآن تساوى أضعاف أضعاف هذا المبلغ). ودفعتنى إلى خارج الكوخ.

(٢٦)

من هناك مشيت فى اتجاه شاطئ نهر تشينوكا حيث كنت حوالى الساعة الرابعة صباحا أسير بمحاذاة الشاطئ وكانت مياهه كالعادة رمادية اللون وهادئة. لمحت أثناء سيرى جثث بعض الحيوانات المنزلية النافقة الملقاة فى مجرى النهر طافية فوق مياهه كانت كلها من الحيوانات الداجنة التى تساعد الفلاح فى عمله الحقلى وقد اعتاد الفلاحون من ساكنى ضفاف النهر على التخلص من جثث تلك الحيوانات بإلقائها فى النهر. تحدثت بهذا كله إلى نفسى بصوت مرتفع ولمدة طويلة حتى أن من يرانى فى هذه الحالة قد يميل إلى الاعتقاد بأنى شخص مجنون أو على الأقل إنسان ضائع أحارب طواحين الهواء فى مواجهات عنيفة بطولية مثل صديقنا الغلبان الدون كيخوته دى لا مانشا.

شعرت بكراهية هذا النهر الذى تصحّ تسميته نهر الموت وشعرت بأنه السبب فى تعاستى وإحساسى بالغضب وتمنيت لو استطعت أن أنتقم منه أو أن أطلب منه إعادة روح أمى التى ابتلعتها مياهه ذات يوم فى هدوء تام، لكنى لا أريد أن أتحدّث فى هذا الموضوع الآن وقد أعود إليه لاحقا وذلك لأنى لا أريد أن أسكب المزيد من الدموع الآن. وحيث إننا فى موسم تزاوج الكلاب فلقد

رأيت أزواجا منهما ملتصقة ببعض وهكذا انحنيت ألتقط بعض الأحجار وقذفتها ناحيتهم، غادرت هذه الكلاب المكان بعد أن نبحت قليلا في وجهى تعبيرا عن استيائها، من المؤكد أنهم قد سبتنى بأقذع الألفاظ مستعملة لغتهم الكلابية ناعتة إياى بالجبان الدنىء الوغد أو بالحيوان الذى يسير على قدمين، قلت (لا أهتم وليس عليكى إلا أن تنبحى إن كنت غاضبة).

هنا أردت الجلوس لحظة إذ شعرت ببعض الدوار ـ يجوز بسبب الجوع ـ ثم شعرت بجسم كروى يتحرّك داخل معدتى فى اتجاه فمى وهكذا أفرغت ما فى معدتى من بقايا النبيذ المتخثّر ثم إذا بى فجأة أشعر برغبة فى التبرّز ففعلتها إلى جوار جذع شجرة مانجو. فى تلك اللحظة بالتحديد ظهر أحد ساكنى هذه الجهة من الشاطئ.

قال (ألا تخجل من نفسك وأنت فى هذا السن وتسمح لنفسك بتلويث الأماكن العامة والتبرّز فيها إلى جوار الأشجار أيها المغفّل العجوز).

قلت بصوت عال (لم أعد أهتم إن كان هذا يضايقك).

قال غاضبا (أهكذا تردّ على الناس أيها المخمور الغبى إنك ستموت حتما يوما ما وسط خرائك).

قلت (من المؤكد أن موتك سيكون قبل موتى إذ إن مدافن الأحياء القريبة ممتلئة عن آخرها بمن هم من مثل عينّتك ولا يقلون عنك سخافة).

قال بلهجة تهديد (اجمع برازك وخذه معك أو سأقذف بك إلى النهر).

بدا لى من لهجته أنه مصمّم فعلا على تنفيذ تهديده وأنا لم أكن فى تلك اللحظة راغبا فى الموت غرقا فى مياه هذا النهر بهذه الطريقة الغبية من أجل موضوع يتعلق بالتبرّز عند جذع شجرة مانجو وحيث إن البراز برازى فقد بدأت فعلا فى جمعه.

قال (ماذا تفعل أيها العجوز؟ هل تجمع برازك بيديك العاريتين؟ أيها الأحمق يمكنك أن تستعمل قطعة خشب).

لم أنصت إليه لأنى لم أشعر بالقرف من البراز - فهو برازى. وأن لا أتقزز إلا لو كان هذا هو براز الآخرين وهكذا غصت بيدى فى إفرازاتى وهكذا أيضا أفرغ ساكن المنطقة الساحلية ما كان فى معدته ثم انصرف من أمامى إذ لم يستطع أن يحتمل كل هذه المناظر البرازية المقرفة. أما أنا فلم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك.

بعد هذا التسكع الصباحى وصلت إلى (لو كريدى) حوالى الخامسة صباحا وكان منظر آليس فى بلاد العجائب بساقيها النحيفتين المقوّستين ما زال يطاردنى وكذلك منظر الكوخ الذى يعود إلى عصر ما قبل التاريخ ثم منظر جمع البراز باليد. فى الواقع عند وصولى إلى المشرب كانت رائحة البراز تفوح منى. تناومت قليلا على أحد المقاعد ثم استيقظت على رائحة فنجان القهوة الذى يقدّمه لى النادل (دنجاكى) قائلا إنها من المدير فرفعت بصرى إلى السلم المؤدّى إلى الطابق العلوى لأجد إضاءة قادمة من هناك مما يدل على أن الحلزونى موجود هناك.

وحيث إنهم فى المشرب لا يقدمون القهوة من بين مشروباتهم إلى زبائن المكان فمن المؤكد أن الحلزونى نفسه هو الذى أعدّها لى

وأرسلها إلى هنا من الطابق العلوى، هذا لم يمنعنى من طلب زجاجة نبيذ بمجرد فراغى من فنجان القهوة، قلت لنفسى (سيكون يوما ليس كغيره من الأيام)....... هذا رغم أن زجاجة النبيذ هى البداية المعتادة لكل أيامى.

كانت الساعة بين الواحدة والثانية بعد الظهر عندما رأيت المتشائم يصل إلى المشرب أقصد رجل المطابع ولا أعرف لماذا بدأت فى إطلاق صفة المتشائم عليه رغم أن انطباعى العام عنه قبل ذلك كان مختلفا ولكن المغفلين وحدهم الذين لا يغيّرون آراءهم. كان رجل المطابع قد أنهى جولته اليومية عند الساحل المهجور وبدا لى سعيدا جدا بشكل استثنائى ماذا حدث له؟ هل من جديد؟

نعم أستطيع الآن أن أفهم السبب فى الحالة التى هو فيها السبب ببساطة هو أنه يمسك فى يده بأحد أعداد مجلة بارى ماتش وهو فخور به ويبدو كما لو أن قدميه ترتفعان عن الأرض وهاهوذا يحاول أن يشرح لجمهور صغير من الرجال موضوع أحد المقالات عن المضايقات التى يعانى منها زوجان من مشاهير الفرنسيين بسبب ملاحقة مصورى الصحف لهما فهم يختبئون خلف الشجيرات لالتقاط صور فوتوغرافية لأثداء وأرداف نساء المشاهير.

كان جمهوره ينصت إليه بانتباه تام كما لو كان أحد الزعماء الروحيين وهكذا عاد بعد ذلك من جديد إلى موضوعه الأثير فهم بمجرد أن يتأكد من وجود جمهور يعود إلى موضوعه الأثير عاد إلى رواية قصة مغامرته الفرنسية وكيف أن سيلين البيضاء كانت السبب فى انهياره وفى دخوله إلى مملكة الظلمات فى عالم

المجانين رغم أنه ليس مجنونا ويعود إلى التفاصيل قائلا إن السبب فى أزمته هو اكتشاف وجود زوجته فى فراش ابنه الذى كان قد أنجبه من سيدة من جزر الأنتيل الكاريبية.

هو يحكى كل هذا كل مرة يجد فيها نفسه أمام جمهور هذا يحدث كل مرة فينظر إليه الناس بنظرات فيها بعض الشفقة، ولكن هذه المرة حدث أن قال له أحد الرجال إنه كان ينبغى عليه فى فرنسا أن يتزوّج من فتاة إفريقية بدلا من الزواج من فرنسية ففى تلك الحالة فقط كانت الأشياء ستبدو أقل تعقيدا لأنه فى تلك الحالة فقط يمكن معالجة المسألة فلو كانت قد خانته لأمكن له أن يعود بها إلى البلد فى الكونغو وأن يعالج مسألة الخيانة تلك فقط ببعض ضربات السواطير.

أجاب رجل المطابع بأن المشكلة فى إفريقيات فرنسا هى أنهن معقدات جنسيا وأنهن يدّعين دائما المحافظة على شرفهن وعلى الأخلاق القويمة وأنه لم يحتمل أبدا نزواتهن الأخلاقية تلك. هنّ يردن أن يركع الرجال أمامهن وأن يظل الرجال تحت أقدامهن ثم إنهن ماديات جدا ولا ينظرن إلا إلى سيارات الرجال وإلى البيوت التى يسكنها الرجال وإلى دفاتر حسابات بنوك الرجال ومضاربات سوق الأوراق المالية التى يعمل فيه الرجال، ثم بعد ذلك ينبغى على الرجال أن يدفعوا مصاريف الذهاب إلى مصففى الشعر وأن يدفعوا إيجارات المساكن التى ينبغى أن تكون فى الحى السادس عشر أفخر أحياء باريس فهن يخترن هذا الحى لهذا السبب رغم أنهن لا يسكن هناك إلا فى حجرات الطابق الأخير التى كانت مخصصة سابقا لخادمات الأسر التى تسكن العقار أو فى كهوف الطابق الأرضى أو أسفل الأرضى التى كانت مخصصة سابقا

للتخزين. وهو ما يدلّ على مدى ولعهن بالمظاهر. ويجب عليك أن تدفع وتدفع وتدفع.

وبسبب بحثهن عن المال يقضين وقتهن فى الصياعة فى الشوارع بدون عمل أو فى البحث عن رجال يدفعون لهن وبالتالى فهن إما يبقين بدون زواج حتى يتقدّم بهن السن أو يقبلن الارتباط برجال بيض عواجيز أكبر منهن بثلاث مرات حتى ولو بدون زواج. وهكذا يحدث أحيانا أن تسقط إحداهن فى ممارسة الدعارة أى أن تقبل التنقل بين هؤلاء العواجيز لأنه من الأسهل للواحدة منهن أن تحول جسدها إلى بضاعة عن أن تحول عقلها إلى أداة تفكير، بدا على وجه رجل المطابع أنه سعيد بالتأثير الذى تركه فى جمهوره الذى بدأ بعض منه فى السخرية من إفريقيات فرنسا، قال رجل المطابع (أنا لست متعصّبا عنصريا على الإطلاق). ومع ذلك فقد استمر فى النطق بكل تلك الأحكام المسبّقة التى يدين بها فتيات باريس السوداوات اللائى أصبحن فى نظره مسئولات عن كل مساوئ كوكب الأرض. قال:

(فالكونغوليات من فتيات بلدى يعتمدن بطريقة مبالغ فيها على من يخترنه من الرجال ومع ذلك فإنهن يتصرّفن كما لو كنّ فعلا ذكيات عقلانيات مثقفات ....

والكاميرونيات هن أسوأ الجميع فهن أكثر الفتيات الإفريقيات أطماعا مادية واهتماما بمصالحهن الشخصية حتى أنه يطلق عليهن لقب الفتيات اللائى يقدن الرجال الى الإفلاس............

والنيجيريات يتعاركن فيما بينهن على الأماكن الخالية من أرصفة شارع سان دينى وهو قلب حىّ الدعارة فى باريس.........

أما فتيات الجابون فهن مختلفات إذ إنهن قبيحات المنظر هن مثل حشرات قمل منطقة العانة...

وفتيات ساحل العاج يجدن تحريك مؤخراتهن وذلك لأن أفخاذهن خفيفة الوزن).

مع كل وصف يستعمله كان جمهوره ينفجر فى الضحك ثم لم يستطع رجل المطابع أن يقاوم رغبته فى أن يقول لهذا الجمهور إن مكانه الحقيقى لا ينبغى أن يكون هنا فى هذا المشرب فهو من كان ذات يوم يدير فريق عمل فى مجلة بارى ماتش فريق عمل يتكون من رجال بيض حقيقيين ليسوا مثل أولئك البيض الذين يعيشون معنا فى إفريقيا ويأكلون معنا يخنة المنهوك(*) ويشربون من مساحيق دولة بنين المغلية فى الماء وإنما هم من الرجال البيض الحقيقيين الذى يعيشون فى فرنسا. هنا قلت أنا زجاج مكسور فى نفسى (هذا الرجل مريض فعلا هذا الرجل حالة ميئوس منها هو لا يستطيع أن يغيّر تلك الأسطوانة المشروخة التى يكررها طوال الوقت).

وهكذا وبعد أن تمكن رجل المطابع من تسلية رجال المشرب لبعض الوقت جاء نحوى قائلا (لا أعرف إن كان أحد قد قال لك ذلك يا صديقى العجوز ولكن رائحة البراز تفوح منك حتى مسافات بعيدة هل تبرزت على نفسك هنا فى هذا المكان حيث تجلس؟ ألا تلاحظ الذباب الذى يحيط بك؟ يجب أن تأخذ حماما).

(*) manioc.

لم أقل شيئا فلست مستعدّا أن أحكى له كل حكايتى عن ذلك الرجل الذى يسكن ضفة النهر الذى أجبرنى على جمع برازى الذى تبرّزته إلى جوار جذع شجرة مانجو بيدى العاريتين. قال (حسنا إن برازك ليس من شأنى ولكنى أريد أن أريك هذا العدد الأخير من بارى ماتش الذى اشتريته هذا الصباح إلق نظرة مجانية على بعض تلك المؤخرات النسائية الجميلة)، ولأنى إنسان مهذّب أخذت منه المجلة وأثناء تصفحى لها وقعت على صورة شخص زنجى اسمه جوزيف كانت عيناه شبه مغمضتين وكان جسمه نحيفا جدا ويبدو أنه يعانى من الهزال الشديد بسبب المرض. والصورة له وهو جالس فى حجرة بأحد المستشفيات الباريسية وإلى جوار فراشه نرى اللوحة القماشية التى يرسم عليها وتظهر كذلك الأدوات التى يستعملها فى الرسم، وقد ظهر كذلك إلى جوار موضع رأسه فى الفراش كتاب عن بيكاسو وقد وضع الرسام المريض فوق هذا الكتاب بعضا من فرشات الرسم.

أثناء القراءة عرفت أن هذا الفنان كان قد مات بسبب مرض سرطان الرئة منذ أيام قليلة قبل نشر المقال وأن حالة المريض كانت متأخّرة جدا عندما أحضروه إلى مستشفى سانت أنطوان منذ شهرين حين تم تشخيص حالته ووصف العلاج الكيميائى له، وأنه قبل أن يحضروه إلى المستشفى كان مجهولا تماما ولم يكن أحد يعلم بوجوده، وأنه كان يتسكع فى شوارع باريس خاصة فى منطقة لو ماريه لمدة غير معلومة إذ لم يكن لديه سكن محدّد وأنه كان ينضم أحيانا إلى مجموعات الرجال المتشرّدين من دائمى التجول

(S.D.F) المعتادين على المبيت فى الشوارع والذين لا يهتمون إلا باحتساء زجاجات الخمر وتدخين لفافات التبغ............ شعرت بالتعاطف مع هذا الشخص الذى يشبهنى جسمانيا إلى حد ما.

اسم الصحفيّة التى أجرت معه الحوار ثمانية أيام قبل وفاته هو بيبيتا ديبون وقد وضعت فى بعض العناوين أنه الرسام (فان جوخ الزنجى) وذكرت أنها كانت قد انبهرت تماما بثقافته الموسوعية وقالت إنه كان أشبه بمكتبة متنقلة فقد قرأ من الشعراء رامبو وبنيامين كونستانتان وبودلير وشاتوبيران وكان يحفظ عن ظهر قلب للمؤلف الأخير فقرات كاملة من كتابه (مذكرات ما وراء الموت) وذكرت أنه كان يجيد صياغة أفكاره كما لو أنه كان يقرؤها من كتاب مفتوح أمامه........ إنه يتحدّث أيضا مع الصحفية عن نجوم فن الرسم وعن الفلاسفة الذين أقرأ أسماءهم لأول مرة وذلك لأن معرفتى ضئيلة بفنون التصوير الزيتى هو يذكر أسماء: ويليام بليك - فرنسيس بيكون - روبيرت روشنبرج - جيمس إينسور وآخرين.

تقول الصحفية إنه كان من الممكن لهذا الفان جوخ الزنجى أن يظل مجهولا إلى الأبد فى فضاء اللامبالاة باسمه وبفنه وأن وجوده لم يكتشف إلا بالصدفة البحتة وبالتالى محاولة إنقاذه من الضياع ومن المرض. تمت هذه المحاولة على يد محام يقيم فى البناية التى قرر جوزيف ذات ليلة أن ينام على الرصيف المقابل لها فقرر هذا المحامى أن ينزل من شقته ليطلب من هذا المتشرّد أن يغادر الرصيف ويبحث لنفسه عن ملجأ آخر، إلا أن ما حدث هو أن هذا المحامى التفت انتباهه إلى اللوحات من الورق المقوّى التى كان جوزيف يضعها حوله فوقع على الفور فى هواها وطلب من جوزيف

أن يشترى منه بعضها. كان المحامى هو الذى نقل جوزيف الى المستشفى.

وفى حوار مع المحامى قال (هذا يحدث فى أغلب الحالات أن يقابل الناس الفن الأصيل باللامبالاة فالعبقرية تكون غالبا ضحية الجهل أو انعدام البصيرة الذى يتوفر بكثرة بين أولئك المحيطين بالعبقرى بل يتلقى العبقرى غالبا الإهانات من السفهاء لقد وجدت نفسى أمام الشخص الذى يمكن تسميته بحق فنانا ملعونا وقد أردت مساعدته فرغم مرضه إلا أنى حاولت دفعه إلى مقدّمة المشهد الفنى الباريسى حتى تعرفه الأوساط الفنية خاصة تلك الأوساط المتعالية المغلقة ولذلك فقد قدّمته إلى المسئول عن مؤسسة ديبيفيه(*) الفنية الذى وقع هو أيضا ومن أول نظرة فى عشق لوحات الفنان الزنجى وأقرّ له بالعبقرية)، وقد أرادا معا المحامى والمسئول الفرنسى تحويل حياة جوزيف من حياة بؤس وفاقة إلى حياة أسطورية تصلح لأساطير الجنيّات التى يحبّها الأطفال فى كتب المطالعة ولكن لسوء الحظ ترك جوزيف هذه الأرض دون تحقيق هذا الحلم، فضّل جوزيف أن يذهب لممارسة فنه إلى جوار معلميّه من الأساتذة بيكاسو وروشنبرج والآخرين.

نحن نعرف أنه بالنسبة لعدد كبير من الفنانين الحقيقيين ذوى العبقرية الحقيقية لم يأت المجد إلا بعد الموت أما أولئك الذين يحصلون على الجوائز فى حياتهم فهم غالبا من الفنانين الأقل عبقرية الذين رغم هذا يحققون قدرا من النجاح إلا أن هناك فرقا بين النجاح والمجد فالنجاح يشبه تلك النجمة التى تلمع فى السماء

(*) Du buffet

ليلا ثم نشاهدها للحظة واحدة وهى تسقط كشهاب أما المجد فهو ملء السمع والبصر وهو أقرب شبها بقرص الشمس الذى يملأ الكون ضياء وهو إذا مال إلى الغروب فى هذه الجهة فذلك لا يحدث إلا ليشرق من جديد فى الجهة الأخرى فهو لا يلمع لحظة ثم ينطفئ إلى الأبد. والمثل على ذلك هو الفنان الهولندى فان جوخ الذى يبدو أنه لم يبع فى حياته إلا لوحة واحدة فى حين يصل ثمن بعض لوحاته حاليا إلى عشرات الملايين. وهو ما يحدث للوحات فناننا الزنجى إذ يبدو أن أثمان لوحاته فى باريس تتزايد يوما بعد يوم ويتصل جامعو التحف من العالم أجمع لينتزع كل منهم لنفسه واحدة منها.

لاحظ مقتنو هذه اللوحات أن الفنان الزنجى كان يكتب على لوحاته جملا من رواية الكونت دى مونت كريستو للأديب الفرنسى ألكسندر ديماس ويبدو أن جوزيف كان يحفظ عن ظهر قلب فقرات بأكملها من هذا الكتاب. وكان جوزيف قد تحدث كذلك مع الصحفية عن أديب فرنسى آخر هو شاتوبريان الذى قال عنه ناقدا (رغم كونه أديبًا عظيمًا فى أعماله الروائية فقد التهمت روايته ذ آتالا- التهاما إلا أنه كان أحيانا يكتب وكأنه يوبّخ الناس بل وكأنه يمسك لهم فى يده سوطا يضربهم به ولكنى بكيت عندما عرفت أن والده كان تاجرا للعبيد السود وهو لم يذكر أى شىء عن هذا الموضوع فى مذكراته).

أما أنا زجاج مكسور فإن أكثر ما لمس شغاف قلبى عندما قرأت ذلك المقال فى بارى ماتش عن الفنان الزنجى هى شجاعته فى مواجهة المرض الذى سيقضى عليه فى النهاية ويقوده إلى الموت

فى المقال كان جوزيف قد قال (إن المرض يقرض حياتى إنه يستهلكها ولكنى بفضل الرسم أى بفضل ضربات الريشة قد أستطيع أن أنجو من هذا السرطان اللعين)، عندما قال هذا الكلام لم يكن يعرف أنه لم يعد متبقيا له فى الحياة إلا أسبوع واحد. هذا هو ما لمس شغاف قلبى.

عندما كنت أحاول أن أنتهى من قراءة هذا المقال المثير للأشجان جاء رجل المطابع فجأة ليهزّنى وينزع المجلة من يدى قائلا (اللعنة عليك يا زجاج مكسور لماذا لا تتوقف إلا عند الموتى؟ هذا المدعو فنان زنجى ليست له أية قيمة على الإطلاق أنا لا أريد حتى أن أنظر إلى صورته فهو نموذج مجسّم للإنسان البائس الضائع إنه مجرّد بقايا زبالة هيا اقلب الصفحة) .... وهكذا أطعته وقفزت بضعة صفحات فإذا به يقول (تمهّل يا رجل إنك تقفز فوق الصفحات حيث الأرداف الموجودة فى الصفحة رقم ١٣).

(٢٨)

عدت من جديد إلى الصفحة رقم ١٣، حيث وجدت فعلا أردافا معروضة ولكن الصورة تبدو غير محدّدة المعالم فصحت (هذه الصورة ليست حقيقية من يثبت لى أنها ليست كذلك فأنا لا أرى التفاصيل بوضوح وهم فى هذا النوع من المجلات يمكنهم أن يضعوا أرداف أية امرأة على صورة وجه أية امرأة أخرى وهذا تزييف)، هنا صرخ رجل المطابع فى وجهى غاضبا فهو لا يحتمل أن نشكك فى نزاهة بارى ماتش وهو لا يحتمل أن نعارضه فى هذه المسألة، وهكذا ترك نفسه تماما لمشاعره الغاضبة. قال:

(هل أنت مجنون أم ماذا؟ كيف أن رجلا مثلك تعدى الستين وله مستواك الثقافى يمكنه أن يذكر حماقات من نوع ما ذكرته أنت للتو؟ أنت تلمّح إذن إلى أن هذه الصورة ليست حقيقية هل هذا هو ما تريد أن تقوله؟ إذن فأنت تعتقد أن هذه المجلة بارى ماتش يمكنها أن تضع على صفحاتها صورا غير حقيقية ألا ترى كيف أنها ملوّنة؟ ألا تدرك أن من التقطها هو مصوّر محترف؟ أقول لك إن المصوّرين المحترفين يخاطرون بحياتهم من أجل صورة حقيقية ثم ألا تدرك أن الصحفيين الذى يكتبون فى هذه المجلة هم من المحترفين فى مهنتهم الجادين فى موضوعاتهم؟ أمرك عجيب والله. إذن أنت تعتقد أن هذه الأرداف ليست حقيقية إذن أنت لا تعرف النساء. أقول لك إن هذه هى الأرداف التى يحلم بها أى رجل حقيقى من الشعب الفرنسى رجل يرتدى قبّعة إقليم الباسك الشمالى الانفصالى أو رجل يمسك فى يده رغيفا من أرغفة الخبز الفرنسية الشهيرة من ذلك النوع الأسطوانى الطويل(*) ، ستجعلنى أعتقد أنك فعلا أعمى).

أما أنا فقد تكلمت بصوت منخفض وكأنى أخشى ردّ فعله قلت (لكنك تعرف أنه لا ينبغى لنا تصديق كل ما يحكوه لنا فى تلك المجلات فهؤلاء الناس قادرون على أن يبيعوا لقرّائهم كل شىء طالما استمر القرّاء فى شراء المجلة). فازدادت عصبيته وقال (أولا هذه ليست مجلة إشاعات وإنما هى مجلة جادة ومحترمة يمكن الوثوق فيها وأنا بصفتى عضوًا قديمًا فى فريق طباعتها أؤكد لك أن كل ما ينشر فيها حقيقى ولهذا السبب فإن العالم كله يشتريها رجال

(*) baguette

السياسة ومديرو المصانع ونجوم الفن من الممثلين والممثلات بل إنه من المعروف أن الممثلين المشهورين يتعاركون فيما بينهم على الظهور فى صفحات هذه المجلة أمام منازلهم ومع أقاربهم وكلابهم وقططهم وأحصنتهم.

حتى لو أدين أحد رجال السياسة هناك فى فرنسا فى أية قضية عامة أو تمّ التحقيق مع واحد منهم فى قضايا فساد أو فى قضايا تتعلق بفواتير مزوّرة أو قضايا تتعلق بإسناد تنفيذ بعض المشروعات العامة إلى أحد معارفه أو أقربائه أو قضايا تتعلق باستغلال نفوذ فإن رجال السياسة فى تلك الحالات يفضلون دائما أن يقفوا مع عائلاتهم أمام مصوّرى بارى ماتش فإن هذه الصورة وحدها فى حد ذاتها كفيلة بإعطائهم سمعة طيبة وهو ما يمكنه أن يساعدهم لاحقا فى ادّعاء أن تلك القضايا كانت مرفوعة عليهم من طرف خصومهم السياسيين بغرض إزعاجهم ومنعهم من دخول الانتخابات الوشيكة هأنتذا يا زجاج مكسور ترى المشكلة فذلك الرجل السياسى الذى تراه فى صفحة ٢٧، هو شخص فاسد ضالع فى قضايا فساد كثيرة معلقة فى رقبته قضايا فساد مريبة من بين الأسوأ سمعة فى فرنسا ولكن ظهوره هنا فى بارى ماتش سيحسّن صورته أمام الجمهور).

عندها عدت من جديد إلى صورة الأرداف صفحة ١٣، وأبديت من جديد شكى فى صحتها فانتزع منى المجلة غاضبا وابتعد وهو يتذمّر لافظا بعض الكلمات المهينة ثم عاد ليقف أمامى ملقيا بهذه الكلمات (إنك فعلا عجوز غبى وكنت حتى هذه اللحظة مفشوشا فيك إذ اعتقدت لفترة أنك رجل معتدل ولكنى أعتقد الآن أن مخك

قد بدأ فى التآكل بسبب الشيخوخة ثم إن رائحة البراز العفنة تفوح منك اذهب واغتسل)........ بصق على الأرض ثم استأنف (نحن ذ أنا وأنت ـ لا نتشارك فى نفس المفاهيم ولا ننتمى إلى نفس الجيل فأنت تنتمى إلى الماضى السحيق وأنا لا أعرف ماذا تفعل هنا بالضبط ولكنى أعرف أننى لا أريد أن أتحدّث إليك بعد الآن انتهى كل شىء بيننا وسأبتعد عنك .... فأنت تنسى أننى قد عشت فى فرنسا ولا أحد غيرى هنا عاش فى فرنسا لا أحد غيرى هنا شاهد بعينيه منظر سقوط الثلج فى الشتاء على شارع الشانزليزيه وقوس النصر).

عندما ابتعد من جديد كنت أقول فى نفسى (لم أعد أهتم ثم إن عجوز الماضى السحيق يقول لك أنت يا رجل المطابع إنك شخص زبالة زبالة زبالة). ذهب هو لينضم إلى مجموعة من الشباب الأغبياء الذين كانوا فى حالة سكر بيّن يترنّحون وهم جلوس ويتناقشون فى نتيجة مباراة لكرة القدم كانت بين فريق (قروش البحر) الجنوبى المخيف وفريق (المثابرين الكايمان/ اسم قبيلة) الشمالى المرعب، وقد فاز الشماليون ٢/صفر فى المباراة الأخيرة مباراة العودة فى حين كان الجنوبيّون قد فازوا فى مباراة الذهاب بنفس النتيجة ٢/صفر وهكذا ينبغى منطقيا أن تكون هناك بينهما مباراة ثالثة فاصلة خلال خمسة عشر يوما......... هذا هو ملخص الحديث الدائر بين أفراد هذه المجموعة من الأغبياء الشباب وهنا يتدّخل رجل المطابع فى ثرثرتهم الرياضية الدائرة قائلا (هل فقدتم كلكم عقولكم أم ماذا؟ هناك فى الحياة توجد أشياء أخرى أكثر أهمية بكثير من هذه المباراة الهمجية) ثم ناولهم المجلة التى يبدو أنها قد أسعدت البعض منهم بصور الأرداف إلا أنها قد أتعست

البعض الآخر الذى كان يفضّل استئناف الحديث الدائر حول المباراة.

وقفت وحركت أطرافى وفكرت فى الذهاب لتناول طعامى وأنا أقول يا له من يوم غريب بدأ مبكرا جدا مع آليس فى بلاد العجائب التى فقدت أعصابها ثم كيف أننى بعد ذلك اضطررت إلى جمع برازى بيدى بعد أن فقد أحد ساكنى ضفاف النهر هو أيضا أعصابه ثم هاهم كل الناس يفقدون أعصابهم، أمنيتى الآن هى أن يكون هذا اليوم هو آخر يوم لى هنا فى هذا المشرب وألا أعود إليه أبدا بعد ذلك، خرجت من المشرب مع أوهامى الضائعة ثم عبرت شارع الاستقلال لأجد نفسى أمام (ماما إم فو وا) التى تبيع أسياخ اللحم المشوى فى مواجهة المشرب.

إنها صلعاء ومعتادة على الغناء بين وقت وآخر لتسلينا لهذا أسميناها (المغنية الصلعاء) بمحبة مخلصة لا أثر فيها لأى سخرية وهو كما تعلمون اسم عمل أوبرالى مشهور. كانت تبيع أنواعا مختلفة من الأسماك المشويّة مثل سمك موسى أو البلطى كذلك كانت تبيع الفراخ المشويّة. كانت تعرض هذا الشواء بطريقتين مختلفتين إما الشواء بنار الميكروويف(*) للزبون المتعجّل أو الشواء بنار الفرن للزبون غير المتعجّل وأنا كنت طبعا أفضل نار الفرن.

تروج شائعات أن مغنيتنا الصلعاء تضع أعمالا سحرية داخل لحومها المشوية بغرض الاحتفاظ بزبائنها وزيادة عددهم فى هذه الأيام الصعبة، وتقول شائعات أخرى إن اللحوم المشوية التى تقدّمها

(*) microwave (الموجات الكهربائية متناهية الصغر).

لزبائنها على أسياخ ليست دائما من لحم الفراخ بل أحيانا هى لحم كلاب وقطط شوارع الناحية، وأنا لا أصدّق كل هذا الهراء وليس هذا هو ما يمكنه أن يجعلنى أفرغ معدتى، أما إذا ثبت يوما ما أنها كانت تقدّم لبعض زبائنها لحم الكلاب والقطط فإن المعنى الوحيد لهذا هو أن لحم الكلاب والقطط طيب يؤكل وأنه لا يمكن تمييزه عن لحم الفراخ.

هناك دائما عدد كبير من الناس حول المغنية الصلعاء ليس فقط بفضل لحومها ولكن كذلك بفضل شخصيتها اللطيفة فهى تعطى للناس دائما مشاعر أمومة يفتقدونها وتجد دائما الكلمات الرحيمة الرؤوف لتقولها لهم وقد ترفض أحيانا ثمن الطعام الذى يأخذه زبون إذا لاحظت أنه غير قادر على الدفع بل أجد لديها أحيانا بعض الزبائن يترجّونها أن تقبل منهم ثمن ما يأخذونه كانت فى تلك الأحوال تقول (ليس هذا مهما يا والدى- أو يا ابنى- يمكنك أن تدفع فى وقت لاحق) ولكننا لا نستطيع أن نقبل منها كل هذا الكرم السخىّ وذلك لأنها يجب أن تجد فى نهاية الشهر المال اللازم لدفع إيجار المكان الذى تسكنه هى وأولادها ولدفع مصاريفهم المختلفة من طعام وخلافه.

عدا ذلك فهى غالبا ما تملأ أطباق زبائنها بالطعام بأكثر مما تفعل غيرها من بائعات نفس الأصناف فى أماكن أخرى من المدينة، بل هى أحيانا تترك زبائنها يختارون من حلّة الطعام قطع اللحم التى تروق لهم ثم هى تضيف إلى ذلك عصيدة المنهوك manioc مجانا، هذه هى طريقتها فى جذب المزيد من الزبائن وأرجو ألا يقول لى أى شخص بعد ذلك إنها تضع أعمالا سحرية فى طعامها.

لكل هذا فنحن نحبها وكل ما عدا ذلك فهو من التراث الردىء للأدب الزنجي الإفريقى الذى يترعرع ويزدهر على ضفاف نهر السين الباريسى، كل ما عدا ذلك هو تخريف وعبث وهراء فالناس الذين يتقوّلون عليها سواء فيما يتعلق بموضوع الأعمال أو بموضع لحم الكلاب هم دائما من زبائنها، لهذا فلا أحد يصدّقهم.

بل أكثر من ذلك يقولون إن الزيوت التى تستخدمها فى القلى هى خليط غريب من بصاقها وبولها ويفسرون بذلك رائحة الشواء التى تشبه أحيانا روائح المطبخ اليابانى وأنا لا أصدق، يا ترى ماذا سيخترعون لها من خرافات فى المستقبل؟ أما أنا زجاج مكسور فأرى أن المغنية الصلعاء هى مواطنة صالحة مثل غيرها من المواطنين الصالحين من أمثال الحلزون العنيد. إنهم الناس الذين لن يكون هناك ما يلومون عليه أنفسهم يوم الحساب الأخير فإن أماكنهم فى الجنة محجوزة لهم مقدّما ومعروف أرقامها.

عندما ترانى الصلعاء أقترب من مطعمها الصغير تبتسم لى وتقول

(إذن ماذا ستأكل اليوم بابا زجاج هل تعرف أنك لا تعجبنى فصحتك لا تبدو على ما يرام).

هى تنادى عددا كبيرا من زبائن مشرب لو كريدى العواجيز مثلى بلقب بابا إنها طريقتها فى إظهار عواطفها نحونا. أقول لها (إذن أعدّى لى الدجاج المشوى بالكثير من التوابل مع عصيدة المنهوك).

وكالمعتاد كنت آخذ كل هذا بعد دفع الثمن وأتجه من جديد إلى المشرب أما هذه المرة فقد أوقفتنى قائلة:

(يجب أن تتوقف يوما ما يا مكسور عن احتساء الخمر إن نبيذ سوفينكو ليس من الأنواع الجيدة هل تعرف ذلك؟) .

أقول (على كلمتك سأتوقف اليوم عن شرب الخمر سيكون هذا هو يومى الأخير أقسم لك).

تبتسم وتقول (أنا جادة فى كلامى يا زجاج ففى سنك ليس الشرب بشىء جيد ثم انظر كم أنت نحيف لا زلت أتذكر كم كنت أنت شابا جميلا الآن أنت تموت يوما بعد يوم أرجوك فلتهجر الزجاجة).

أقسم لها من جديد أننى سأتوقف اليوم عند منتصف الليل عن احتساء النبيذ الأحمر فتقول (لا أصدّقك وماذا ستشرب إذن إذا توقفت عن شرب النبيذ؟).

أقول (سأشرب الماء القراح الكثير من الماء القراح).

فتهز رأسها غير مصدّقة (أنا لا أتمنى إلا أن أراك وقد توقفت عن الشرب ثم بابا .... اعذرنى........ يحب أن تفكر فى الاستحمام بين وقت وآخر فإن رائحتك تبدو كما لو كنت قد جلست على براز).

تنشغل من جديد فى إعداد المزيد من الوجبات للزبائن فتضع فرخة فى فرن الميكروويف وتضع سمكة شبّوط فى إناء الزيت المغلى ثم تجفّف جبهتها من العرق باستعمال ظهر كفها اليمنى فتتساقط بعض قطرات العرق فى الحلّة ولكننا لا نهتم فمن المؤكد أن هذه القطرات تضيف هى الأخرى نكهة ما إلى طعم أطباقها الذى نحبّه، أقول فى نفسى إن هذه السيدة شخصية غير عادية فهى حيث

تجلس هنا وسط أدوات مطبخها تخلص فى عملها وتضع فيه كل قلبها وأعتقد ـ مخلصا ومن كل قلبى ـ أن عملها هذا ليس فقط من أجل كسب المال ولكن هناك أيضا حبها لهؤلاء الناس الذين حولها ثم إذا بها تنظر إلىّ وتعود إلى نفس الموضوع

(أنا أعرف بعض الناس الذين ذهبوا مباشرة من المشارب إلى المدافن ثم اسمح لى أن أقول لك إن منظر جثة مدمن خمر هو منظر مخيف إذ تكون بشرته حمراء اللون مثل لون النبيذ الذى أدمنه هذا مخيف وأنا لا أريد لك أن تكون جثتك بهذا اللون يوم وفاتك يا عزيزى زجاج).

ثم حدّثتنى عن الرجل الذى كان اسمه (دى مو كو سيه) والذى كان مدمنا أبديا وكيف أنه يوم وفاته كان لون جثته هو هذا اللون الأحمر القاتم إذ لم يكن يشرب الماء أبدا ولم يكن يشرب أى شىء آخر عدا النبيذ وقد عثروا على جثته فى الدغل على أطراف منطقة فوكس Fouks وقد أمسك بزجاجة خمر بين يديه وقد نمت على جلده الفطريات والطحالب، من الغريب كذلك فى هذه القصة أنهم قد دفنت معه فى قبره وحسب وصيّته صندوقا ملىء بزجاجات النبيذ، قلت لها إننى لم أكن أعرف هذه القصة لأننى لم أكن أعرف هذا الرجل فهو لم يكن أبدا من زبائن (لو كريدى). لكل هذه الأسباب فأنا لن أتوقف عند قصته ولن أقارن نفسى به إذ إننى لا أعرف تفاصيل حياته ثم صمتّ لحظة طويلة فاعتقدت الصلعاء أن سكوتى هو بسبب غضبى فقالت :

(اعذرنى بابا أرجو ألا تكون غاضبا أنا لم أحك لك تلك القصة إلا لأنى أحبك ولو لم أكن أحبك لما حكيتها لك فأنت

تستحق نهاية أفضل من تلك التى كانت لدى مو كو سيه). ثم قدّمت لى طعامى وكالمعتاد استمتعت برائحة الدجاجة الطيبة الجيدة الشواء ولكن البصل المضاف جعلنى أعطس فنظرت نجوى قائلة بصوت ضعيف حنون (أتمنى لك شهية طيبة يا أبى الصغير). عبرت شارع الاستقلال وعدت إلى مكانى المعتاد حيث جلست لآكل.

(٢٩)

فى الحقيقة عندما يسألنى مدير المشرب الحلزون العنيد عن أحوالى لا أعرف كيف أردّ عليه فهو يعرف كل شىء عنى وعن أحوالى ويعرف مثلا لماذا أقضى كل وقتى فى مشربه ويعرف أن هذا هو بسبب أنجيليك) Angelique واسمها يعنى ملائكية فى اللغة الفرنسية) وهو طبعا كان قد رآها منذ سنوات عندما كانت تطاردنى فى كل مكان وتأتى إلى هنا فى المشرب حتى قبل أن نكون قد انتهينا من بناء سقفه. ماذا إذن أستطيع أن أقول له أكثر من ذلك؟ إذ ليس لدىّ ما أضيفه. لكنى أكتب هذا الكلام الآن فى الكراسة ولا أعرف من أيضا غير المدير سيقرأ يوما ما هذه الكراسة وسيدرك هذا القارئ الفضولى أنه لا يعرف أى شىء عن أنجيليك فهو لم يكن يوما من بقية أفراد العائلة ومن حقه طبعا أن يتساءل عمّا كان قد حدث لى.

سيقول فى نفسه (من الجيّد أن حكى العمّ زجاج عن كل هذا وعن كل أولئك الآخرين وعن الدجاج المشوى والمغنية الصلعاء ولكن ماذا حدث بالضبط لعم زجاج؟ ولماذا لم يحك لنا عن نفسه؟ ولماذا

يدور فى حلقات مفرّغة؟ ولماذا لا يقرّ ويعترف كما يفعل الآخرون؟).
ولكل ذلك هأنذا أحكى عن نفسى إذ يبدو أنه ينبغى حتى للقارئ الفضولى المتطفّل أن يعرف لماذا هبطت إلى هذا الدرك الأسفل دون استعمال مظلة هبوط (باراشوت) ولماذا أقضى كل وقتى هنا فى المشرب حتى لا يترك النقص فى هذه المعلومات فراغا ملحوظا فى عقل قارئى العزيز الذى كررت أمامه مرارا أنه يمكنه أن يعتبرنى حفريّة من حفريّات المكان تكوّنت فى طبقات أرض هذا المكان حتى قبل أن يظهر المكان إلى الوجود.

أبدأ حكايتى بأن أذكر أن انجيليك هو الاسم الأول لزوجتى السابقة ولكنى عندما أتحدّث عنها أسمّيها ديابوليك(*) (وهو ما يعنى شيطانية فى اللغة الفرنسية) وأنا أسمّيها هكذا لأنها لم تكن ذات صفات ملائكية وإنما كانت على العكس من ذلك تماما فهى لم تكن تتصرف كما يتصرف الملائكة حتى لو كانوا من فئة الملائكة المنحلين ولقد ظلت زوجة لى لمدة خمسة عشر عاما ولم تكن تشغلها إلا فكرة واحدة كان الأمل قد داعبها بها وهى أن تثبت لى أن انحناءات جسدها أكثر إثارة من انحناءات جسد زجاجة النبيذ.

أما أنا فقد أمضيت هذه الأعوام الخمسة عشر محاولا أن أثبت لها العكس وذلك لأنى أستطيع أن أشرب من الزجاجة وقتما أريد كيفما أريد أينما أريد فهذا يتوقّف علىّ أنا وحدى وعلى إرادتى الحرة وعلى الساعة التى أصل فيها إلى المشرب أما مع ديابوليك فالويل والثبور وعظائم الأمور فأنا أولا وقبل كل شىء فى حضرتها لا أشعر أبدا أننى فى حضرة امرأة ثم إنها كانت تأتى إلى

(*) Diabolique

هنا فى المشرب لتسحبنى معها عائدين إلى المنزل ولكن بمجرّد أن تستغرق فى النوم من جديد كنت أنا أعود إلى المشرب من جديد ثم فى صباح اليوم التالى تتباكى وتنتحب قائلة إننا لم نعد نرى بعضنا وأن حياتنا المشتركة أصبحت قطعة من الجحيم مع ملاحظة أنها عندما كانت تذكر حياتنا المشتركة كانت تستعمل كلمة cohabitation، التى كان الرئيس ميتران يستعملها فى وصف فترة التعايش بينه كرئيس اشتراكى يسارى ورئيس وزرائه شيراك الرأسمالى اليمينى بين ١٩٨٦ و١٩٨٨.

كنت أعود دائما إلى المنزل مع الصيحة الأولى لديك الصباح الذى كان يعشش أعلى قمة شجرة المانجو المزروعة فى قطعة الأرض التى تخصّنا وتحيط كحديقة بمنزلنا وفى بعض الأحيان كنت أنام إلى جوار جذع هذه الشجرة وغالبا ما كانت توقظنى الإفرازات السائلة الحارة لهذا الديك ومع ذلك لم أكن أغادر مكانى هناك حتى تأتى ديابوليك لتفتح باب المنزل وتجدنى هكذا بين إفرازات الديك وإفرازاتى الشخصية من بول وبراز التى لم أكن أستطيع أن أتحكم فيها بسبب حالة سكرى البيّن. صحيح شىء مقرف ولكن لماذا لم تكن تتركنى فى حالى؟

هنا كانت تنفجر فى البكاء ثم تصيح داعية الجيران بشكل فضائحى لمشاهدتى فى حالتى تلك! اعتقادا منها أننى قد أشعر بالعار أمامهم مما قد يمنعنى من تكرار مثل هذه التصرفات كنت أقول أمامهم وأمامها (اللعنة على الجيران أنا لا أريد أن أحظى بشرف معرفتهم) وكنت بعد ذلك أطالبها باحترام حريّتى فى اختيار حياتى الخاصة وكان أحد الجيران وهو الذى أشعر نحوه بنفور

خاص بل بالاحتقار قد جاء ليقول بصوت مرتفع أمام الكل (ليست هناك حياة خاصة عندما تخطئ هكذا فى حق جيرانك فإن حدود حرياتك الخاصة تتوقف عندما تتلامس مع حدود حريات الآخرين).

كان هذا الجار الملعون يعتقد أنه سليل فلاسفة التنوير الفرنسيين فى أوروبا القرن ١٨، أمثال فولتير نبى الحرية ومونتسكيو صاحب كتاب روح القوانين وكنا أنا وهو عدة مرات فى السابق على وشك التحوّل من مرحلة التراشق بالكلمات إلى مرحلة التعارك بالأيدى فى كل مرة كان يريد فيها أن يثبت لى ولغيرى أنه أكثر ثقافة منى ولكن هيهات.

فى إحدى تلك المرات الصباحية صاحت ديابوليك بصوت مرتفع جدا حتى تسمح لكل الجيران بأن يسمعوها قالت (هذا كثير جدا وأنا لم أعد أحتمل لقد نفد صبرى) ثم أضافت أنها لن تظل طوال حياتها فى خدمة جثة متنقلة مثلى وإنى أتسبب لها فى تعاسات مزمنة بائسة ولا أجلب لها إلا الدموع وهكذا أصبح من الضرورى أن أختار بين نزواتى كمدمن خمور (هكذا قالت) وبين واجباتى كزوج ورب أسرة قالت (إما هى أو الخمر) فقلت على الفور (أختار الخمر)، فعادت إلى التباكى والنحيب.

نصحها الجار الفيلسوف باعتبارى ميتا أو باعتبارى كما لو كنت شبحا أو على الأقل كما لو كنت شخصا غير موجود أو كأنها لا ترانى وقد وافقته ديابوليبك على الفور فى هذا الاقتراح الفلسفى الذى اختزلنى إلى شبح وقالت له إنها تتمنى لو كنت فعلا ميّتا ذلك الموت السريع المفاجئ بدلا من هذا الموت المؤجّل الذى سيجعلها

تتعذّب معى لفترة أخرى، هل كانت معذورة فى تمنّى موتى؟ هى أرادت أن تتخلص من نظرة جيرانها وسخرية بعضهم العلنية منها بل إن حتى كلاب الحىّ هى الأخرى تنبح احتجاجا عندما تمرّ ديابوليك أمامهم، مع أن من يشرب حتى السكر هو أنا زوجها لا هى، ثم أقسمت علنا أن استمرار هذا الوضع بهذه الكيفية سيقودها حتما إلى الانتحار بإلقاء نفسها فى مياه نهر تشينوكا.

أما أنا فكنت أحاول مواساتها وقد وجدت بعضا من حججى وبراهينى الجدلية المتينة فقلت مثلا بصوت عميق جاد مؤثّر إن شرب الخمر أقل خطرا من تدخين السجائر ولكنها قاطعتنى فورا معترضة على كلامى قائلة إنهما نفس الشىء إذ إن لهما نفس التأثير المدمّر على الصحة وأنهما معا يقودان الإنسان إلى نفس النتيجة ألا وهى الرحيل إلى العالم الآخر وهناك الكثير من القبور المفتوحة التى تنتظر الزبائن. فضحكت من هذا التشبيه إذ إننى فى الحقيقة لم أكن أجد الخمر سيئة إلى هذه الدرجة بالإضافة إلى أننى لم أتهوّر عليها أبدا وأنا مخمور فلم أضربها مثلا أو أؤذيها بل فى الواقع هى التى كانت قد اعتادت عندما تكون غاضبة على توبيخى وعلى دفع جسمى بيديها.

أنا أعرف جيدا معنى عبارة (اللا عنف) وأقدّر الدعوة إلى عدم استعمال العنف وأحتفظ بملصق (بوستر) لمارتن لوثر كنج وهو ينظر إلى صورة لغاندى وليس هناك أفضل من هذا دليلا على أنى من الدعاة الى مبدأ عدم اللجوء إلى العنف ثم بالذات الجنس الثانى أقصد الجنس اللطيف فأنا لا يمكن أن أفكر مجرد تفكير فى مهاجمة الجنس اللطيف. ثم سألتها (هل ضربتك يوما؟ هل

هاجمت يوما أحدا فى الشارع؟ هل اشتكى لك منى أحد؟ لم يحدث)، وأنا لن أتغير بعد هذا السن الذى بلغته فأمدّ يدى غدا بالضرب على أحدهم.

يمكنك أن تطلقى علىّ كل أسماء السخرية التى أعرف أنك تطلقينها علىّ مثل العصفور المهاجر أو العصفور المقيم الذى لا يريد أن يهاجر ويغادر المكان يمكنك أيضا أن تعتبرينى نصف رجل أو رجلا تقريبيا كما تقولين لجيرانك ساخرة منى ويمكنك أن تقللى من شأنى أمام الناس فأنا لم أعد أهتم. ولكنى أقولها لك واضحة إننى لا أفقد وعيى أبدا حتى وأنا مخمور تماما إذ أظل واعيا بدرجة ما بما أفعله لذلك فأنا أسخر من كل أفلامك السينمائية تلك القديمة باللونين الأبيض والأسود، لقد ولدنا فى هذا العالم وعلى كتف كل منا الحمل الثقيل من الآثام المقدّرة له سلفا ولا أحد يختار أى شئ فى هذه الحياة.

هذا هو ما قلته لها مرارا وتكرارا أقسم بهذا على قبر أمى التى ماتت غريقة فى مياه نهر تشينوكا الرمادية اللون ولكن ديابوليك كانت مستعدة دائما للمزيد من الاختراعات والافتراءات فكانت قد بدأت تقول لمن يهمه الأمر إننى مسكون بالشياطين وأننى أسير لإحدى المخلوقات العفريتية من ذوات الذيول المدبّبة والعيون النارية البركانية الملتهبة وكانت ديابوليك تؤكد لمن يهمه الأمر أننى ألعب معها ألعابا تخص العفاريت وأننى عندما تكون وحدها معى فى المنزل وأتكلم فإن الصوت الصادر منى هو صوت الشيطان نفسه.

ذات يوم قالت إنها ستعطينى فرصة أخيرة ينبغى أن أقتنصها إذ لن تكون هناك فرص أخرى فيما بعد ولن تكون هناك أحكام

مخفّفة ولن ينظر أحد إلى حالتى بعين الرأفة. قالت (يمكنك أن تشرب الخمر ولكن بشرط ألا تلوّث بسبب هذا الخمر حياة الناس الذين لا يشربون لأن الخمر تسىء إلى الذين لا يشربون بأكثر مما تسىء إلى الذين يشربون). وأنا طبعا متأكد من أن صاحب هذه الآراء والنظريات الفلسفية العظيمة هو جارنا الفيلسوف الذى أقنعها بكل ما يقول وأقنعها كذلك بأنها ضحية الظروف والملابسات. إنه هذا الجار بكل تلك الأقوال التعميمية السبب فى أننى توقفت عن الحوار مع زوجتى لأنى لم أعد أجد ما يمكننى أن أرد به عليها، فى البداية كنت أقول لها إنه لم يدرس الطب فى باريس حتى يجد لنفسه الحق فى أن يتحدّث إلينا بهذه الطريقة.

ولكنى كنت قد حاولت أن أشرح لها بطلان نظريتها (نظرية الفيلسوف) المشار إليها أعلاه فإن ما أشربه أنا يصل إلى معدتى أنا لا إلى معدتها هى وهو ليس مثل التدخين السلبى الذى قد ينتقل بعضه من المدّخن إلى من يجاور المدّخن فلكل منا أمعاؤه وبنكرياسه وحوصلته الصفراء وأنه حسب معلوماتى الطبية المتواضعة ليست هناك قناة غير مرئية تصل بين معدتى ومعدتها، هكذا أجبت على ديابوليك وانتقل كلامى بالطبع إلى جارنا الفيلسوف، وحيث إنها كانت قد قالت إن تلك هى فرصتى الأخيرة فقد انتظرت حتى أرى تصرفها التالى وما هى الخطة التى ستتبعها بعد أن رفضت الانصياع لها.

قالت (لم أكن أمزح عندما قلت إنها فرصتك الأخيرة وأعتقد الآن أن نهاية القصة ستكون سيئة) فضحكت قائلا (كلام ... كلام لا نأخذ منك غير الكلام). لم تفعل أى شىء واستمرت الحياة بيننا

على وتيرتها الأولى واستأنفت الذهاب إلى المشرب كل يوم حيث أتجرّع النبيذ الأحمر لأنسى أننى متزوج. وذات يوم جاءتنى فى المشرب مجموعة من جيرانى المسلمين قائلين إن زوجتى قد عضّها ثعبان فقلت على الفور إننى لست متزوّجا وإن قصة عضة الثعبان تلك لا يصدقها حتى الأطفال فوقفوا أمامى وهم يردّدون كلمات فهمت منها إنهم يتمنون أن يأخذ الله منى هذه الحياة التى لا أستحق أن أحياها وأننى أصبحت ظل إنسان أو شبحا أو هيكلا عظميا دون مقبرة.

فى الواقع لم يذكر جيرانى المسلمون إلا الحقيقة وفعلا كان ثعبان قد عضّ زوجتى واحد من تلك الثعابين السوداء التى تتكاثر فى حيّنا حىّ الترواسان وبالتالى تزايدت أعدادها جدا كما لو أنهما لم تعد لهما أماكن كافية فى الغابات وأحراش السافانا المحيطة فبدأت مثل غيرهما من الكائنات فى عمليات هجرة منظمة من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية ثم لم تجد لها هدفا بعد ذلك إلا عضّ زوجتى ديابوليك، لم أفعل أى شىء كرد فعل لهذه الأنباء إذ اعتقدت أنه ليس فى يدى ما أفعله كما أن أفكارى كانت بعيدة تماما. ولكن يبدو أن مسألة عضّة الثعبان تلك هى التى عجّلت بإنهاء الأمور.

(٣٠)

وهكذا حدث فى يوم مشمس أن حضر كل أفراد عائلة زوجتى إلى منزلنا وعقدوا فيما بينهم اجتماع قمّة مغلق لمناقشة مسألة إعلان الحرب العرقية على العبد لله تلك الحرب التى عادة ما تقوم على أساس اختلاف الأجناس وكان موضوعها شخصى الضعيف إذ

أصبحت أنا زجاج مكسور فى قلب تلك المحاورات البيزنطية العابثة غير المجدية ثم أصدروا مرسوما أو بيانا رسميا بخصوصى به قرار إدانتى غيابيا حيث إننى لم أظهر أبدا أمام منصّة قضائهم، كنت قد شعرت بغريزتى مسبقا بهذه الأحبولة التى يريد هؤلاء الناس لفها حول عنقى فهجرت منزل الزوجية قبلها بيوم وإلا لكنت قد وقعت فريسة فى مخالب هؤلاء المفترسين المعتدين على حقوق الإنسان المعكرين للصفو العام المولودين من رحم الفوضى والكراهية.

هذا بالطبع إلى جانب المشاعر المريرة لديابوليك التى كانت تعرف بالضبط أين يمكنهم العثور على شخصى الضعيف وهكذا قادت هذه المجموعة العائلية المختارة من البشر إلى المشرب عبر شوارع حىّ التروواسان حتى شارع الاستقلال وقد اعتقد بعض المارة أن المسألة تتعلق بمظاهرة أو اعتصام أو إضراب وذلك لأن المنظر العام لأهل زوجتى يدعو إلى الاعتقاد فى أنهم مجموعة من شحّاذى الطرقات المعدمين المتسكعين من مرتدى الملابس التى استعملت إلى حد البلى وهذا طبيعى إذ إنهم من فقراء عشوائيات أطراف المدن الكبرى ولا يفهمون فى أى شىء عدا فلاحة الأرض ومراقبة مواسم الأمطار.

لكنهم من الناحية النفسية كانوا جشعين طمّاعين لدرجة الاستعداد لبيع الأرواح الميتة لمن يرغب فى شرائها، ثم إنهم ليسوا متحضّرين إذ إنهم لم يتعلموا أبدا الجلوس إلى مائدة لتناول الطعام باستعمال الشوك والملاعق والسكاكين. هم أناس قضوا كل حياتهم البائسة المتشردة فى تتبّع فئران النخيل والسناجب وفى اصطياد السمك، ونحن لا نستطيع أن نتناقش معهم فى أى مسألة ثقافية وهم ممن ينطبق عليهم قول المغنى ذى الشارب الكثيف فى أغنيته إن حجم قدراتهم العقلية لا يزيد عن حجم كستبان الخياطة.

وهكذا فإن رجال الكهوف أولئك جاءوا إلى المشرب لانتزاعى من مشاغلى النبيلة حيث قرأوا علنا القرار بإدانتى الذى كانوا قد أصدروه غيابيا وقالوا إنهم قرروا اصطحابى عنوة وقهرا إلى أحد الطوطميين من الوسطاء الروحانيين لعلاجى من داء الخمر وهو فى نفس الوقت ساحر مشهور اسمه زيروفوت (وهذا الاسم بالفرنسية يعنى: من لا يخطئ أبدا) وسيطلبون منه أن يطرد من جسمى الشيطان الصغير الذى يسكنه وأن يطرد من روحى عبادة هذا الشيطان........... هل كنت مجبرا على الذهاب معهم إلى ذلك السخيف المدعو (زيروفوت)؟

رغم أننى لم أكن خائفا إلا أننى صحت

(اتركونى فى حالى لماذا يضايقكم شربى للخمر؟ لماذا كلكم ضدّى؟ أنا لا أريد الذهاب إلى زيروفوت).

فقالوا فى جوقة واحدة

(ليست لديك أى خيارات أخرى يجب أن تأتى معنا حتى لو اضطررنا إلى نقلك فى عربة يد بعجلتين).

صرخت كما لو كنت ضبعا سقط فى فخّ صيّادين

(لا لا لا .... أفضل أن تقتلونى هنا على أن أذهب معكم إلى زيروفوت).

ولأنهم كانوا كثيرين فقد تمكنوا من القبض علىّ الا أنهم بهجومهم كلهم مرة واحدة أفقدونى توازنى ثم بعد ذلك ثبّتونى فى مكانى وبدأوا فى تهديدى فصرخت من جديد:

(العار عليكم يا قليلى الإيمان أنتم لن تستطيعوا إيذائى لأنه كيف يمكنكم إيذاء زجاج مكسور؟ إذ إنه مكسور فعلا).

وضعونى غصبا واقتدارا فوق عربة يد بعجلتين فضحك منى كل أهل الحىّ الواقفين على الناحيتين يتفرّجون وذلك لأن هذه الطريقة فى النقل هى التى اعتاد أهل الحىّ على استعمالها فى نقل أكياس الأسمنت، وأنا طوال الطريق لم أتوقّف عن التلفّظ بإهانات لذلك المدعو زيروفوت فى حين كانت زوجتى تتحدّث إلى الآخرين عن الثعبان الأسود الذى عضّها وسمعتها تقول:

(إنه هو زوجى الذى جلب هذا الثعبان إلى منزلنا ليعضّنى هو الذى طلبه من الشيطان فأرسله إليه فأنا طوال حياتى لم يعضّنى أبدا أى ثعبان).

وكنت أقول:

(إذا كان ذلك ثعبانا أسود فكيف تمكنت من رؤية لونه الأسود فى الظلام الحالك لتلك الليلة الليلاء؟).

هنا اقتربت منى وحاولت أن تقلب عربة اليد ذات العجلتين التى كانوا ينقلوننى عليها إلا أن خالتها تمكنت من تهدئة أعصابها قائلة:

(تمالكى أعصابك يا بنت أختى فإن زيرو فوت سيتكفل به فورا وسنعرف الحكاية الحقيقية لذلك الشيطان الأسود الذى لن يستطيع أن يستمر فى تناول نفس الطعام الذى يتناول منه آلهتنا الطيبون).

كنت أدندن بنغم لم أعد أتذكره يجوز أنها كانت أغنية (سالومون) لأنى كنت مثل العصفور المحبوس فى قفص الذى لا

نستطيع أن نسأله لماذا يدندن رغم حبسه فى قفص، وكانت عربة اليد ذات العجلتين تصدر صوتا متحشرجا أثناء دفعهم لها وكادت أن تتقلب بى أكثر من مرة إذ إن أقارب ديابوليك كانوا يتبادلون فيما بينهم مهمّة دفع العربة وأنا بداخلها ولكنى تمكنت بمعجزة من البقاء داخلها وبدأت فى محاولة مضايقتهم بالأصوات والروائح الكريهة التى أخرجها من مصارينى بل إننى قد هدّدتهم بالتبوّل والتبرّز.

وصلنا أخيرا إلى قمّة التلّ إلى الجهة الأخرى من نهر تشينوكا حيث يقيم زيروفوت الذى وجدناه واقفا أمام كوخه القديم وعندما رآنا نقترب منه بدأ فى الكلام بصوت مرتفع قائلا:

(اخلعوا أحذيتكم القذرة أيها الكفّار وابعدوا عنى أفكاركم القذرة فأنتم هنا الآن عندى فى مملكة الأجداد).

نفّذ كل ناس القافلة أمره بخلع الأحذية كما لو أن كلماته تلك قد صدرت من الروح القدس نفسه وقد خلعت زوجتى حذائى بالقوة وقذفت به بعيدا فى أحد الأركان صرخت:

(حذائى لا تنسى حذائى لا أريد أن أفقد حذائى ليس لدى إلا هو).

عندما قدّموا هداياهم إلى زيروفوت بدت على وجهه بوضوح ملامح السعادة وكان يغنى لحنا من مقام الدو ماجير(*) الذى لا يحتوى على أى نغمات بيمول (ناقصة نصف تون) أو دييز (زائدة

(*) Do Majeur

نصف تون) إلا أنه أثناء غنائه خرجت من فمه أصوات نشـ
بالإضافة إلى ملامحه وتصرّفاته المريبة وبالتالى أدركت على الفر
أن هذا الزيروفوت ليس معالجا روحانيا حقيقيا وأنه ليس إ
ساحرا مزيفا. إنه أقرب شبها إلى ذلك المدعو مو ييه كيه الذ
تحدّثت عنه هنا فى بداية الجزء الثانى من كتابى هذا وهو الجـ
المعنون (مجموعة الوريقات الأخيرة) والذى أراد يوما ما أن يجع
من القاضى رجلا ثريا.

ثم إن زيروفوت لم يكن لا معالجا روحانيا ولا ساحرا لا هـ
ولا ذاك فأنا أستطيع بسهولة تمييز السحرة الحقيقيين وهو لم يكـ
حتى نصّابا لطيفا ذكيّا ولكنه فى الحقيقة لم يكن إلا نصّابا غشيـ
كبيرا وقد تحدّيته على الفور قائلا:

(إذا كنت ساحرا حقيقيا فاذكر لى زمان ومكان مولدى كـ
يفعل السحرة الحقيقيون أمام كل هؤلاء الشهود ثم تحدّث قليلا ع
شجرة عائلتى لتعطنا الدليل على علمك الغزير وعلى تمكنك م
تلك العلوم الباطنية الخفيّة).

وهكذا وجّه إلىّ أفراد أسرة زوجتى نظرات الاستنكار رغـ
أنهم قادرون على بيع أرواح الموتى وصاحوا فى وجهى بطريقة
استنكارية كأنهم يحرّضونه علىّ وكأننى حمار جاهل وطلبوا منى أ
أتوقّف عن لعب الدور الفكاهى التمثيلى الذى حسب قولهم كنـ
أقوم بأدائه خوفا من إثارة الغضب الإلهى أثناء انتقال الموجا
الأثيرية بين زيروفوت من ناحية والأجداد والأسلاف من ناحيـ
أخرى ثم دفعونى لألتصق بالحائط. وبدون أن أفقد جرأتى عل
عرض وجهة نظرى أضفت.

(فى لوبولو قرية مسقط رأسى يستطيع السحرة الحقيقيون أن يعطوا لك كل المعلومات التى تطلبها منهم مثل مكان وزمان ميلادك أما أنت فلا تقدر على هذا لأنك لست ساحرا حقيقيا).

وهكذا أصبح التوتر يسود الجو وصاحت زوجتى:

(زجاج مكسور ألا تستطيع أن تغلق فمك لحظة واحدة بالمفتاح وتترك زيروفوت يعمل).

ولكنى لم أتوقف عن الكلام بل تماديت فى تثبيت المزيد من المسامير فى نعشى قائلا:

(إن هذا الرجل هو دجّال ومحتال من الدرجة الأولى إنه ليس ساحرا ولا معالجا روحانيا حقيقيا إنه يريد فقط ابتلاع نقودكم مثلما يفعل كل كبار النصّابين فى بلدنا هذا عندما يأكلون نقود المواطنين الشرفاء إنه هو الشيطان وليس أنا أقول له عد إلى الوراء أيها الشيطان).

أهانتنى عائلة زوجتى بسبب ما اعتبروه هرطقات كررتها أمامهم فصاحت زوجتى:

(اسكت الآن يا زجاج لماذا تتحدّث هكذا مع رجل يخافه كل الناس فى حيّنا هل أنت مجنون؟).

فما كان منّى إلا أن قمت بعمل حركة بذراعىّ لها معنى توجيه الإهانة إلى الشخص الذى أمامى ثم بصقت على الأرض قال حماى:

(حقا إن زوجك هذا ليس هو نفسه زوجك الذى عرفته سابقا).

وقالت حماتى بدروها:

(ليسمح لنا الله بأن نطلب له الغفران بسبب هذه الضلالات التى يقولها لم أكن أعرف أن الشيطان يمكنه أن يضع مثل هذا التجديف فى فم أحد المخلوقات).

قال أحد إخوة زوجتى:

(إنه ليس أحد مخلوقات الله إذ إنه ضد المسيح على طول الخط).

ثم تحدّث كل قروى فظ وكل قروية فظة وكل البقية من البرابرة المتوحشين بنفس هذه المعانى. ثم عادت زوجتى إلى الحديث لأنها كما تقول تريد أن تعيد الأمور إلى نصابها فقالت:

(زجاج مكسور أطلب منك أن تقدّم فورا اعتذاراتك لزيروفوت وكذلك إلى كل الأجداد والأسلاف الذين يطلون علينا من سمائهم فى نفس تلك اللحظة لأنه بسببك أنت لم يتمكنوا من نقل الرسالة التى ينتظرها زيروفوت منهم).

فى تلك الأثناء كان زيروفوت يتظاهر بالانشغال بالتأمّل ثم أخيرا تحدّث متنهّدا:

(يا سيدتى أشكرك على هذه الكلمات العاقلة الحكيمة ولكن أرجو أن تفهمى جيدا أن من يسكن جسد زوجك هو الشيطان نفسه وأن من يتحدّث بلسان زوجك هو الشيطان نفسه ولكنى أعدك بأننا سنخرج هذا الشيطان من جسده يجب أن تثقى بى فإن اسمى زيروفوت لم يأت من الفراغ ولم يأت بالصدفة فكما تعلمون جميعا أنى كافحت ضد أرواح شريرة أكثر خطرا وتمرّدا من ذلك بكثير).

تملكنى الغضب من جديد وصحت:

(توقف عن تلك الحماقات أيها النصّاب الكاذب بائع الأوهام بل أيها الرأسمالى الانتهازى وعد إلى الوراء أيها الشيطان).

فقد زيروفوت أعصابه فجأة وبالتالى فقد السيطرة على تصرفاته وظهرت على وجهه ابتسامته الأكثر اصفرارا من المعتاد وأصدر صريرا بما تبقى له من أسنانه المتآكلة المتكلّسة وهذا هو بالضبط ما كنت أسعى إليه أن أخرجه عن شعوره. قال:

(أنت إذن تعتبرنى أنا رأسماليا نهّازا للفرص؟ هل أنت تقصدنى أنا عندما تتحدث عن الرأسمالى نهّاز الفرص؟ هل تجرؤ على أن تكرر من جديد تجديفاتك وهرطقاتك أمام الأجداد؟ وأمام أقنعة الأسلاف؟ إذا حدث وكررت كلامك فأنا سأحوّل فمك هذا الذى تتحدث به إلى فم خنزير).

(نعم أنت رأسمالى لأنك بشر تستغل غيرك من البشر عد إلى الوراء أيها الشيطان).

زاد غضبه ثم وجّه كلامه إلى زوجتى.

(انصتى جيدا يا سيدتى أنا لا أستطيع أن أقوم بعملى كما ينبغى فى مثل هذه الظروف إذ إن زوجك لا يحترمنى وبالتالى فهو لا يحترم الأسلاف ثم إنه يجرؤ على اعتبارى رأسماليا وأنا مستعد أن أقبل أى شىء من الشيطان إلا أن يعتبرنى أحدٌ رأسماليا قولى لى هل أنا أستغل الفقراء؟ هل أنا أشجّع استغلال الإنسان لأخيه الإنسان؟ أنا مهما حدث سأظل ألقب زيروفوت واسألى أى شخص سيقول لك إننى أعدت البصر إلى العميان وأعدت السيقان إلى

المشلولين وأعدت الصوت إلى البُكم وأعدت البويضات إلى السيدات العقيمات بل إننى أعدت الانتصاب إلى الرجال الذين كانوا قد فقدوا انتصابهم فقدوه حتى عندما يتبولون صباحا بعد الاستيقاظ فى اللحظة التى ينتفخ فيها هذا العضو بالبول بالمناسبة هل تعرفون أننى ساعدت عمدة هذه المدينة حتى يعاد انتخابه مدى الحياة ولن أتحدث هنا عن مساعدتى التلاميذ على اجتياز الامتحانات ولن أتحدث عن وظائف الحكومة التى سمحت بالحصول عليها لأناس لم يذهبوا أصلا إلى المدارس ولن أتحدث عن دورى فى عودة زوجة رئيس شرطة هذه المقاطعة إلى منزل الزوجية من أجل كل هذا يسموننى زيروفوت هل تعرفون أنه عندما يفشل مستشفى أدولف سيسى فى علاج بعض الحالات فإن المرضى البائسين يلجأون إلىّ أنا الشخص الواقف أمامكم بلحمه وعظمه ولكل هذا فإنى عندما أرى أشخاصا أغبياء سخفاء على شاكلة زوجك يأتون إلى هنا محاولين تلطيخ سمعتى الأسطورية والإساءة إلى طهارة ونقاء أقنعة الأسلاف المعلقة أمامكم على الحوائط أقول لنفسى إن هذا العالم محكوم عليه بالفناء وإن المسيح الدجّال قد يصل إلى هنا بواسطة أناس على شاكلة زوجك أقول لك الحق أنا أعتقد أن زوجك جدير بالذهاب إلى حيث يعزلون أصحاب الأمراض العقلية ولهذا أسألكم بالتالى أن تأخذوا معكم هذه الحثالة البشرية وأن تخرجوا الآن من منزلى وتعودوا إلى منازلكم اخرجوا الآن فورا من مكانى هذا المقدّس قبل أن أقذف فى وجوهكم كلكم بمقدّرات بائسة وبتعاويذ تجلب التعاسة).

بدأت فى الضحك فور انتهائه من خطبته العصماء تلك كنت مثل ذئب الوديان الأمريكى الذى يغنى أناشيد زنوج نهر الميسيسيبى

أو على الأقل مثل ذئب الجبال الأوروبى الذى يحاول أن يشارك فى الغناء طبقا لقواعد فن الغناء فى عصر الباروك قلت لزوجتى (لا تنس حذائى فانا أتمسّك به)، أعادت أسرة زوجتى وضعى فى عربة اليد ذات العجلتين لأنهم خافوا أن يقذفهم زيروفوت بتعاويذ فى وجوههم أو بمصائر بائسة كأن تصيب اللعنات أجيالهم القادمة فيجد بعض أطفالهم نفسه بفم خنزير ويجد بعضهم الآخر نفسه بأقدام أو ذيول الخنازير، هكذا أعادونى إلى منزلى بعد أن أصبحت فى نظرهم متخلفا وغبيا ولكنى لحسن الحظ كنت قد نجوت من مخالب ذلك النصّاب الأعظم المدعو زيروفوت.

(٣١)

لكن مع ذلك فإن عذاباتى مع ديابوليك لم تكن قد انتهت بعد وذلك لأنها كانت مستمرة فى الشكوى من حياتنا معا ثم إذا بها تحرمنى من ممارسة حقوقى الزوجية لمدة أيام امتدّت إلى أسابيع ثم شهور فى حين أننى كنت أميل إلى مثل هذا النوع من الممارسات خاصة بعد شرب الخمر لأن هذه الممارسات تكون ألذ وأنت سكران إذ يتولد لديك الانطباع أنك كما لو كنت تطير فى الهواء، لكن فى ذلك الوقت كانت ديابوليك قد فقدت رغباتها الجنسية وقد أكون أنا السبب إذ كنت أفوح حسب قولها برائحة العفن وحسب قولها كذلك أننى لم أعد نفس الرجل بل أصبحت أقرب شبها بالشيطان. لم أتمكن من الحصول على حقوقى الزوجية بالقوة لأن هذا فى نظرى هو أقرب إلى الاغتصاب وهذا لا يتفق مع أخلاقياتى وبالتالى عدت بعد ذلك إلى حياة العزوبية رغم استمرار زواجنا بطريقة شكلية، هكذا تدهورت العلاقة الزوجية بيننا بالتدريج.

ذات يوم أجلستني ديابوليك عند جذع شجرة المانجو وذكرت أن هناك شيئا مهمًا تريد أن تقوله لى ولم أرد أن أسمعها فقلت (اتركينى فى حالى فأنا لن أتحدث معك إلا إذا عادت علاقتنا الزوجية إلى طبيعتها الأولى) فنظرت إلىّ نظرة بها الكثير من الشفقة ثم بدأت تتحدّث بصوت حزين وكادت أن تجعلنى أبكى مذكّرة إيّاى بأن كل الناس فى الحىّ يعرفون الآن أننى مدمن خمور فى حين أننى كنت فى السابق مدرسا ممتازا فى مدرسة (الشهداء الثلاثة) الابتدائية ثم قالت إننى لم أعد أقرأ فى الروايات التى كنت معتادا على القراءة فيها مثل روايات فردريك دارد أليـاس سانت أنطونيو وقصص لافونتان الخيالية ورواية (رسائل الى طاحونتى) لألفونس دوديه ورواية (يوميات قسّ فى الأرياف).

قالت إن بعضا من قدامى تلاميذى يحتفظ لى بذكرى طيبة وإن بعضهم قد أصبح الآن من بين المسئولين المهمين فى هذا البلد ومن بين أصحاب المناصب المهمة فى إدارة هذا البلد وأنهم يذكرون لى كيف أننى كنت المدرس الوحيد من بين مدرسى تلك المدرسة الذى لا يؤذى تلاميذه بضربهم بالسوط أو بالعصا وأننى كنت رجلا مثاليا. ثم ذكّرتنى كيف أنهم رفتونى من وظيفتى بقسوة وكيف أن هذا الحادث هو الفصل المظلم من فصول تاريخ حياتى، ولكن....... هل كان ذلك خطئى؟ هل كنت حقا قد أصبحت غير قادر على إدارة الفصل؟ وغير قادر على إعطاء الدروس لتلاميذى؟ إنهم فقط أصحاب النوايا السيئة الذين أشاعوا ذلك.

أشاعوا عنى أننى كنت أصل دائما متأخرا عن مواعيد فصولى بسبب أننى كنت وقتها قد بدأت فى احتساء الخمر وأشاعوا عنى أننى بسبب سكرى البيّن قد قمت يوما ما بعرض إليتىّ العاريتين.

على تلاميذى مدّعيا أننى أشرح لهم درسا فى تشريح الجسم البشرى ويبدو أننى ذات يوم رسمت عضوا ذكريا ضخما ومنتصبا على سبّورة الفصل ويبدو أننى بدلا من الذهاب إلى دورة المياه كنت قد بدأت أتبوّل فى أركان حجرة الدراسة وكنت قد بدأت أقرص زملائى وزميلاتى المدرسين والمدرسات فى مؤخراتهم وفى مؤخراتهن ويبدو أننى ذات مرة أحضرت معى إلى الفصل زجاجة من نبيذ البلح لأجعل التلاميذ يتذوقونه.

وكما أنه ليست هناك خناقة صغيرة فى هذا العالم المتداعى فقد تمّ تضخيم وتكبير كل أخطائى فأولا تمت إحاطة المفتش المحلى علما بأخلاقى تلك البدائية المتخلفة ثم ثانيا أحيط مفتش شرطة الناحية هو الآخر علما بانحراف الأخلاق المزمن الذى أعانى منه وكان ذلك المفتش فى ذلك الوقت من النوع الذى لا يدع قضية تمر أمامه دون إجراء تفتيش فورى أى أنه من النوع الذى بمجرّد ظهور دمّل فى جسمه يفتحه فورا لإخراج الصديد منه دون انتظار ظهور أعراض الالتهاب والتلوث. وهكذا كان هذا الشرطى المفتش حازما جدا غير قابل لأى تفاوض ولا حتى لمجرد أى نقاش ولم يطلب ببساطة ووضوح إلا رفتى من العمل ثم قال بصوته الضخم الخطير ـ وكأنه نبىّ يقرأ الوصايا العشر من اللوح الحجرى الذى أعطاه له الله (أرسلوا لى هذا المدمن السكير إلى السجن فأنا لا أريد أمثاله فى دائرة تفتيشى إذ إنه يعوق حملتى ضد إدمان الخمور وفى التعيينات القريبة لا أريد أن أفقد منصبى بسببه).

وهكذا أراد بأى ثمن أن يضعنى فى السجن ولكنى رفضت بطريقة حاسمة وغير قابلة للتراجع وفى تلك اللحظة بالذات أحيط

قائد المنطقة علما بموضوعى وهو من النوع الذى لا يقبل أى تهاون يكفى أن تعرفوا أنه يبلغ أكثر من مترين طولا وبالتالى فهو يشعر أنه فوق الجميع ولا يقبل أى شىء إلا تنفيذ أوامره بالحرف الواحد ثم نقطة ومن أول السطر، لا مراجعة على الإطلاق. وقد أكد فكرة المفتش الخاصة بضرورة وضعى فى السجن وسط المجرمين، قلت (لا لا لا ثم لا). وفى هذه اللحظة بالذات أحيط المسئول الجمهورى علما بموضوعى ومع أنه شخص لطيف ومتعاطف إلا أن طريقة تحريكه لمؤخرته مثل امرأة أثناء المشى قد توحى إلى البعض بأنه شاذ جنسيا.

قال المسئول الجمهورى إن السجن هو الحل الوحيد للناس الذين هم على شاكلتى وهكذا لن أتمكن فى السجن من شرب أى صنف من النبيذ عدا نبيذ البلح وهو أقل شدة من نبيذ سوفينكو الأحمر الذى تقدّمه المشارب قلت (لا لا لا ثم لا). لكن فى هذه اللحظة بالذات أحيط وزير التربية والتعليم علما بموضوعى قال (ما هى هذه الضجة وتلك البلبلة التى تحدث فى حىّ الترواسان حول ذلك المدعو زجاج مدشدش اعلموا أن السكر لا يغفر الغباء والعكس صحيح أى أنه يمكن للإنسان أن يكون مخمورا ومع ذلك يمكنه أن يتصرف بذكاء ضعوا هذا المدمن فى السجن ودعونا لا نتحدث عنه مرة أخرى بعد ذلك البتة). وهكذا تحولت كرة الثلج أثناء جريانها على الثلج إلى جبل ثلج وهكذا سيداتى سادتى تحولت المسألة الشخصية الصغيرة إلى قضية أمن قومى تخص الجميع «أُسجن أو لا أُسجن هذا هو السؤال»(*).

(*) that is the question

بالتالى بدأ أولياء أمور التلاميذ فى سحب أبنائهم من فصلى ثم بدأت الإدارة فى حرمانى من الطباشير إذ توقفوا فجأة عن تزويدى به لأنى يجوز ـ على ما يبدو ـ كنت آكله أو يجوز ـ على ما يبدو ـ أننى كنت أكسره وأدهسه بقدمى مشيا فوقه ثم توقفوا عن تزويدى بأقلام الكتابة لأنى يجوز على ما يبدو كنت قد بدأت أخلط بينها وبين مقياس الحرارة الذى يقيس الحرارة بوضعه فى الفم أو بوضعه فى مكان آخر يمكنكم أن تتخيّلوه دون أن أذكره لكم ثم توقفوا بعد ذلك عن تزويدى بالأقلام الملونة المختلفة الألوان التى يمكن أن نكتب بها على سبورة بيضاء لأنى يجوز ـ على ما يبدو ـ لم أعد أميّز جيدا بين الألوان عدا اللونين (الأحمر والأسود) وهو كما تعرفون عنوان رواية للأديب الفرنسى (ستاندال).

ثم توقفوا عن تزويدى بالوسائط التدريسية الخاصة بمادة الهندسة وقياس الأرض لأنى يجوز على ما يبدو لم أعد قادرا على رسم خط واحد مستقيم تمام الاستقامة وهو الخط الذى يعرّف بأنه الواصل بأقصر الطرق بين نقطتين. ثم توقفوا عن تزويدى بخريطة بلادى لأنى يجوز ـ وعلى ما يبدو ـ كنت أستعمل اسمها القديم ـ اسمها على زمن الملكية والاحتلال الأجنبى بدلا من نطق اسمها الجديد الذى حصلت عليه بعد الاستقلال.

قلت بصوت عال ليسمعنى الجميع (لم أعد أهتم لأنى لم أعد فى حاجة إلى كل ما كنتم تزوّدونى به حتى أتمكن من ممارسة مهنتى ويمكننى أن أتصرف بما هو فقط متاح ليدى لم أعد أهتم لا بالأقلام الحبر ولا بالطباشير ولا بالمساطر ولا بخريطة بلادنا لأنه بلد زبالة وضعوا لنا حدوده على الخريطة رسمها لنا الاستعماريون

البيض عندما احتفلوا سويا باقتسام كعكة استعمار إفريقيا فى مؤتمر برلين إذن فإن هذا البلد ليس له وجود وإنما هو محميّة طبيعية تموت حيواناتها ـ نحن ـ من القحط والمجاعة).

وهكذا ذات يوم وكنت ثملا جذلا وصلت إلى الفصل حيث لم أجد إلا تلميذا واحدا جالسا وحده فى نهاية الفصل فى الصفّ الأخير ولحسن الحظ كان واحدا من أفضل تلاميذى طلبت منه أن يتقدّم ويجلس فى مكان بالصفّ الأول وطلبت منه أن يكون فخورا بالنهم إلى المعرفة الذى يكلل رأسه الصغيرة الملائكية ثم قررت أن أقوم بأداء واجبى التعليمى وأشرح الدرس أثناء الحصّة لهذا التلميذ الوحيد هذا الملاك الصغير الذى كان ينظر إلىّ بعطف وشفقة لأنه كان ملاكا حقيقيا بعينيه البريئتين ونظرته المتعاطفة المتسامحة وقد ظل فى الفصل وحده معى إذ إن أحدا من بقية زملائه لم يظهر فيه وكان قد وضع حاجياته على المائدة أمامه كرّاس الدرس وقاموس الجيب الصغير ومبراة الأقلام والقلم الرصاص والممحاة والقلم الجاف ماركة بيك[١] وزجاجة مياه معدنية ماركة مايو[٢].

قررت أن أشرح له درس جمع الكلمات أى طرق تحويل المفرد إلى الجمع ولكنى قبل أن أبدأ ما زلت أتذكر أننى كنت قد قلت له تقريبا هذه الكلمات (أشكرك يا صغيرى على مجيئك قد تكون هذه هى المرة الأخيرة التى أعطى فيها درسا فى هذه المدرسة إن الربّ هو الذى أرسلك إلىّ وأنت ستكون فى مستقبل حياتك رجلا مهما رجلا حقيقيا أشعر بذلك مسبّقا لهذا السبب فأنا سأشرح لك

---

(١) Bic
(٢) Mayo

درسا مهما فى التعبير التحريرى درس جمع الكلمات وهو درس مهم فى الحياة يا صغيرى وكل الدروس الباقية ستأتى وحدها فى الحياة لاحقا بعد هذا الدرس وذلك لأن الحياة فى صميمها هى مجرّد قصة عادية تافهة مكررة للصراع اليومى بين المفرد والجمع أى بين الفرد والجماعة فيتحابون أحيانا ويتصارعون أحيانا وقد يصل بهم الأمر إلى احتقار بعضهم بعضا ولكن الحياة تحكم عليهم بأن يظلوا يعيشون معا.........افتح إذن كراسك وانسخ فيها ما سأكتبه أمامك على السبّورة).

(احفظ بشكل عام أن جميع الكلمات العامة فى اللغة الفرنسية أى الكلمات التى نستعملها فى تسمية الأشياء بأسمائها[1] يكون شكل الجمع فيها هو بإضافة s إلى نهاية شكل المفرد مع ملاحظة أن المفرد والجمع يكونان متشابهين فى الكلمات التى تنتهى بالحروف s x z كما فى كلمات خشب/ bois ونواة/ noix وأنف/ nez ثم لاحقا سندرس جمع الكلمات المركبة من كلمتين مثل كلمات صندوق الخزانة[2]والفناء الخلفى[3] ونازع السدادات[4] وسنرى كذلك جمع الكلمات الأجنبية مثل بيتزا/ pizza أو مباراة/ match)

فى هذه اللحظة حدث هرج ومرج خارج الفصل وسمعت بعض الأصوات المرتفعة الغاضبة ثم فى لحظة واحدة اقتحم الفصل عدد كبير من الدخلاء استدرت لأجد عشرة من جنود القوات الخاصة

---

(١) noms communs

(٢) coffre-fort

(٣) basse- cour

(٤) tire-bouchon

داخل الفصل وهم يصيحون فى وجهى وكان فى صحبتهم والد ووالدة التلميذ الوحيد تلميذى الأخير هذا الجالس أمامى الذى بدأ فى البكاء عندما أراد والداه إخراجه من الفصل إذ إنه لم يكن يريد أن يخرج من الفصل لأنه كان يريد متابعة الدرس حتى نهايته وذلك تمهيدا لمتابعة طريقه التعليمى حتى نهايته وذلك حتى لا يندم فى مستقبل أيامه على ذكريات طفولته الغابرة إلا أن الجنود بدأوا فى ضربى بأحذيتهم الثقيلة على مؤخرّتى فتحولت فى لحظة إلى شيطان لأدافع عن نفسى وحاول التلميذ وهو يبكى أن يدافع عنى فكاد أن يتعرّض لبطش الجنود فقررت فى هذه اللحظة التوقف عن الاقتتال وتسليم نفسى ثم قلت للملاك الصغير (أشكرك يا ملاكى أنت أعظم من كل هؤلاء الذين يقذفوننى بالأحجار إنك الأعظم لأنك الوحيد الذى يفهم إن صليبى ثقيل ولكنى سأحمله وحدى حتى نهاية الطريق بدون نواح وشكوى أرجوك توقف عن البكاء وسنلتقى فى الجنة). فأشار لى بيده وبدأ فى تجفيف دموعه.

(٣٢)

وقعت على ورقة أتعهّد فيها بعدم وضع قدمى مرة أخرى فى منطقة محيط المدرسة فقلت بصوت قوى مرتفع (لم أعد أهتم ولن يغيّر هذا الوضع الجديد من حياتى فى شىء) ثم أصدروا قرارا بوقفى عن العمل وتكليف مدرسة عجوز بتلاميذ فصلى وانتظرت أن يتطور الوضع ويتمخض عن شىء جديد ومر شهر وشهران بدون أى أخبار ثم بعد أربعة أشهر تلقيت خطابا طويلا من الإدارة التعليمية مكتوبا بطريقة سيئة جدا حتى أننى أضعت نصف يوم لأصلح ما به من أخطاء نحوية. ورغم سخريتى من محتوى الخطاب

إلا أنهم فى واقع الأمر كانوا قد عرضوا علىّ فيه وظيفة جديدة ولكنها فى أحد الأمكنة النائية من البلاد حيث لا يوجد أى شىء ولا حتى الكهرباء فى حين أن لينين زعيم الشيوعيين كان قد قال (إن الشيوعية هى سلطة السوفييت بالإضافة إلى تزويد كل أطراف البلاد بالكهرباء). وهو ما سبق ذكره هنا من قبل عندما كنا نتحدث عن زنوج مجلس وزراء رئيسنا وقائد جيوشنا المعظم.

فى تلك الفترة المضطربة رجتنى ديابوليك أن أقبل العرض الجديد الذى أسمته حل الفرصة الأخيرة وقالت إن الحياة فى الغابة ليست هى نهاية العالم ثم إن تكاليف الحياة هناك أرخص بكثير من تكاليف الحياة فى المدن ولحوم الحيوانات التى يصطادونها فى نفس المكان خلف المنزل الذى ستقيم فيه تباع طازجة بالإضافة إلى أن أسماك النهر هناك تدخل طائعة باختيارها وحرّ إرادتها إلى شباك الصيّادين وهناك تكون أفرع أشجار الفاكهة منخفضة جدا حتى أن الأقزام أنفسهم الذين يعيشون هناك يشتكون من أنهم يضطرون إلى الانحناء للمرور تحتها. وهكذا تخيّلت زوجتى المسكينة أنها قد نجحت فى أن تثبت لى أن الحياة في تلك الأحراش أفضل من الحياة فى المدينة، ثم أضافت أن الموتى هناك لا يقفون فى طابور حتى يتمكنوا من الحصول على مكان للدفن كما يحدث هنا فى مدافن المدينة وذلك لأن جبّانات قرى الأحراش توجد بها دائما أماكن كافية للجميع.

بعد صمت طويل قلت لها (إذن أنت ترين أن الحياة فى الأحراش هى شىء طيب) فشعرت ديابوليك أننى قد أقبل تغيير موقفى وأستلم العمل فى الوظيفة الجديدة وهكذا قالت (زجاج هذا

هو ما أحاول أن أقوله لك مرارا وتكرارا منذ عدة أيام ولكنك لا تريد أن تسمعنى وذلك لأنك تتمسّك بالحياة فى المدينة مثلما يتمسّك طفل الكانجورو بالحياة داخل الجيب المعلق بجسم أمه).
أعجبنى التشبيه.

قلت (إذا كانت الحياة هناك أفضل فلماذا لايندفع الناس إلى هناك؟)

قالت (لأنهم حمقى لا أكثر ولا أقل فى حين أنك أنت ذكى وتستطيع أن تفهم أن الحياة فى الأحراش هى الحياة الحقيقية).

قلت وقد بدا بعض القلق على صوتى (هل أنت متأكدة أنهم لا يرسلوننى إلى هناك كنوع من العقاب؟)

قالت (إننا لن نظل طوال اليوم نناقش هذه المسألة إن ذهابك إلى الأحراش هو الحل المثالى لكل منا ستظل تحبنى وسأظل أحبك وسنعيش سعداء بعيدا عن المغتابين النمّامين الحاسدين).

ولإنهاء النقاش أضافت ديابوليك أننى إذا قبلت العرض فإنها ستتركنى أحتسى الخمر هناك كما أريد بل إنها حتى ستتكفل بالبحث لى عن شخص يكون مسئولا صباح كل يوم عن حمل النبيذ إلى المكان الذى سأقيم فيه، وهكذا تخيّلت المسكينة أنه لم تعد لدى أية هموم فيما يتعلق بموضوع إقامتى فى الأحراش ولابد وأننى أشعر الآن بالارتياح التام لهذه المسألة عندما أتخيّل نفسى وزجاجة نبيذ البلح إلى جوارى فى حياتى الجديدة. بدا لها ذلك كما لو كان حلما جميلا وهكذا ينبغى أن أقول فى نفسى (إنها لا تبحث إلا عن سعادتى).

لكن فى واقع الأمر وبعد ذلك الحوار بيومين وجدت أن قلبى قد انقسم إلى جزأين أحدهما مع الذهاب إلى الأدغال والآخر ضد الذهاب إلى الأدغال وهذا الآخر كان يهمس لى قائلا إن الذهاب ما هو إلا فخ ينصب لى. وظل قلبى هكذا يتمايل بين الرأيين حتى شعرت ذات يوم بالعطش الشديد إلى الخمر وكنت قد توقفت خلال الفترة الماضية عن الذهاب إلى المشرب لكنى الآن لم أعد أستطيع مقاومة إغراء الشرب، ذهبت إلى المشرب وعدت منه مخمورا تماما حسب العادة القديمة وكنت فى طريق عودتى أدندن بصوت مرتفع أغنيتى المفضلة (الموت من أجل الأفكار). كنت أسمع فى أذنى صوت ذلك المغنى ذى الشارب الذى يدخن الغليون وهو يغنى، أسمعه فى أذنى بوضوح كأنه يغنى لى وحدى وحدى أنا فقط لينبّهنى وكان يقول بصوته العميق:

(عرفوا كيف يقنعونى/ وقد وقفت إلى جانبهم/ ربّة شعرى المتغطرسة/ فقد ارتدّت عما كانت تؤمن به/ رغم بعض الشك الذى ظل يراودها/ فإذا كان هذا الشىء كالعلقم/ مؤلم ومؤسف ومميت/ يعيد الروح إلى خالقها/ فهذا لأننا سلكنا الطريق الخطأ). وحيث إننى أحفظ هذه الأغنية عن ظهر قلب لهذا لم أرد أن آخذ الطريق الخطأ ولم أرد أن أقتنع بالأفكار الخطأ فلقد علمنى هذا المغنى إن الشخص الذى يدعو غيره الى الموت والتضحية بالذات من أجل أفكار معينة دون أن يعطى غيره القدوة ويضرب لهم المثل هو آخر من يكون جديرا بأن يُتَّبَع. لماذا لا يذهب دعاة الأخلاق أولئك بأنفسهم للحياة فى الأحراش؟ لهذا إذن فقد رفضت أن أذهب إلى المنفى فى تلك المنطقة النائية، لم أرد أن أكون (مخمورا فى الأدغال).

وحيث إننى رفضت بحزم قاطع العرض الذى يعتبره البعض بمثابة انتشال لى من الأوحال فقد انتهزت الإدارة التعليمية هذه الفرصة لرفتى نهائيا من الوظائف العامة وقد كتبوا لى بذلك خطابا فيه تقريبا هذه الأشياء (سيدى العزيز- رغم محاولاتنا المخلصة للخروج بك من الأزمة التى تجد نفسك فيها ورغبتنا الحقيقية فى العثور لك على مخرج مناسب من وضعك الحالى فنحن نقرّ بمزيد من الأسف أنك تظل غير قابل للتفاهم بشكل نهائى وأنك تتمسّك بآرائك بمنتهى العناد مما يدعونا فيما يتعلق بموضوعك إلى إصدار قرار سبق وأن طرحته كفكرة جهات الإدارة المختلفة لوزارة التربية والتعليم القومى وهو قرار ستكون له الكثير من التداعيات لأنه يضطرنا إلى وضع نهاية لتاريخك الوظيفى بدون أى خطوط رجعة ولذلك فنحن نترك لك أسبوعا أخيرا للتفكير فإذا لم يصلنا منك خلاله الردّ على هذا الخطاب سيكون قرار الفصل نهائيا بدءًا من ٢٧ مايو عند منتصف الليل وفقا للفقرة (e) من ملحق (٢) للمادة (٧) ووفقا للفقرة (f) من المادة (٣٤) المعدّلة بالقانون الصادر فى ٨ مارس سنة ١٩٧٧).

قلت فى نفسى (لم أعد أهتم ثم إنى لا أفهم أى شىء فى هذا الخطاب)، ثم ذهبت لأحكى كل هذا إلى صديقى الجديد وقتها القوقع الحلزونى العنيد الذى كان يعانى هو الآخر فى ذلك الوقت من الكثير من المشاكل خاصة مع أهالى المنطقة فيما يتعلق بافتتاحه لمشربه فى البداية وبّخنى قليلا ثم قال لى (هكذا الحياة يوم لك ويوم عليك المهم أن تظل واقفا شامخا على قدميك تاركا شعر رأسك تلعب به الرياح متجاوبا ومتأقلما على أفضل وجه ممكن مع نسختك الخاصة من كتاب الجنّة الضائعة Paradise lost ولم أعد

أتذكر أى شاعر زنجى إفريقى سبق له أن قال مثل هذا الكلام ولكن من المؤكد أنه واحد من الشعراء الذين ينسخ أشعارهم ويقلدها العديد من الشعراء الجدد قليلى الموهبة البائسين اليائسين الذين يتقاسمون فيما بينهم بدم بارد إرثنا الشعرى وتراثنا النثرى).

يجب أن أذكر هنا أن ديابوليك لم تفهم أبدا سبب شغفى الشديد باحتساء الخمر وكانت تحاول أن تجد مبررا لذلك قدر استطاعتها وكانت تعتقد أن وفاة أمى هو أحد الأسباب المحتملة ولكن ماذا تعرف هى حقا عن هذه الوفاة؟ ماذا تستطيع أن تقول أكثر مما يقوله خنازير حى التروا‌سان؟ لم أكن أحبها أن تثير موضوع وفاة أمى، ففى تلك الحالة كنت أشعر بالغضب وأصبح أكثر ميلا للعدوانية ولكنى كنت أحاول دائما أن أتحكم فى انفعالاتى وألا أترك نفسى أنجرف وراء مشاعر الغضب فأنا مثلا لم أنتقد أبدا أمها التى كانت إحدى عينيها أصغر من الأخرى ولم أنتقد أبدا أباها الذى كانت إحدى قدميه مشوّهة وكان لديه فتق اربى بين فخذيه يتدلى حتى ساقيه.

لكن ديابوليك كانت تتجاوز حدودها وكانت تصرّ على إثارة الموضوع فتعود إلى إزعاج روح والدتى الباحثة عن الراحة الأبدية ولا يصح أن نلعب بهذه الطريقة مع الموتى، ثم إنه لوضع الأشياء فى سياقها يجب أن أوضح أننى لم أنتظر وفاة أمى حتى أبدأ فى احتساء الخمر وإن كنت أقرّ وأعترف بأن موتها قد عجّل بعض الشىء من تسارع الأحداث ولكنى بشكل عام أشعر بالحزن وأرفض أن تربط ديابوليك بين وفاة أمى وبين حبّى للخمر. كان من الواضح أنه لا يمكننى أن أترك ديابوليك تصل إلى مثل هذا الاستنتاج بل

يمكننى حتى أن أقول إن معدّل استهلاكى لزجاجات الخمر كان قد انخفض فى الأسابيع التى تلت حادث وفاة أمى وكان مثل ذلك التصرّف هو بمثابة نوع من أنواع إعلان الحداد بل نوع من أنواع الاحترام الذى أدين به لأمى، ولم أعد إلى استهلاكى المعتاد للخمر إلا بعد أن كنت تأكدت من أن جثمان أمى الذى اختفى فى مياه نهر تشينوكا لن يظهر أبدا بعد ذلك ولن يعود إلى الوجود وهو ما يعنى أن روحها قد وصلت بسلام إلى جنة عدن.

فإذا كانت أمى قد ماتت غرقا فى المياه الرمادية لنهر تشينوكا فهذا لم يكن خطؤها إن تلك القصة فى الواقع غامضة وسأحاول أن أعالجها هنا بكلمتين أو بثلاث كلمات حتى تصبح المسألة أكثر وضوحا من المياه الغامضة لذلك النهر ثم لا ينبغى الخلط بين الموتى رغم أن جلودهم تصبح متشابهة، ففى ليلة رحيل أمى إلى العالم الآخر حدثت لها أمور كابوسية غير معقولة إذ إنها تحركت من فراشها وهى نائمة بعينين مغلقتين وبفم مفتوح فغادرت سريرها وذهبت باتجاه باب الكوخ الذى تسكنه لتفتحه ومشت خارج الكوخ بذراعيها مفرودين أمامها كما لو أن هناك قوة خفية غير مرئية تقودها من هذين الذراعين ذاهبة فى اتجاه شاطئ النهر لتلقى مصيرها المحتوم وتلحق بأبى فى العالم الآخر.

أبى هذا الذى لم أعرفه كانت له سمعة أفضل من يفتح زجاجات نبيذ البلح فى قرية مسقط رأسى لوبولو وكان يجمع بين هوايته لنبيذ البلح وهوايته لموسيقى الجاز وهكذا فإن رجالا من أمثال كولتران وأرمسترونج ودافيس ومونك وباركر وبيشيه وآخرين من أقرانهم الزنوج عازفى آلات الترومبيت والكلارينيت كان يعرف

كل ألحانهم التى ألفوها أثناء عملهم فى حقول القطن والبن ليتغلبوا بها على أحزان أرض أجدادهم وليقاوموا بها ضربات سياط المستعمرين الذين استعبدوهم ولم يكونوا يفهمون كيف للعصفور المحبوس فى قفصه أن يغنى، إذن كان أبى شديد التعلق بهذه الموسيقى التى اخترعتها الأيادى السوداء ويبدو أنه كان قد جمع منها عددا كبيرا من الأسطوانات الموسيقية ٣٣ لفة و٤٥ لفة لكل ما أبدعته أيدى أولئك الزنوج العباقرة من عازفى الترومبيت والكلارينيت.

يبدو أن أبى كان قد مات بسبب موضوع يتعلق بالسحر إذ أطلقت عليه رصاصة قاتلة لم يكن يستطيع أن يتجنبها إلا إذا كانت له أربعة أعين حيث إن الرصاصة كانت قد أطلقت على ظهره فى أثناء نومه وذلك لأنه كان معتادا على النوم على بطنه، وقد جاءته تحذيرات من عدد من سحرة قريته الذين يبدو أنهم كانوا يعرفون مسبقا أن من سيطلق عليه الرصاص هو عمّه بخصوص مسألة تتعلق بالميراث أى حتى يرث عنه الأدوات التى يستعملها فى مهنته ويرث عنه كذلك الأسطوانات الموسيقية ٣٣ لفة و٤٥ لفة للزنوج من عازفى الترومبيت والكلارينيت. تلك هى القصة التى تبدو لى أحيانا معقّدة جدا والتى حاولت أمى أن تحكيها لى وتقنعنى بأنها السبب فى تركنا قرية لوبولو هاربين إلى المدينة.

تقول إن قرار الهجرة من القرية كان لحمايتى من سحر أولئك الذين كانوا يكرهوننى ويحقدون على أبى حتى بعد موته. ثم عندما حكت عن تلك الرصاصة التى انطلقت لتصيبه فى ظهره تقول إنه كانت قد بدت على وجهى ملامح عدم التصديق رغم أننى فى ذلك

الوقت كنت بالكاد فى الثانية من العمر. فيما بعد قيل لى إننى لا أحمل ملامح أبى بل بالأحرى أحمل ملامح قاتله ذلك القاتل الجبان الحقير الذى قتل أبى بمنتهى الخسّة ليرث عنه أدواته وتسجيلاته الموسيقية من أسطوانات ٣٣ لفة و٤٥ لفة للزنوج من عازفى الترومبيت والكلارينيت.

ويبدو لى أن موت أمى لا يقل غموضا عن موت أبى وقد نشرت الجرائد الخبر فى صفحة الحوادث عن موت تلك المرأة الشجاعة أمى تحت العنوان التالى (العثور على جسد امرأة عجوز على ضفة نهر تشينوكا) ولهذا السبب فإنى كلما مررت هناك أسبّ المياه وألعنها ثم أبصق على الأرض وأقذف بعدد من الأحجار بعيدا فى مجرى المياه جالبة الشرور وأصرخ (هذا ظلم)، كنت فى الأصل أتحدث عن موت أمّى، ثم انحرفت إلى قصبة موت أبى ولكنى هأنذا أعود من جديد إلى قصة موت أمّى. يبدو أن أمّى قد ماتت وهى تعانى من كابوس إذ إنها كانت قد قامت من فراشها وهى نائمة ومشت حتى نهر تشينوكا لتعيد لعب أحد الأدوار القديمة فى قصص الكتاب المقدّس وهو دور لعبة المشى على الماء ثم حدث وهى تمشى أن ابتلعتها تلك المياه الرمادية للنهر فى معدتها. هل كانت أمى تريد الذهاب لتلحق بأبى فى العالم الآخر؟

بعد قليل قذفت بها هذه المياه إلى ضفة النهر فى صورة جثة هامدة وحطام إنسانة كأن تلك المياه أرادت أن تقول لها (نحن لا نريد أجساما اختزلت إلى هياكل عظمية). ثم عثر عمّال نظافة ضفاف النهر على هذه الجثة المشوّهة بعد أن كانت الأسماك المتوحّشة التى تشعر بالملل فى مياه النهر الملوّثة قد قضمت منها

بعض الأجزاء، ثم أقيمت ليلة العزاء فى منزلنا أنا وديابوليك، كان جسد أمى مسجّى عند المدخل كما تقتضى عاداتنا القروية، وفيما يتعلق بكل ما حدث فى تلك الليلة أستطيع أن أقول (شكرا يا ديابوليك) فهى لم تدّخر جهدا فى القيام بالواجب على أفضل وجه.

فهى مثلا قامت بالتنقل بين منازل الحىّ حاملة معها كراس المساعدات لتسجل فيها التبرعات التى يتبرع بها الجيران لمساعدة عائلة المتوفى حسب عاداتنا القروية ويوقع فيها كل جار فى صفحة مستقلة إلى جوار المبلغ الذى ينوى التبرّع به لمعاونتنا فى هذا المصاب الجلل، ثم هى التى كانت قد ذهبت إلى المشرحة للتعرف على الجثة وذلك لأنى لا أحب مشاهدة الجثث، ثم إنها هى أيضا التى أشرفت على جوقة النساء النادبات الباكيات وكنّ قد تجمّعن أسفل الكشك المغطى بسعف النخيل وبينما انشغلت النسوة بالتنافس فيما بينهن على البكاء والنحيب والعديد بالأناشيد الجنائزية انشغلت ديابوليك بطرد الذباب اللعين الذى حام حول الجثة.

وهى أيضا التى أشرفت على تغسيل الجثمان وأرسلت برقية إلى الإذاعة ليعلنوا خبر وفاة أمى وأرسلت برقية إلى الجرائد تشكر فيها من واسانا فى مصابنا الأليم وفى تلك الأيام كانت ديابوليك ترتدى دائما ملابس الحداد السوداء وتدهن وجهها بطبقة كاولين كلسية ليكتسى وجهها بطبقة من البياض وقد حافظت على صيامها طوال فترة مراسم الدفن وكذلك على مشيها حافية القدمين وعلى عدم تمشيط الشعر وعلى عدم النظر إلى الرجال ولا حتى الحديث إليهم ولا حتى بكلمة صباح الخير. وكل هذا تقتضيه عاداتنا وتقاليدنا، ولكل هذا يمكننى أن أصل إلى نتيجة مفادها أن

ديابوليك فيما يتعلق بموضوع وفاة أمى وأقولها بإخلاص تام: كانت امرأة لا يمكن أن أجد اليوم - رغم كل شىء - ما أنتقدها عليه.

(٣٣)

وقد اعتقدت ديابوليك لفترة طويلة أن السبب فى إدمانى الخمور هو كونى طفلا وحيدا لأمى خاصة بعد أن كنت قد أصبحت يتيما بفقد أبى فى ذلك السن المبكرة ولهذا لجأت إلى الخمر أبحث فيها عن السلوى وعن نسيان مأساة حياتى بل وقد أبحث فى إدمان عن الانتقام من هذا السائل الأحمر بعد أن فشلت فى الانتقام من السوائل الرمادية التى تمثل مياه نهر تشينوكا قاتلة أمى فمن من البشر يستطيع أن يشرب نهرا بأكمله، أقسم لكم أننى حاولت أن أعيد بناء حياتى بأن أعيد تجميع شتاتها وأجزائها المتناثرة وأملأ كل فراغاتها، أقسم لكم أننى حاولت أن أتوقّف عن مصاحبة زجاجات خمر نبيذ سوفينكو الأحمر، ولكن ماذا ترون بعد كل ما حكيته لكم فيما يتعلق بموضوع رفتى من وظيفة مدرس فى المدارس الابتدائية؟ هل تعتقدون أن هذا الرفت كان بسبب أخطائى أنا الشخصية؟

أقسم لكم أننى كنت قد أحببت تلك المهنة وأحببت أن يحيط بى كل هؤلاء التلاميذ الصغار وأحببت أن أشرح لهم جدول الضرب وأن أشرح لهم تصريفات الأفعال فى اللغة الفرنسية وأن أشرح لهم كيفية تكوين اسم المفعول في حالة استعمال فعل الملكية avoir كفعل مساعد auxiliaire الذى قد يتفق أحيانا مع الموصوف فى النوع والعدد أو قد لا يتفق وفقا لقواعد ليست واضحة تماما لهؤلاء الصغار فقد بدا لهم أحيانا أنهما يتفقان فى النوع والعدد فى

الصباح ويختلفان فى المساء أو قد يتفقان عند سقوط المطار ويختلفان عندما لا تسقط الأمطار لأنهم سألونى ذات مرة (لماذا يتفقان الآن اليوم الساعة الرابعة عصرا فى حين أنهما كانا يختلفان فى فسحة الغداء نهار أمس؟).

وأنا أقول لكم إن هؤلاء الأطفال الصغار المساكين قد يصلون إلى مرحلة اليأس من فهم هذه القواعد وقد يصلون كذلك إلى مرحلة الثورة والتمرّد على هذه القواعد. أما أنا فكنت أردّ عليهم قائلا بأن المهم فى اللغة الفرنسية ليس هو قواعدها بل هو الاستثناءات التى تخرج عن هذه القواعد وأنهم إذا فهموا جيدا كل هذه الاستثناءات جاءت القواعد بعد ذلك إلى عقولهم وحدها سهلة طيّعة. وأنهم عندما يكبرون ويجيدون اللغة الفرنسية إلى حد التمكن التام منها يمكنهم فى هذه الحالة أن يسخروا من قواعدها وهى القواعد التى لا يمكن أبدا اعتبارها نهرا طويلا هادئا(*) على اسم الفيلم المعروف وإنما نهرا مضطربا قابلا دائما لتحويل مجراه.

فى الواقع أنه ما كان لى أبدا أن أصبح مدرسا فليست لدى شهادة دراسات جامعية تسمح لى بممارسة هذه المهنة ولم أتخرج من مدرسة معلمين وأنا أعتقد أن تلك الدراسات تقوم بتشويه معانى الحياة وأعتقد كذلك أن الطرق التى نسلكها فى الحياة والمهن التى نمارسها فيها تأتى إلينا من خلال ظروفنا فى هذه الحياة أنا أعتقد إنها أقدار البشر وليس كل من يستهلك سراويله بالجلوس إلى مقاعد الدراسة يصبح مدرسا جيدا، أما فيما يتعلق بى فقد أجبرونى على دخول هذه المهنة حين كنت بالكاد قد أنهيت

(*) Long fleuve tranquille

عامى الدراسى الثانى فى الجامعة فى كلية كينجيه بولين ففى ذلك الوقت أصدرت الحكومة قرارا بخصوص النقص فى الأعداد المطلوبة لمهنة التدريس يسمح لكل الشبان الفقراء من الحاصلين على شهادة إنهاء الدراسة الابتدائية بالتقدّم للعمل فى التدريس بالمدارس الابتدائية، وهكذا دسست أنفى فى هذه المهنة مثل أى مهرّج يدسّ أنفه فيما لا يعنيه وهكذا كذلك تعلمت المهنة أثناء ممارستها وفى الحقيقة لم يعلمنى أحد أى شىء بل أنا الذى علمت نفسى.

وكان أحد المتخصصين قد جاء من العاصمة ليقدّم لنا كما قال منهجا مكثّفا فى الدراسات التربوية، أتذكر كيف كانت رأسه صلعاء تماما تشبه البيضة وكان يضع على عينيه نظارة طبية ويلعب دور المثقف، قال لى هذا الشخص إننى لست موهوبا لهذه المهنة ليس لدى الاستعداد اللازم كما أنه قال إننى لا أجيد نطق اللغة الفرنسية وقال إن الحكومة قد أخطأت خطأ فادحا بجعلها أمثالى من الجهلاء مدرسين يرشدون الأطفال فى طريق الحياة، أما أنا فمنذ ذلك الوقت أصبحت أكره كل من يدّعون الثقافة لأنك معهم تظل تحاور وتجادل ثم فى النهاية لا تصل إلى أى شىء محدّد أو تظل تنتقل معهم من نقاش إلى نقاش إلى ما لا نهاية.

وأثناء تلك الحوارات يظلون يذكرون لك أسماء مثقفين آخرين قالوا كذا وقالوا كيت ثم إذا بهم يهرشون بطونهم ويذكرون لك أن كل ما قاله الآخرون هو نوع من الحمق وأن كل الآخرين هم من الحمقى غير المبصرين. ويسمّون هذا فلسفة ويدّعون أننا لا نستطيع أن نعيش دون أن نتفلسف. ثم يهنئون بعضهم بعضا على

هذه الفلسفة. المشكلة هى أن هؤلاء المتفلسفين من أشباه المثقفين يتفلسفون هكذا دون أن يكونوا قد عاشوا الحياة ودون حتى أن يكونوا قد عرفوها. إلا أن الحياة تتابع طريقها غير ملتفتة إلى هؤلاء وغير مستجيبة لتنبؤات نوستراداموس.

الغريب أن هؤلاء المثقفين لهم أزياؤهم الخاصة بهم فكما سبق أن ذكرنا أولا النظارات الطبية بشرط أن تكون مستديرة الأطر ثم ثانيا ربطات العنق فهم يعتقدون أنهم بدون ربطات عنق يكونون عراة وأنهم بدونها لا يستطيعون أن يفكروا كما ينبغى لهم أن يفكروا أى بثقة فى أنفسهم. ولكنى فخور بالطريق الذى سلكته فى حياتى وأنا لا أعرف حتى كيف أعقد ربطة العنق فأنا كوّنت نفسى بنفسى ولا أدين بأى شىء لأى أحد. وثقافتى كانت عن طريق قراءة كل ما تقع عليه يدى حتى أدركت أن لا أحد على الإطلاق على هذه الأرض يستطيع أن يقرأ فى حياة واحدة كل ما ينبغى أن يُقرأ. فكل منا يزرع حديقته قدر استطاعته، ثم إنى لاحظت أن أغلب من يتحدّثون عن الكتب يتعمّدون ألا يتحدّثوا إلا عن الكتب التى لم تعجبهم فينتقدونها بلا شفقة أو رحمة كما لو أنهم كانوا مركز العالم، ثم بعد كل شىء إن هذه المشكلة ليست مشكلتى وهذا الكراس ليس لإعطاء دروس فى الأخلاق.

بعد شهرين من فصلى بدأت ديابوليك فى الذهاب لقضاء الليل فى منزل والديها تاركة منزلنا خاليا وذلك لأننا لم ننجب أطفالا وهكذا تفقّد اللصوص وقطاع الطرق الذين يعملون فى حيّنا منزلنا الخالى ليلا وسرقوا كل شىء التليفزيون والراديو ومائدة الطعام والفراش والكتب خاصة روايات سانت أنطونيو التى كنت

أتعلق بها بأكثر مما أتعلق بالروايات الأخرى التى جعلها المثقفون مقياسا للثقافة أولئك المثقفون المعزولون عن الحياة يسألونك ماذا تقرأ ثم يقولون لك كم أحرزت من الدرجات بوحدات قياس ثقافتهم. وقد سرق اللصوص الرواية التى كنت أقرؤها ليلة الحادث وهى بعنوان (يوميّات لصّ) وأنا واثق أنهم قد اعتقدوا أن بداخلها بمكنهم أن يجدوا حيلا قد تكون مفيدة لهم فى مهنتهم كلصوص ثم فى طرق الهرب من الشرطة.

وقد حمّلتنى ديابوليك مسئولية السرقة فقد ادعت أن اللصوص هم من أصدقائى مدمنى الخمور فقلت لها (صحيح أن أصدقائى هم من بين مدمنى الخمور ولكنهم ليسوا لصوصا) فادعتْ أننى أحميهم لأننى متواطئ معهم ثم رحلت نهائيا عن المنزل تركتنى بغير رجعة تاركة لى قطعة من الورق كتبت عليها (سأذهب) وكتبت على الناحية الأخرى من الورقة (تعلم كيف تنتهى...) ولم أفهم ماذا تقصد من هذه البرقية القصيرة. بحثت عنها فى كل مكان فى حوارى حيّنا التروإسان وفى وسط المدينة وفى التجمّعات الجنائزية ثم رأيتها ذات يوم تمرّ أمام مشرب (لو كريدى) فجريت خلفها ورجوتها قائلا (لا أستطيع أن أعيش بدونك إذا تركتنى فأنا سأنتهى عودى إلى المنزل) ولكنها ظلت واقفة فى مكانها تنظر إلىّ من أخمص القدم إلى قمة الرأس ثم قالت (أنت انتهيت فعلا ولن تتغيّر أبدا اتركنى فى حالى أيها المتشرّد المسكين).

وهكذا أصبحت واحدا من أكثر زبائن (لو كريدى) إخلاصا فى ذلك العام الذى فصلونى فيه من وظيفة التدريس وتركتنى فيه ديابوليك فوثّقت علاقتى بالقوقع الحلزونى العنيد ثم أصبحت كما

لو كنت قطعة من أثاث المشرب لا أغادر مكانى فيه حتى أن المدير قال لى ذات يوم (هل تعرف يا زجاج إذا كنت ترى المسائل بشكل أكثر وضوحا كان بوسعى تعيينك نادلا فى هذا المشرب) فرددت عليه بأننى فعلا أرى المسائل بشكل واضح وإذا أراد أن يتأكد من ذلك فما عليه إلا أن يختبرنى فى جدول الضرب فقال (لا يا زجاج إن العمل هنا لا صلة له بجدول الضرب ولكن بصفاء الذهن) فقلت له إننى أتمتع بصفاء الذهن فضحك ثم شربنا سويا، وكنت عند عودتى إلى المنزل أتوقف دائما عند جذع شجرة المانجو لأحكى لها ما يحدث لى خلال تجوالى الدائم وكانت الشجرة تبكى أثناء إنصاتها لى وذلك لأن الشجر هو أيضا يذرف الدموع.

وأمام هذه الشجرة يحدث أحيانا أن أشتم ديابوليك وأشتم كذلك أمها ذات العين الأصغر من الأخرى وأشتم أباها بقدمه المشوّهة وبفتقه الإربى المتدلى حتى ما بين ساقيه وفى تلك اللحظات الصعبة أشعر أن الشجرة هى الكائن الوحيد الذى يفهمنى فتهز أغصانها دلالة على رضاها وموافقتها وتهمس لى بأننى رجل طيب وغلبان وأن المجتمع هو الذى لا يفهمنى وهكذا نمت الصداقة بيننا أنا وهذه الشجرة وكانت بيننا محادثات طويلة وكنت أقول لها كما قال ذات يوم أحد الزنوج لم أعد أتذكر من بالتحديد (عندما يقبض الله روحى ثم يعيدنى إلى التجسد من جديد سأطلب منه أن يعيدنى إلى الحياة فى صورة شجرة).

ثم اعتدت على ارتياد مشرب (لو كريدى) ثم وصل بى الحال إلى أننى لم أعد أغادره وأسهر فيه بصرف النظر عن الأحوال الجويّة ممطرة كانت أو عاصفة فهو المكان الذى تبنّانى ولم أعد

أتخيّل وجودى فى أى مكان آخر وعند منتصف الليل كان النوم يغلبنى جالسا على كرسى بدون مساند بعد أن أكون قد ملأت معدتى بالمشويّات التى كانت تبيعها فى ذلك الوقت امرأة عجوز من بنين على باب المشرب وذلك قبل ظهور مغنيتنا الصلعاء إلى الوجود كانت الحياة حينئذ جميلة، يجب أن أدوّن هنا بوضوح أننى فخور بتلك اللحظات من الزمن الماضى التى لم أكن أشعر خلالها لا بالضيق ولا بالملل ولم أكن خلالها نادما على رحيل ديابوليك ولم أكن أشعر بالمرارة فى أعماقى ولم أكن أكتب خطابات لأصدقائى مطالبا إيّاهم بإنقاذ حياتى من الضياع ولم أكن أطلب حكما مخففا لمصيرى المحتوم.

سمعتهم منذ فترة قصيرة يقولون إن ديابوليك تعيش الآن مع زوج جديد طيب وأنهما قد أنجبا أطفالا أما أنا فلم أعد أهتم بهذه الأخبار ولكنى أعرف أنه لا يوجد أزواج طيّبون وأننى كنت أنسب الأزواج لها أما الآخرون فهم يستفيدون منها إذ إنهم كاذبون وسيستغلونها حتى الرمق الأخير ثم أنا لست غيورا رغم حرمانى من العلاقات الجنسية منذ ذلك الحين نعم أنا أدرك تماما أن حياتى الجنسية أصبحت تشبه الصحراء القاحلة التى تتكون من فراغ هائل لا شىء أمامه ولا شىء خلفه ليس هناك إلا بعض ظلال لبعض نساء يتبادلن معى أطراف الحديث بين وقت وآخر. فى الواقع أنا كنت رجلا عَشِقَ النساء اللائى كنّ قد وقعن فى يده اللائى كنّ قد أُتِحْنَ له ولكن لا يجب أن تتوقعوا منى هنا أن أتحدّث إليكم عن شياطين العشق والرغبة ولحسن الحظ أن بقى لى عشق زجاجات الخمر فى ذلك الزمان التعس فهى فقط التى تفهمنى وتفتح لى أذرعها........ أقصد أفرعها.

(٣٤)

عندما كنت أجد نفسى فى هذا المشرب الذى أحببته ولازلت أحبه وسأظل أحبه إلى النهاية كنت أهتم بملاحظة كل ما يحدث حولى فأشاهده وأختزنه فى ذاكرتى ليس فقط الأحداث بل كذلك تصرفات البشر وملامح وجوههم ولهذا السبب وجودى فى المكان وملاحظتى كل شىء يجب أن أشرح للقارئ سبب وجود هذا الكراس فى يدى إذ كان الحلزون العنيد هو الذى حفّزنى على الكتابة عندما لاحظ أننى كشاهد على الأحداث يمكننى أن أخلد ذكرى هذا المكان وهذه الأحداث بالكتابة عنها، فى الحقيقة كان المدير قد أخذنى من ذراعى ذات يوم إلى ركن هادئ فى المشرب وأسرّ إلىّ بمكنون قلبه قال:

(زجاج مكسور سأبوح لك بشىء يقلقنى ويحيّرنى ففى الحقيقة أنا أفكر منذ أيام فى أن أطلب منك تأليف كتاب).

اندهشت بعض الشىء ثم سألته:

(كتاب عن ماذا؟).

فأجاب ـ مشيرا بإصبعه إلى شرفة المشرب ـ :

(كتاب يتحدث عننا هنا عن هذا المكان الفريد من نوعه الذى لا يوجد له مثيل إلا فى مشرب الكاتدرائية الذى زرته فى نيوبل بالكاميرون).

فضحكت معتقدا أنه يمزح معى أو أن لديه فكرة أخرى فى رأسه خلف هذا الكلام كأن يكون فى سبيله إلى توريطى فى فخ لا قرار له قال:

(لا تضحك فأنا جاد جدا فى عرضى هذا وأنا أعرف أنه يمكنك أن تكتب).

ونظرا لهذا الأسلوب الجاد أدركت أنه لا توجد فى هذه المسألة خدعة رخيصة قلت:

(ولكنك بصفتك مدير المكان فأنت فى وضع أفضل من وضعى للقيام بهذه المهمة فأنت تعرف كل أسرار المكان أما أنا فلا أعرف حتى كيف يمكننى أن أبدأ).

قدّم لى كأسا ثم قال:

(ثق فى أننى حاولت فى الماضى عدة مرات .... ولكن دون نجاح يذكر فأنا لست دودة كتب مثل أولئك المعتادين على القراءة والكتابة أما أنت فطباع الدودة واضحة فيك هذا يظهر تماما عندما نتحدث عن الأدب فتلمع عيناك......... وتشعر بالأسف الذى يطفو على سطح أفكارك ولكنه لا يؤدى بك إلى الإحباط ولا إلى الإحساس بالمرارة فأنا أعرف أنك أبعد ما يمكن أن تكون عن الإحباط والمرارة فأنت ليس لديك ما تندم عليه يا صديقى العجوز).

أحتفظ بصمتى فيستأنف كلامه:

(هل تعرف أننى ما زلت أتذكر حوارا دار بيننا منذ مدة حدثتنى فيه عن أحد الكتاب المشهورين الذى كان يمتص الخمر مثل اسفنجة ماذا كان اسمه؟ .... منذ تلك المحادثة بيننا أقول لنفسى إنك يا زجاج إذا كنت قد بدأت فى احتساء الخمر فإن ذلك ليس إلا لاحتذاء قدوتك الأدبية أنت تريد أن تحتذى خطاه ذلك

الشخص الذى يهرب اسمه منى.......... عندما رأيتك اليوم أدركت أن لك مظهر الكتاب علاوة على أنك تتميز كذلك بروح السخرية من الحياة وذلك لأنك تعتقد فى نفسك أنك قادر بقلمك على خلق حيوات متعدّدة وأنك أنت نفسك لست إلا إحدى شخصيات هذا العمل الروائى الضخم......... أنت كاتب أعرف هذا وأشعر به وأنت تشرب الخمر من أجل الكتابة......... ثم إنك لا تنتمى إلى عالمنا هذا الزبالة لأنه فى بعض الأوقات يتولد لدى الانطباع بأنك فى صمتك تكون مشغولا بمحاورة كتاب مشهورين من أمثال بروست أو همنجواى أو لابو تانسى أو مونجو بيتى....... إذن أنا أدعوك إلى تحرير نفسك من أى التزامات وإلى التفرغ للعمل ولا تقل أنا عجوز فليس هناك من هو عجوز إلى درجة العجز عن الكتابة).

ثم رأيته يشرب كأسه الملآن فى جرعة واحدة فى حين أنه معتاد على شرب جرعات صغيرة بين وقت وآخر من كأس نصف ملآن ثم قال بصوت مقاتل:

(زجاج أدعوك إلى إخراج غضبك المتراكم داخلك انفجر تقيّأ أخرج ما فى أحشائك ابصق اسعل أو حتى اقذف سائلك المنوى لا يهمنى ما تفعل المهم هو أن تنتج عملا أدبيا عن هذا المشرب أو عن بعض رجال هذا المشرب أو عنك أنت شخصيا).

كلماته هذه جعلتنى أغلق فمى للحظات وكدت أن أذرف دمعا...... لم أعد أتذكر عن أى كاتب سكير كنت حدّثته على أى الأحوال فهناك منهم الكثيرون ومنهم من بين كتابنا المعاصرين من يشرب حتى يبلغ حدّ الموت .... فيما بعد تساءلت عن هذا

الأسلوب الذى اتبعه معى الحلزون العنيد فى ذلك اليوم حتى يخترق حجب ذاتى الداخلية.

وهكذا دفاعا عن نفسى قلت:

(أنا لست كاتبا ثم حتى لو كتبت فإن ما سأكتبه لن يجد من يهتم به ما الذى يمكنه أن يجذب انتباه الناس فى حياتى أو فى حيوات الرجال الآخرين ثم إنه ليس فى هذه المواضيع ما يمكنه أن يملأ كراسا واحدا).

فأجاب على الفور:

(ليس هذا هو المهم يا زجاج ليس عليك أنت إلا أن تكتب ويكفى أن هذا يهمنى أنا شخصيا حتى لو كنت أنا المهتم الوحيد).

شعرت بالفخر أن يطلب منى أنا إنجاز هذه المهمة وقد بدأت الفكرة تختمر فى ذهنى وتشغل بالى ومنذ تلك اللحظة وتحت تأثير أكواب النبيذ الأحمر التى لم أتوقف عن ابتلاعها بدأت أشرح للحلزون فكرتى عن الكتابة حيث كان من السهل علىّ التحدّث عن الكتابة لأنى لم أكن قد بدأت فعلا فى ممارسة الكتابة، قلت:

(فى هذا البلد الزبالة يرتجل الكثيرون الكتابة ثم يدّعون أنهم كتّاب فى حين أنه لا توجد أية حياة خلف ما يكتبونه وقد حدث أن رأيت فى تليفزيون أحد مشارب شارع الاستقلال بعضا من هؤلاء الكتاب من مرتدى البدلات وربطات العنق التى يضيفون إليها أوشحة حمراء حول العنق أو حول الكتفين ثم من الضرورى أن تجد على أعينهم نظارات طبية ذات أطر مستديرة والأكثر ادعاء منهم يدخنون الغليون أو السيجار لأنهم يعرفون أن هذا يعطى انطباعا

جيدا لدى الجمهور ثم يصوِّرون وهم يتخذون سمت من يمتلك العالم أو من يعتبرون أنفسهم مركز هذا العالم فهم لا يريدون لأحد أن يتحدث عن أى شىء آخر عدا مؤلفاتهم.

بعض هؤلاء الكتاب يحبون أن يلعبوا أحيانا دور الكتاب المكروهين من الجمهور والمعتقدين رغم ذلك فى عبقرية مؤلفاتهم فى حين أن مؤلفاتهم ليست إلا زبل حمام وهم غالبا ضحية مرض البارانويا الذى هو فى نفس الوقت جنون العظمة وعقدة الاضطهاد ثم هم يشعرون تجاه الآخرين بالمرارة والحسد ويشيعون أن هناك مؤامرات تحاك ضدهم. ثم يهدّدون أنهم إذا حصلوا يوما ما على جائزة نوبل فى الآداب فإنهم سيرفضونها رفضا قاطعا وذلك لأن أيديهم ليست قذرة وهى إشارة إلى رواية جان بول سارتر الأيدى القذرة ثم يضيفون أن جائزة نوبل للآداب هى الموت فى الروح هى حائط فى حارة سدّ هى الدخول فى دوّامة التداعيات.

إن ألعاب مثل هؤلاء الكتاب تجعلنا نتساءل عن ماهية الأدب وكيف لكتاب حثالة أن يرفضوا مثل هذه الجائزة بدعوى الحفاظ على حرياتهم. أنا إذا أصبحت يوما ما كاتبا معروفا فسأطلب من الله أن يهبنى التواضع والقدرة على النظر إلى الأشياء فى حجمها الطبيعى أى أن أنظر بموضوعية عندما أقارن بين ما أكتب وبين ما يكتبه غيرى من عمالقة الكتابة وبالتالى أن أصفق للعبقرية وألا أفتح فمى أمام الأعمال متوسطة القيمة المنتشرة حاليا.

أنا إذا كتبت فسأكتب بكلماتى أنا لا بكلمات غيرى حتى لو كانت كلمات مشوّهة ضالة ملتوية مفكوكة لا رأس لها ولا ذيل فهى الكلمات التى ستخطر على بالى وسأبدأ الكتابة برعونة وسأنتهى

كما بدأت بنفس الرعونة وسأضرب عرض الحائط بالمنطق والمنهج وعلوم الصوتيات والنثر الفنى وبلغتى تلك الزبالة سيُفهم ما أريد قوله لاحقا وهو ما لا يمكن إدراكه من القراءة الأولى لأنه لا يعلن عن نفسه بصراحة ووضوح والكلمات التى سأعبّر بها عن تلك المعانى لن تحضر إلى ذهنى بسهولة بل سأعانى حتى أحصل عليها رغم أنها ستبدو لكم كلمات سهلة.

إن الكتابة هى الحياة بكل ما فيها الكتابة هى مسألة حياة أو موت، أريد بالأخص لمن سيقرؤنى لاحقا أن يقول فى نفسه: ما هذا الخلط؟ ما هذه السويقة؟ ما هذه الفوضى؟ ما هذا التجميع العشوائى الهمجى للكلمات؟ ما هذه الثرثرة؟ ما هذا السقوط فى حضيض التعبير الأدبى؟ ما هذا الهذر الجديد بثرثرات الأفنية الخلفية؟ هل هذا الشىء جاد؟ ثم أين هى بداية هذا الشىء؟ وأين نهايته؟ .... على هذا الكاتب اللعنة وليذهب إلى الجحيم.

فأرد عليهم بمكر ودهاء هذا السوق هو الحياة ادخلوا إذن إلى كهفى هناك حيث العفن وحيث بقايا القاذورات فإنى هكذا أتخيّل الحياة - أما خيالكم أنتم الأدبى فهو مشاريع أناس زائفين مدّعين لإرضاء أناس آخرين هم كذلك زائفون مدّعون فبقدر ما لا تدرك شخصيات رواياتكم كيف يحصل الفقراء على قوت يومهم بقدر ما لن تكون لكم نصوص أدبية وإنما هى مجرّد استمناء ذهنى(*)، فأنتم لا تتفاهمون فيما بينكم إلا بأساليب بهيمية حميرية مثل الحمير التى يتحاكك ويتهارش بعضها ببعض.

(*) intellectual masturbation

أنا للأسف لست كاتبا ولا أستطيع أن أكون كاتبا فأنا لست قادرا إلا على ملاحظة ما يحدث حولى ثم التحدّث به إلى زجاجاتى أو التحدّث به إلى شجرتى التى أحب أن أتبوّل إلى جوار جذعها والتى وعدتها بأننى عندما سأعود إلى التجسّد[1] فإننى سأعود فى شكل نباتى حتى أعيش إلى جوارها وبالتالى فأنا أفضّل أن أترك الكتابة للكتّاب الموهوبين.

إلى أولئك الذين كنت أحب أن أقرأ لهم عندما كنت لا أزال معتادا على القراءة.

الذين يغنّون فرحا بالحياة.

الذين يحلمون ويقاتلون من أجل أحلامهم.

الذين يختلقون المناسبات ليرقصوا فيها رقصة البولكا الروسية.

الذين يقدرون على إدهاش الأرباب.

الذين لا يتعثرون فى خزيهم ولا يتخبّطون فى عارهم بل يتجهون وكلهم ثقة بالنفس فى الطريق إلى عصر الإنسانية[2]

الذين يخترعون أحلاما مفيدة.

الذين يعيشون الآن مرحلة انتقالية فى أحد أركان الأرض وينظرون إلى العالم عبر كوّة ضيقة.

الذين ينصتون إلى موسيقى الجاز مثلما فعل أبى وهم يحتسون الخمر مثلما فعل أبى ويحبون الزنوج من عازفى الترومبيت والكلارينيت مثلما فعل أبى.

---

(١) reincarnation

(٢) age of humanity

الذين يعرفون كيف يصفون الصيف فى إفريقيا وكيف يحكون عن أعراس بربرية.

الذين يتأملون هناك بعيدا على قمة صخرة طانيوس المسحورة وصخرة طانيوس كما تعرفون هو اسم رواية لأمين معلوف.

الذين يتذكرون أن كثرة تعرّض الحبيبَيْن لأشعة الشمس قد يقتل الحب.

الذين يتنبّأون بدخول الرجل الأبيض إلى عصر النحيب وبتحوّل قارة إفريقيا إلى أشباح وببقاء الطفل الأسود على براءته الأصلية.

الذين يستطيعون بناء مدينة بواسطة الكلاب بها منازل خضراء مثل ذلك الذى كان فى باريس لرجل المطابع.

الذين يبنون منازل ليقيم فيها الناس المتواضعون الذين ليست لديهم مقرات إقامة ثابتة ويسمونهم بالفرنسية S.D.F .

الذين يستطيعون أن يشعروا بتعاطف أحجار الشوارع معهم.

ولا عزاء لمن يهتاجون بسبب كأس من الخمر.

ولا عزاء لشعراء أيام الآحاد بعد الظهر من محتسى الخمور الرديئة.

ولا عزاء لمن يحن إلى زمن الاستعمار وزمن المزّقين المشتّتين السنغاليين زمن حث المطايا بألفاظ تصدر من الفم الزمن الذى كنا فيه مثل دواب الطريق يقولون لنا مثلما يقولون للحمير (شى/ حا) (شى) حتى نمشى و(حا) حتى نتوقف.

ولا عزاء لأولئك الذين يستكثرون على الزنوج أن يتحدثوا عن العمل - المؤلف يلعب بلفظ العمل فى العامية الفرنسية الذى ينطق بولو[1]، ويستعمل لفظا آخر ينطق بنفس الطريقة بولو ولكن يكتب بطريقة مختلفة[2]، ويعنى جنسًا من أشجار الأحراش من الفصيلة البتولية.

ولا عزاء لمن يمنع الزنوج من الحديث عن الأحجار/ الغبار/ الشتاء/ الجليد/ الزهور ويمنعهم من الحديث عن الجمال إعجابا بالجمال.

ولا عزاء لهؤلاء الأتباع المتطرّفين الذين يتكاثرون بسرعة مثل الفطريّات والطحالب فيسدّون بأعدادهم الغفيرة مسالك الكلمات.

ولا عزاء لأولئك الذين يدنّسون نقاء وطهارة الكون وهم أنفسهم الذين يدنّسون نقاء وطهارة الأدب الحقيقى فى أيامنا هذه).

عندما شرحت كل هذا للحلزون ظل صامتا لاعتقاده بأننى إما أن أكون غاضبا من أناس بعينهم أو أن أكون قد أصابتنى نوبة تخريف وبعد فترة صمت سألنى عمن كنت أتحدث هكذا وطلب منى أن أذكر له أسماءهم ولكنى لم أجب وإنما ابتسمت فقط ونظرت إلى السماء ثم قلت (ولماذا أكون غاضبا؟ ليس لدىّ ما يبرر هذا وكل ما ذكرته لك هو فقط لإعادة وضع الأشياء فى أماكنها لوضع الأشياء الزبالة منفصلة وحدها بعيدا عن الأشياء الأخرى التى تستحق على ما يبدو أن نصفق لها).

---

(١) boulet

(٢) bouleau

فى ذلك اليوم قدّم لى الكراس والقلم قائلا (إنهما لك ويمكنك إذا غيرت رأيك فيما يتعلق بمسألة عدم الكتابة أن تستعملهما وأنا أعرف أنك يوما ما ستكتب وبالتالى فأنا أطلب منك إذا جاء ذلك اليوم أن تكتب كما يحلو لك اكتب بالأسلوب الذى يروقك اكتب كل الأفكار التى تخطر على بالك بالكلمات التى تأتى أولا إلى دماغك بنفس الطريقة التى حدّثتنى بها منذ قليل عن الكتاب الحقيقيين وعن الكتاب المزيفين الذين يؤدّون بتزاحمهم إلى إحداث اختناقات مرورية فى مسالك الأدب وطرقاته وكذلك عن كل أولئك المدّعين الذين سيرفضون جائزة نوبل وعن المتطرّفين وعن شعراء عصر يوم الأحد وعن السنغاليين الذين يشتتوننا ويفرقون بيننا وعن الكتّاب الذين رأيتهم ببذلاتهم الأنيقة فى تليفزيون مشرب شارع الاستقلال أقول لك جميل كل هذا ويمكنك أن تنسج منه شيئا ما ولكن ابحث عن الأسلوب الذى يمكنه عند قراءتى له أن يبهرنى ويحبس أنفاسى فأنا لا أعرف بعد إلى أين تريد أن تذهب بكتاباتك ولكن حاول أن تضع كل ما سبق ذكره داخلها).

منذ تلك اللحظة بدأت فى الكتابة والخربشة فى الكراس بدافع مبدئى هو جلب السعادة لقلب صديقى العنيد وكانت انطباعاتى الشخصية مختلطة وغير مرتبة ولكنى بالتدريج بدأت أنا كذلك أشعر بالسعادة بما أكتبه ولم تعد المسألة تتعلق فقط برغبة الحلزونى ولكن كذلك برغبتى أنا أيضا خاصة عندما بدأت أنسى أننى فى البداية كنت مكلفا بأداء هذا العمل وأن شخصا ما كان قد أوكل إلىّ هذه المهمة وهكذا بدأت أشعر بالتدريج أن من حقى أن أقفز فوق بعض الموضوعات وأن أتخيّل قارئا جديدا ليس هو الحلزونى العنيد وإنما هو قارئ ليست له معالم واضحة خاصة بعد

أن وعدنى الحلزونى بأنه لن يقرأ ما أكتب إلا بعد أن أنتهى منه تماما.

وهكذا كنت عندما أصل إلى المشرب أطلب من موميرو أو من دنجاكى - وهما النادلان اللذان يعملان فى المكان - أن يحضرا لى زجاجتىْ نبيذ سوفينكو الأحمر والكراس والقلم فأشرب قليلا ثم أخربش فى الكراس قليلا وقد أسعدنى هذا الوضع الجديد حتى أننى بدأت أشعر بالألم عندما أتذكر أن لهذه المهمة مدة محددة ستنتهى بعدها وأننى قد يحدث يوما ما فى مستقبل أيامى ألا أعود إلى هذا المشرب من جديد وألا أضع فيه قدمى من جديد. ولهذا فقد بدأت فى العمل بالشكل الذى يمكن به أن أستغرق وقتا أطول مثلا يمكننى من وقت لآخر أن أنظر إلى الخلف لأراجع ما سبق لى كتابته وهو ما يجعلنى أنسى التهام فرختى المشوية فأضطر إلى أكلها باردة.

(٣٥)

أنهيت للتو وجبتى من الفراخ المشوية وعلىّ الآن أن أعيد الطبق فارغا إلى المغنية الصلعاء فى الجهة الأخرى من شارع الاستقلال ولكنى سأنتهى أولا من كأس النبيذ الأحمر هذا الموضوع أمامى وهذا لن يستغرق بضع ثوان وعلى أى الأحوال فلا قيمة للوقت. أرى الآن أن رجل المطابع ما زال يتردد على المشرب ويحيط نفسه بمجموعة من الرجال يتصفح معهم العدد الأخير من مجلة بارى ماتش، لم يعد هذا يعنينى فهناك مسائل أخرى تشغلنى. وقفت إذن وغادرت المكان ومشيت لأعبر إلى الجهة الأخرى من شارع الاستقلال ونظرت لأتأكد من أنه ليست هناك سيارات أو

دراجات بخارية قادمة فى أى من الاتجاهين وهكذا عبرت الشارع وحقّ لى أن أصرخ صرخة النصر وذلك لأن عبور الشارع الآن أصبح من الأمور غير المؤكدة فى الواقع إن كل شىء أصبح محفوفا بالمخاطر ليس فقط عبور الشارع بل كذلك مجرّد القيام من مكانى ومغادرة المشرب والمشى على الرصيف.

تلمحنى المغنية الصلعاء فتبتسم

قالت (قل لى يا زجاج لماذا استغرق تناولك لوجبتك اليوم كل هذا الوقت حتى تعيد إلىّ الطبق فارغا؟ يبدو أنك لم تكن تشعر بالجوع......... يبدو لى كذلك بالطريقة التى يترنّح بها جسمك أثناء مشيك أنك تكاد تسقط على الأرض قل لى يا بابا كم لتر نبيذ أفرغت فى معدتك اليوم؟).

قلت (أنا لم أشرب بعد فأنا منذ هذا الصباح لم أضع قطرة نبيذ واحدة فى جوفى).

ثم ضحكت لأنى أدركت كم كانت كذبتى مفضوحة مثل فضيحة المنازل المتعددة التى يسكن فى جميعها أى ديكتاتور إفريقى عرفت أنها لم تصدّقنى عندما قالت:

(هل سبق لك أن رأيت سكيرا يعترف بإفراطه فى احتساء الخمر؟ هذا لا يحدث أبدا).

ثم ذكرت لى اسم أغنية تتحدّث عن هذا المعنى وهى لفرقة موسيقى جاز قوية لا أعرفها اسمها O.K، وهى فرقة مشهورة من إحدى الدول القريبة رغم أننى أعرف بعضا من أسماء الفرق فى تلك الدولة فهناك زايكو ولانجا لانجا وفريق أفريكا انترناشيونال.

ثم بدأت فى الاعترافات.

قلت (لم أشرب إلا كأسا صغيرا.......... أقسم لك).

فنظرت إلىّ الصلعاء بقدر من التعاطف ولكن كذلك بقدر من الجديّة لم ألمحه من قبل فى نظراتها وهزت رأسها وهى تقول:

(طلبت منك سابقا أن تتوقف عن احتساء الخمر يا زجاج فإنك ستموت وزجاجة فى يدك ونحن نحبك فى هذا الحىّ لذلك أكرر عليك هذا الكلام).

فقلت بدون تفكير:

(أعدك بأننى سأتوقف هذا المساء عند منتصف الليل ولن أعود أبدا بعد ذلك إلى وضع قدمى فى هذا المكان).

كنت أريد أن أوضح لها كذلك أننى إذا توقفت عن احتساء الخمر فإن ذلك لن يكون بسبب خوفى من الموت فأنا لا أخاف من الموت بل أنا أرى إن الموت بزجاجة خمر فى يدى هو موت جميل، هو ما يمكن تسميته أن تموت وسلاحك فى يدك، ثم إننا لا نعرف ما الذى ينتظرنا هناك بعد الموت الجنة أم الجحيم؟ فهذا يتوقف على الباب الضيق الذى سنعبر منه وقد يخطئ بعضنا ويعبر من الباب المؤدّى إلى الجحيم أما إذا حالفهم الحظ فإنهم سيجدون أنفسهم فى الجنة حيث توجد على ما يبدو سحب بيضاء ستأتى عليها الكائنات الملائكية التى تتميّز بقوة الذاكرة يقولون إن لها ذاكرة الأفيال.

ثم يسألونك عن عدد المرات التى قرأت فيها كتاب أورشليم المقدّس فهم يريدون أن يتأكدوا من العدد المسجّل فى دفاترهم ثم يسألونك عن عدد النساء العواجيز اللائى ساعدتهن على عبور

شارع الاستقلال ثم ينظرون فى دفاترهم ثم يسألونك عن عدد المرات التى ذهبت فيها إلى الكنائس ثم ينظرون فى دفاترهم........ وهكذا. ولكل هذا فمن المؤكد أنه ليست هناك وسيلة لاحتساء الخمر هناك لا أثناء ذلك الامتحان الشفهى ولا بعد اجتيازه.

ويبدو تقريبا أن نفس الشىء ممنوع فى جهنم فأنت لن تتمكن من احتساء جرعة نبيذ بين كتلتين من نار وذلك لأنك ستجد واقفا بينهما شيطانا ينتظرك ممسكا بسلاحه المعدنى فى يده الذى يبدو كمذراة لها ما يشبه أسنان المشط المسنونة فإذا طلبت منه بعض النبيذ فإنه سيفقد أعصابه صائحا.

(ماذا تطلب منى بالضبط أيها الأحمق؟ أو لم يكفك ما شربته من نبيذ على الأرض طوال حياتك؟ ثم تأتى إلينا هنا لتضايقنا فى المطهر كان ينبغى عليك الذهاب إلى الجنة لا المجىء إلينا هنا وهى ليست بعيدة إذ إنها تقع خلف تلك الجبال التى تراها أمامك وتبدو مثل كتل السحاب الداكن ثم كان يجب أن تكون قد اكتفيت خلال حياتك بما كنا قد سمحنا لك باحتسائه على الأرض سحقا لك أما هنا فالقرار نهائى لا رجعة فيه وهو قرار تأخذه ألسنة اللهب تلك التى تطقطق وتخشخش معلنة عن نهاية العالم قرار حرق الجثث حتى تصبح رمادا وهى طريقة الموت التى تجد المزيد من الأتباع كل يوم فى أوروبا ويسمونها هناك incineration وهى تعنى تحويل الجثة إلى حفنة من الرماد بوضعها فى أتون النار ثم جمع الرماد فى صندوق صغير ودفنه فى حائط أما فى جهنم فنحن نستعمل الجثث البشرية فى إذكاء لهيب النار.......... تعال الآن أيها البشرى المسكين فقد حان دورك لتتفحم جثتك ثم تتحول إلى

رماد فهذا هو الجحيم وليس كما قال سارتر الجحيم هو الآخرون[1]

هذا هو ما قاله الشيطان أما أنا زجاج مكسور فأجد أننى يجب أن أعود إلى تذكيركم بأننى لست شقيا ولا شريرا ولست مصابا بهستيريا جنون ردود الأفعال العنيفة المفاجئة ولست مصابا بأى مرض من تلك المجموعة من الأمراض التى تطلقون عليها اسم النفسعقلية ولن أسمح أبدا لأى شخص بأن يعاملنى كما لو كنت مصابا بمرض عقلى حتى لو اضطررت إلى قذف وجهه بقفازى متحدّيا كما كان نبلاء وفرسان أوروبا يفعلون فى الماضى فأنا رجل عاقل. ثم إنى لست سكيرا وهاكم جدول الضرب امتحنونى فيه.

أما الآخرون الذين يدّعون أنهم ليسوا بسكارى فلماذا لا يستطيعون الإجابة على أسئلة جدول الضرب؟ حتى لو كانت أسئلة سهلة جدا مثل ضرب ١×٢ أو ضرب ٢×٢، فماذا سيفعلون إذن عندما تتعقد المسائل وتكون الأسئلة فى جدول ضرب ٩×٩، وماذا سيفعلون عندما تتأزم المسائل أكثر وتكون الأسئلة باستعمال كسور النظام العشرى[2] ؟ مع ملاحظة أننى كنت واحدا من المدرسين القلائل الذين استمروا حتى النهاية فى استعمال عقولهم فى عمليات الضرب فأنا لم أستعمل أبدا أى نوع من أنواع الآلات الحاسبة calculator ، ثم إن الرياضيات الحديثة لا تعنينى فى شىء والحياة بالنسبة لى هى زجاجة خمر وجدول ضرب كما كانت الحياة بالنسبة لأبى زجاجة خمر من نبيذ البلح وموسيقى الجاز

(١) Sartre: l enfer c est les autres

(٢) decimal

لكبار الموسيقيين الزنوج السابق ذكرهم كولتران/ ليه مونك/ ليه دافيس/ ليه بيشيه والآخرين من عازفى الترومبيت والكلارينيت.

وقد طلب الله من البشر أن يتكاثروا[١] ولكنه لم يحدّد لنا الرقم الذى نتكاثر به أى إذا كان هذا الرقم هو وفقا لجدول الضرب multiplier أم وفقا لنظام آخر. وأنا كنت أحب تدريس جدول الضرب رغم أننى كنت أفضل عليه أحيانا تدريس الجغرافيا أو الأدب ولكنى أعرف أننى ما كنت بقادر على الذهاب بعيدا فى دراسة الآداب حتى لو كنت درستها فى الجامعة لأن الآداب بشكل عام لا تقودك إلى أى مكان محدّد أما الجغرافيا فوضعها مختلف فدراستها كانت على الأقل ستسمح لى بالسفر إلى بلاد العالم ودراسة كل الأنهار الكبيرة فى العالم نهر الكونجو/ نهر الأمور/ نهر اليانج تسى كيانج/ نهر الأمازون ولكنى مع ذلك ما كنت بقادر على رؤية هذه الأنهار بالعينين اللتين أحملهما فى وجهى.

النهر الوحيد الذى أعرفه جيدا هو نهر أحمر يسيل من زجاجة ولا ينضب أبدا مثلما قد يحدث أحيانا لبعض الأنهار المذكورة أعلاه، وعندما أفكر فى عدد لترات النبيذ الذى ابتلعته فى جوفى - خلال العشرين عاما الأخيرة فهى غالبا ستكون فى شكل نهر طويل هادئ. ولن أكرر هنا الكلام المعروف عن الوصف الهيدروجرافى للأنهار[٢] وهى الموضوعات المتعلقة بوصف حركة المياه فى الأنهار فالماء من العناصر الخطرة فى الطبيعة وأنا أستشيط غضبا كلما تذكرت كيف أن أمى قد ابتلعتها مياه النهر

---

(١) se multiplier

(٢) hydrographic

وقد حاولت هى بدورها أن تبتلع كميات من مياه النهر إلا أنها أسلمت الروح غالبا دون أن تتمكن من تلاوة صلاة المسيحيين (أبانا الذى فى السموات..........).

(٣٦)

ومع هذا فأنا أسجل على هذه الصفحة ـ دون شديد فخر بذاتى ـ أننى قد سافرت عبر كل دول العالم ولذلك فأنا لا أريد أن يعاملنى الآخرون على أننى رجل يجهل حقيقة الأشياء التى تحدث خارج حدود وطنه فأنا لن أقبل مثل هذا التقصير المخل فى حقى ولن يكون هذا النبيذ الذى أحتسيه هو السبب فى نسيانى ما تعلمته خلال سنوات شبابى، ولأوضّح لكم الأمر فأنا قد زرت كل دول العالم ولكن دون أن أغادر وطنى الأم وكان ذلك عن طريق ما أسمّيه الارتحال عبر الأعمال الأدبية فكل صفحة كتاب فتحتها كانت بمثابة ضربة مجداف وسط نهر يلف حول بلاد الدنيا وعبر رحلاتى الملحمية تلك لم أقابل أبدا أى حدود سياسية مصطنعة ولم تكن لدى حاجة للحصول على جواز سفر. وكانت اختياراتى للبلدان التى زرتها تبعد قدر الإمكان عن التحيّز وعن الآراء المسبقة. هناك كانوا يستقبلوننى بأذرع مفتوحة فى تلك الأماكن التى تعجّ بالشخصيات الغريبة. هل كانت الصدفة هى التى قادتنى فى بداية رحلاتى تلك إلى القصص المصوّرة للأطفال؟

فى الواقع كنت قد وجدت نفسى ذات يوم فى قرية من قرى إقليم الغال وهو الاسم القديم لفرنسا الحالية فى زمن وقوعها تحت الاحتلال الرومانى حيث تقابلت مع شخصيتين معروفتين فى

أدب الأطفال الفرنسى هما أستيريكس[1] وأوبيليكس[2] ثم وجدت نفسى فى الغرب الأقصى للقارة الأمريكية الشمالية مع لوقا ابن المحظوظة Lucky Luke ، الذى كان أسرع من ظله فى إطلاق النار على أعدائه. ثم وجدت نفسى بعد وقت قصير مندهشا منبهرا بمغامرات تان تان[3]، وبمهارته فى الإفلات من الأفخاخ التى تنصب له وبكلبه الصغير النبيه ميلو المستعد دائما لمساعدة صاحبه وهو نوع من الكلاب لا يمكن أن نراه عندنا فى حى الترواسان حيث لا تنشغل كلابنا إلا بالبقايا العظمية التى يمكنهم أن يقضموها بعد العثور عليها فى مقالب زبالتنا وهى كلاب غير قادرة على التفكير.

ثم كانت هناك شخصية زمبلا Zembla الذى كنت أتبعه وسط الغابات إلى حيث أراد أن يقذف بى بنفس الطريقة التى كان يستعملها طرزان Tarzan صاحب العضلات الذى كان يقفز بين الشجر مستعملا فى التنقل أفرع النباتات اللينة كما لو كانت حبالا. وكان هناك كذلك زورو Zoro الذى كان ماهرا جدا فى استعمال السيف فى حين كان أيزنزجود Iznogoud الحسود يريد أن يصبح خليفة بدلا من الخليفة الجالس على كرسيه. لا يمكننى أن أنسى أبدا المرة الأولى التى قرأت فيها عن بلد إفريقى وكان هذا البلد هو غينيا، وكنت أنا طفلا إفريقيا أسود، فى ذلك الوقت كنت منبهرا بمهنة الحدادة وبجدّيّة عمل الحدّادين وكنت مهموما بحل لغز ذلك الثعبان الذى زحف دون أن أشعر به ثم ابتلع عود النبات الأخضر الذى كنت أعتقد أننى أمسك به جيدا فى يدى.

---

(١) Asterix
(٢) Obelix
(٣) Tintin

ثم عدت بعد ذلك إلى موطنى ومسقط رأسى لأتذوق الثمار الشهية لشجرة الخبز وسبب التسمية هو أن ثمار تلك الشجرة تشبه أرغفة الخبز، أقمت فى حجرة بفندق يحمل اسما غريبا هو (فندق الحياة ونصف) وهذا الفندق لم يعد له وجود. فى المساء كنت أقضى كل وقتى بين احتساء نبيذ البلح والاستماع إلى موسيقى الجاز وهو ما كان يمكنه أن يسعد أبى جدا وكنت فى الليالى الباردة أدفئ جسمى بنيران المدفأة، لكن كان يجب علىّ أن أعود إلى الترحال من جديد وألا أكتفى راضيا بدفء مسقط رأسى فى أرض الأجداد، هكذا عدت إلى التجوال فى بقية دول القارة الإفريقية لأستمع هذه المرة إلى المرثيّات الكبرى والى أغانى الظلال. كان ينبغى أن أمرّ عبر عدد من المدن القاسية على أمل أن ألتقى بأحد الباقين على قيد الحياة من زمن القوافل الأخيرة. ثم قررت أن أتحرك باتجاه شمال القارة حتى أعيش هناك أقصى حالات العزلة ثم أشاهد تحويل مجرى النهر الكبير وأقيم هناك لبعض الوقت فى البيت الكبير المضاء خلال الصيف الإفريقى بأضواء الصيف الإفريقى.

غادرت القارة لأذهب باتجاه بلاد لا تقل حرارة عن البلاد الإفريقية حيث اخترقت قرية (ماكوندو) لأعيش هناك مائة عام من العزلة ومن المغامرات والاكتشافات حيث تركت نفسى أقع فريسة الافتتان بسحر شخصية (ملكياديس) وبسحر قصص العشق والجنون والموت ثم بعد ذلك أمرّ بالنفق الذى يقودنى إلى معرفة العواطف البشرية ولكن يجب أولا كما تعرفون أن أفتح المنزل الأخضر الذى أقام فيه رجل المطابع فى باريس ثم أذهب بعد ذلك إلى الهند لأنصت إلى كلمات الحكمة التى يترنّم بها (طاغور)

والمعروفة باسم جورا Gora، ومن هناك يجب أن أذهب إلى أوروبا فى حملة تفتيش بل فى حملة تمشيط عن العناصر الأجنبية هناك فرغم حب رجل المطابع لأوروبا إلا أن هذه الحملة لا غنى عنها خاصة لو قمت بها أنا الغريب الثائر المتمرّد الإنسان التقريبى أو شبه الإنسان هناك مشيت على الجليد خلف رجل يسمّونه دكتور زيفاجو وكانت تلك هى المرة الأولى فى حياتى التى أرى فيها الجليد.

من هناك عبرت بحر المانش إلى جزيرة جرنيزى(*) حيث أقام ذلك المنفىّ العجوز بوجهه المشوّه بالتجاعيد الذى يشبه جلده جلد الحمار الوحشى ولأنه أحد أجدادى فأنا أشعر نحوه بالشفقة. هناك كان يكتب قصائده دون أن يتوقف إلا لينشغل برسم أشكال بالحبر الشينى (الصينى) لأشخاص معلقين من رقابهم فى المشانق. وهو لم يكن أبدا يشعر بالتعب رغم الجيوب التى تتدلى من جلد وجهه أسفل عينيه، هو بسبب ضعف سمعه لم يشعر بخطواتى وأنا أقترب منه فتمكنت من النظر من فوق كتفيه إلى ما كان يكتبه، كان يسجّل قائمة العقوبات التى سيوقعها على الملك الذى كان قد اضطهده وطارده فى زمن ماض ثم يتوعّد هذا الملك شفهيّا بتوقيع كل تلك العقوبات عليه. من المعروف أن هذا الملك أثناء تعذيبه لصاحبنا كان يمنعه حتى من مجرّد الحق فى إغلاق عينيه، أطلق صاحبنا على هذا الملك اسم (نابليون الصغير).

حسدت هذا الرجل بلدياتى على شعر رأسه الرمادى وعلى لحيته الكثيفة الجديرة بأحد آباء الكنيسة وعلى حياته الطويلة التى

(*) Guernesey

عبرت القرن العشرين كله من بدايته إلى نهايته ثم إنه لم يكن نكرة ويذكر له أنه كان قد قال فى طفولته (إما أن أكون شاعرا مهما مثل شاتوبريان أو لا أكون أى شىء على الإطلاق فأنا لا أقبل أى حلول وسط)، أما أنا فقد أبديت إعجابى بنظرته الثابتة التى سبق أن لاحظتها فى صورته الموجودة بكتاب (لاجارد ميشار) عن تاريخ الأدب الفرنسى الذى يدرّسونه لطلاب المدارس الفرنسية فى المرحلة الثانوية وهو الكتاب الذى كنت درسته أنا أيضا عندما كنت لا أزال رجلا مثل الرجال الآخرين، ثم وجدت نفسى فى مقر إقامته فى فويلنتين(*) فخطوت إلى داخل حديقة المنزل واختبأت خلف أحواض الزهور، ومن موقعى ذاك راقبت الرجل العجوز المتمرّد والمعروف كذلك بمغامراته النسائية ورأيت كيف انحنى ظهره وكان واقفا وقد دسّ أنفه فى الأوراق الجافة لشجرة يقوم بإزالتها بحركة عصبية، وذات مرة كنت فى الحديقة على بعد خطوات منه أراه عبر زجاج النافذة المنخفضة وكان جالسا داخل منزله ثم تحرك ليحاول الوقوف فى مكانه ولكن بصعوبة ثم أراد أن يخرج من المنزل لتحريك أطرافه المتيبّسة فاختفيت فى الحال خوفا من أن تقع عيناه علىّ وغادرت المكان.

بعد رحلتى الطويلة تلك بين بلاد العالم عدت إلى حىّ الترواسان حيث أقمت ثم اعتدت على الذهاب كثيرا باتجاه المحيط الأطلنطى لأتسوّل بعض أسماك السردين من الصيّادين البنينيين وهم من مواطنى دولة بينين التى كان اسمها سابقا داهومى ثم تخيّلت ذات يوم أننى رأيت طائر الألباتروس وهو طائر بحرى كبير

(*) Feuillantines

يتحرك بطريقة تدل بوضوح على أنه لا يتمتع بمهارة خاصة فى تحريك جناحيه إذ يبدو كما لو أن جناحيه يثقلان جسمه أثناء طيرانه ثم إنه يلف ويدور فوق مياه المحيط بأمواجه الغاضبة طائرا دون توقف ودون أن يكون له هدف واضح من لفه ودورانه. وفجأة رأيت عند أكواخ الصيادين رجلا عجوزا نحيفا جافا قال لى بصوت مبحوح (أيها الرجل الشاب اسمح أن أقدّم لك نفسى اسمى سانتياجو وأنا صيّاد سمك ورغم أننى أحب الصيد إلا أن قاربى دائما ما يعود فارغا). عندما قال هذا الكلام كان هناك صبىٌ بصحبته بدا حزينا من مسألة عودة القارب فارغا كل يوم. ومع ذلك كان علىّ أن أستمر فى الترحال والابتعاد من جديد وكنت دائما أسافر هكذا أى فجأة وبدون أن أعرف لنفسى وجهة محددة أو هدفا بعينه بحثا عن لا أعرف ماذا.

كنت شابا أما اليوم فلم أعد أستطيع السفر إذ لم تعد لى الطاقة التى كانت لى سابقا ولا قوة التحمّل ولا قوة الإرادة فمع مرور السنوات بدأت أترك نفسى للريح تذرونى كما تشاء كما لو كنت من بين قاذورات الشوارع التى تذروها الريح فى كل اتجاه أو تجرفها تيّارات المياه فى نهر تحوّل عن مجراه. قبل مغادرة المشرب شاهدت وصول سيارة النقل بحمولتها من صناديق النبيذ الأحمر وكانت الصناديق فوق السيارة تتكوّم فى شكل هرم ضخم ثم لاحظت وجود مجموعة من الأطفال البشعين يحومون حول السيارة بحمولتها. قلت فى نفسى إن بلدنا أصبح فى حالة مزرية تماما مثل كومة من الزبالة أو كومة من الإفرازات البشرية القذرة التى يحوم حولها الذباب. ثم جاء رجل التفريغ وطردهم بعيدا عن هذه الغنيمة

الثمينة قال لهم (إن النبيذ ليس للأطفال البشعين وعليكم أن تنتظروا بلوغ سن الرشد وفى الوقت الحالى عليكم أن ترضوا بعصير الجريب فروت أو باحتساء اللبن الهولندى لمن هم الأصغر سنا من بينكم) فغادر الأطفال البشعون المكان وهم غاضبون. ثم نظرت إلى الكومة وقد بدأت تتراكم على الأرض إلى جوارى وتساءلت عن أىٍ من هذه الزجاجات ستكون الأولى فى اتخاذ الطريق المتعرّج من حلقى إلى بلعومى.

وقد استمر مسئول التفريغ فى تكويم الزجاجات إلى جوارى بطريقة جعلت شعر رأسى يقف ألما إذ كان غائب الذهن تماما ولا يظهر أى احترام لهذه الزجاجات التى يدين لها بخبزه اليومى. كنت أتحسّر لحال هذه الزجاجات المسكينة وهى ترتطم بعضها ببعض مما قد يؤدّى بها إلى فقد اتزانها بعد أن كانت فى صناديقها تقف متساندة إلى جوار بعضها البعض. مددت يدى وسحبت واحدة منها وأنا أشير إلى الحلزونى بأنى سآخذها الآن ثم أدفع ثمنها لاحقا قال (ليست هناك مشكلة يا زجاج فأنا أعرف أنه معك أنت لا داع للقلق أما مع الآخرين فأنا أجيبهم بأنى لا أبيع الخمر بالآجل لأن هذه الطريقة فى الدفع قد انتهت منذ زمن بعيد). هذا هو الدليل على الصداقة العميقة التى تربطنى بالعنيد.

(٣٧)

ثم جاءنى فجأة رجل البامبرز هل تذكرونه؟ إنه ذلك الرجل المسكين الذى يربط حول مؤخرته أربع طبقات متتالية من الحفّاظات. ظهر فجأة يدسّ أنفه الأحمر الذى يشبه أنف المهرّج

زاباتا[١]، ظهر هكذا فجأة لا أعرف من أين غالبا هو خرج من العلبة التى كان آلهة اليونان القديمة يحتفظون فيها بكل المخلوقات الشاذة ويسمّونها علبة باندورا Pandora ثم وقف هكذا أمامى. كان تنفّسه يبدو سريعا مقطوعا واللعاب يسيل من فمه وشعره يبدو مشعّثا وبشرته مغطاة بطبقة من الأتربة كما لو كان قد شارك للتو فى أحد طقوس عبادة الأرواح المنتشرة لدى زنوج تاهيتى ولم تكن لديه إلا فردة حذاء واحدة فى إحدى قدميه، لم يكن هو نفس الشخص الذى عرفته من قبل، لم أرد أن أنظر اليه بشكله البائس الذى ظهر به كما لو كان طفلا خطفوا منه ثمرة برتقال أو يوسفى كان ممسكا بها فى يده. هو الآن يعطيك الانطباع بأنه رجل تتلبّسه صورته وهو طفل، بالإضافة إلى كل ذلك الذباب الذى يحيط بمؤخرته.

وثب فجأة نحوى كما لو كنت أنا هو الشخص الذى أتى إلى هنا خصيّصا ليراه وقف أمامى تماما لا يتزحزح كما لو كان تمثالا منحوتا فنظرت إليه لأتأكد من أن هيئته هذه المرة تبدو أغرب من كل المرّات السابقة كان كمن طلب منه حلّ مسألة حسابية معقّدة تتعلق بمربّع وضع كوكبين بالنسبة إلى الأرض حين يشكل اتجاههما مع الأرض زاوية قائمة[٢] وقد جاء إلى هنا للاستعانة بى فى الحل بصفة أننى مدرس سابق. كان هذا بلاشك هو أحد أهم أسباب تقديم استقالتى المبكرة أقصد محاولة الناس الاستعانة بى فى حل جميع أنواع المشاكل، جلس إلى جوارى هذا الكائن الغريب الشاذ دون أن يكون قد نطق بعد بكلمة واحدة، وأنا أيضا لم أقل أى شىء،

---

(١) Zapatta
(٢) quadrature

سألنى (إلى أين وصلت فى كراسك؟ هل حكيت قصتى بشكل جيد؟) هززت رأسى كما لو كنت أقول نعم ولكن بدت عليه علامات عدم التصديق وقد هبطت نظرته إلى الكراس المفتوح أمامى على المائدة فأغلقته على الفور. بدأ من جديد فى رواية قصته مع زوجته بكل تفاصيلها مثل تغيير قفل الباب والاستعانة برجال المطافئ ورجال الشرطة خاصة التفاصيل المتعلقة بالشرطية التى وضعت يديه فى القيود الحديدية. كنت أستمع إليه بأذن واحدة فقد سبق لى تسجيل كل تلك التفاصيل فى كراسى.

قال (أنت لا تستمع إلىّ يا زجاج مكسور عندما أتحدث. ما هذه الزبالة؟).

رددت (من المؤكد أننى أنصت إليك يا صديقى الشجاع وإلى قصتك الحزينة فأنت محارب شجاع شجاعة نادرة الوجود فى الزمن الحالى).

قال (إذن لماذا لم تسجل هذا فى كراسك؟ أنت فى الحقيقة تقول كلمات جوفاء لتعزينى بها فى مصابى ولكنك لا تهتم بحطام الإنسان الذى تحولت أنا إليه حطام إنسان دمية مهرج بهلوان، أنت لا تصدق أننى فى منزلى كنت أدفع كل شىء الكهرباء والماء والإيجار....... قل لى على الأقل إنك تصدقنى).

قلت (يا صديقى إن حكايتك تثير اهتمامى وأنا لم أخدعك ولم أستهزئ بك).

قال (إذن ماذا تعتقد فى قصتى المجنونة؟ قل لى بصراحة هل ترانى أحمق؟ هل أنا فعلا ذلك الأحمق الذى ترانى عليه الآن؟ هل رأسى هو لدمية بهلوان؟).

قلت (ما زالت حياتك أمامك فحتى لو كانت زوجتك شريرة وكانت تخونك مع القائد الروحى لتلك الطائفة الملعونة فاعلم أن حياتك لا تزال أمامك).

هنا قفز فجأة من مكانه كما لو كنت قد وجّهت إليه إهانة أو سبابا.

قال (ماذا تقصد يا زجاج مكسور؟)

خشيت للحظة أن يتهوّر علىّ فقلت بهدوء:

(أردت فقط أن أذكّرك بأن زوجتك ما هى إلا ساحرة شريرة وأنه من الأفضل لك أن تنساها وأن تعتبرها ملفا مغلقا......... أنت لست أحمق وليس لك رأس المهرج البهلوان الدمية وإنما أنت رجل حسّاس المشاعر وكريم ومتفتّح على الآخرين وأنا لا أجد بسهولة الكلمات التى يمكنها أن تعبر عن طباعك النبيلة فأنت إنسان طيب).

ولكنى بدلا من تهدئته كنت بكلماتى هذه كمن وضع الزيت على النار......... وإذا بصوته وقد ارتفع فجأة.

قال (لا لا لا يا زجاج....... لن أسمح لك مطلقا بإهانة زوجتى السابقة بهذا الشكل........ لماذا تقول إنها ساحرة؟............ ولماذا تقول إنها تخوننى مع زعيم طائفتها الروحى؟......... ذلك الرجل الذى يظهر فى التليفزيون........ ثم لماذا تقول إنها شريرة؟....... إذا كنت أنت قد ذكرت هذا فى كراسك فذلك لأنك لم تفهم جيدا ما حكيته لك فى السابق ولهذا السبب فأنا أريد الآن أن أقرأ كراسك صحيح أنه كانت لدىّ بعض الشكوك بخصوصك ولكنك حقا قد خيّبت ظنى فيك).

أنا لم أعد قادرا على فهم أى شىء فها هو ذا يدافع عن زوجته التى طردته من منزله وأرسلته إلى السجن حيث جعلوا من مؤخرته خرّارة تخرّ طوال الوقت المياه المتعفّنة والقاذورات إلى نهاية حياته، وبصوت حاولت أن يبدو متسامحا.

قلت (يبدو أنك ما زلت تحب امرأتك).

قال (أكيد ما زلت أحبها ماذا كنت تعتقد؟ ثم لماذا تقول إنها ملف مغلق؟.......... أنا إذا استطعت يوما ما أن أعود رجلا طبيعيا كالرجال الآخرين بمؤخرة طبيعية تجف فيها السوائل بحيث لا أحتاج إلى كل هذه الحفّاظات .... فسأعود مؤكدا من جديد إلى محاولة استعادة زوجتى من الناحية العاطفية واستمالتها من الناحية الجسدية......... وسنعود إلى قصة حبنا وسأكتب لها قصائد حب تتكلم عن زهور الزنابق الناصعة البياض وعن زهور العندم الهندى الجهنمية الشديدة الاحمرار......... وسآخذها لزيارة مدينة كينشاسا على الضفة الأخرى من النهر......... لماذا تنسى أننا قد أنجبنا سويا ستة أطفال وأن هذا شىء لا يمكن الاستخفاف به........... أنا وثقت فيك وحكيت لك قصة حياتى وأنت تسخر منى وتتحدث عن ملف مغلق........... أنا أعرف أنك فى أعماقك تهزأ بى.......... اعطنى هذا الكراس لأقرأه فإذا لم تعطنى إيّاه فإن هذا سيسىء إلى علاقتنا......... حسنا فلتمح من كراسك كل ما كتبته عنى فأنا لا أريد أن يعرف الناس قصتى).

لم أعد أعرف كيف يمكننى إرضاءه يجب أن أعثر على أى شىء يسمح بتلطيف الأجواء المتوتّرة بيننا تلعثمت قليلا ثم قلت

(يسعدنى أن أسمعك تتحدث هكذا وعلى أى الأحوال أنا أساندك تماما وليس أنا من يهزأ بأصدقائه).

لم ينصت جيدا إلى ما قلته بل استمر فى مهاجمتى قال (لا لا لا يا زجاج أنا أشعر جيدا أنك لست مخلصا فى كلامك هذا لا يصح أن تدّعى الاقتناع بأشياء أنت غير مقتنع بها أنت ستجعلنى أفقد أعصابى......... قلت لك اعطنى هذا الكراس).

قمت من مكانى ووضعت الكراس على الكرسى ثم جلست فوقه وبهذا لن يستطيع أن ينزعه منى عنوة ولكنى كنت مذهولا بل كنت مصدوما إذ كيف لهذا الرجل أن يتحدّث معى بهذه الطريقة، فكرت فى أن أقول ما الحكاية يا صديقى؟ هل هناك مشكلة بيننا لا أتبيّنها بدقة؟ ولكن نظرا لأن الكيل كان قد فاض قررت أن أهاجمه بكل أسلحتى الثقيلة.

قلت (يا أحمق هل تريد فعلا أن أقول لك كم تمنيت لو أن حراس وسجناء سجن ماكالا كانوا قد أتلفوا لك مؤخرتك أكثر من هذا كم أردت لو أنهم كانوا قد اخترقوك تماما من مؤخرتك إلى حنجرتك).

ألقيت هذه العبارات هكذا فى وجهه لأنى كنت فقدت أعصابى.

ردّ (وأنت هل تعتقد أننى لا أعرف قصتك؟ أنا أعرف كل شىء وأتمنى أن تكون لديك شجاعة تسجيل قصتك فى كراسك لأنه من السهل جدا على المرء أن يحكى قصص الآخرين ولكن من الصعب عليه جدا أن يحكى قصته، أليس كذلك؟....... أنا أعرف أنك منافق حقيقى...... لا بل أنت جدير بالاحتقار.... أنت إنسان ضائع

ولكنك تلعب دور الرجل الحكيم...... فى حين أنك لا شىء على الإطلاق).

دفعنى كلامه هذا بالتدريج إلى الخروج عن حدود قوة تحمّلى ثم كان قيامه بأداء حركة وقحة بالذراع تدل على إهانة بالغة هو ما قادنى إلى الانفجار إذ لم يعد هناك بعد ذلك أى مجال لأى حوار بيننا.

قلت (ألا تعرف أننى أستطيع أن أمنعك من دخول هذا المشرب؟ ألا تعرف مدى الصداقة التى تربطنى بالحلزون العنيد؟ فهو صديق شخصى لى).

قال (هو صديق شخصى لى أنا أيضا بل هو صديق شخصى لكل الناس).

ثم أضاف بلهجة ترفّع واحتقار:

قال (أنا أعرف قصتك يا مكسور من الألف إلى الياء.......... وأنت لن تستطيع أن تخدعنى......... ألست أنت من كنت تعرّى ردفيك للتلاميذ عندما كنت مدرّسا؟......... أليست أمك هى سكيرة الحىّ وكان السكر هو السبب الحقيقى فى موتها غرقا فى نهر تشينوكا؟............ ألست أنت الشاذ جنسيا الذى اعتاد التعدّى على الأطفال؟........ ثم أليس هذا هو سبب فصلك من مدرسة الشهداء الثلاثة الابتدائية؟......... أليس سبب فصلك هو أنك كنت تشوّه معانى الطفولة؟).

حاولت ألا أخرج عن طورى وحاولت تهدئة نفسى بأن أقول لها إن كلامه هذا هدفه أن أفقد أعصابى ثم من قال إننى اعتديت على

أطفال؟ عن أى أطفال يتحدث؟ ثم كيف له أن يجرؤ على الإساءة إلى ذكرى والدتى؟ وعلى اتهامها بأنها سكيرة؟ فى حين أنها لم تكن تشرب البتة هل كان يعرف والدتى؟ هل رآها ولو مرة واحدة فى حياته؟ .... إن أمى بالنسبة لى لم تمت بعد إنها كل شىء فى حياتى هى تعيش بداخلى وتتحدث إلىّ لتقودنى فى حياتى وتحمينى........ أعتقد أننى لن أستطيع التسامح فى هذا التطاول على أمى ولن أقبل هذا التحدّى السافر خاصة من شخص مثل هذا القمىء الواقف أمامى، من هو هذا الشخص؟ ماذا يعتقد هو فى نفسه؟..... كان قلبى قد امتلأ بالكراهية تجاهه ثم بدأت أرتعد وترتجف أطرافى وشعرت وكأننى قد تحوّلت إلى حيّة رقطاء تريد أن تلدغ خصمها ولم أجد على لسانى إلا كلمات لاذعة مثل (أيها الغضب أيها اليأس كأننى لم أعش طويلا إلا لأنصت الى هذا السفيه ناطقا بهذه الأقوال المعيبة). كنت قد أصبحت فى حالة غضب لا مثيل لها.

قلت (اخرج من هذا المشرب أيها المتشرّد الجوّال الضائع).

قال (لن أخرج من هذا المشرب لن أتحرك من هنا فلست أنت مدير المشرب وإنما أنت عجوز أحمق فلماذا لا تحيل نفسك إلى التقاعد؟ زمنك انتهى وحانت ساعة موتك فاترك مكانك للشباب)

فى هذه اللحظة وقفت فى مكانى وتحركت باتجاهه فى حركات ثلاث كما لو كنا سنرقص معا رقصة الكراهية ثم أمسكت به من ياقة قميصه وقد استعدت قواى وكنت على وشك أن أرعد وأن أرغى وأزبد حتى وأن أنبح ثم هززته مثلما تهز إحدى زجاجات المشروبات الغازية ثم أرسلت إليه لكمة فى الوجه مثلما تفعل حيّة

رقطاء بلدغتها التى ترسلها إلى خصمها فى الوجه وقد جاءته من حيث لم يتوقع، بدأ الناس يتصايحون وكان بعضهم يشجّعنى على ضرب هذا الرجل القذر بمؤخرته القذرة وعلى أن أكسر له وجهه، وحيث إننى فى لحظة غضبى تحولت إلى رجل خطير شعر رجل البامبرز بالخوف منى وتبرّز فى حفّاظاته التى يضع منها أربع طبقات حول مؤخرته.

فى طفولتى كانت أمى قد صنعت لى حجاب تعويذة حتى أصبح قويا وأتمكن من حماية نفسى من الأشرار لأننى كنت طفلا يتيما وحيدا بلا أب ولا أخ وقد أتعرض للضرب فى المدرسة على يد زملائى الأشرار ولذلك فإن هذا الحجاب هو الذى يحيل ضرباتى إلى ضربات قاتلة وكل الرجال الذين تلقوا منى لكمات على الوجه يعرفون كم هى مؤلمة ورادعة هذه الضربات وقد أبادت تماما رجل البامبرز فى هذه المرّة.

سقطنا معا على الأرض وتدحرجنا سويا على التراب حتى وصلنا إلى حافة رصيف شارع الاستقلال غير بعيد عن المغنية الصلعاء وبدا لى كما لو أن كل سكان الحىّ كانوا قد خرجوا إلى الشارع لمشاهدة هذا الصراع وهم يتصايحون مشجعين المتلاكمِيَن فى مباراة الملاكمة هذه وكنت أنا بالنسبة إليهم محمد على فى حين كان خصمى هو جورج فورمان فى المباراة التى انتصر فيها محمد على على فورمان، إذ كنت أطير مثل الفراشة لألدغ خصمى مثل النحلة وهو ثقيل الحركة بقدميه المفلطحتين وبلا أى ردّ فعل حتى أنه بدا لى مثل ثمرة تالفة من ثمار الخضراوات التى يلقى بها على الأرض فى أسواق الخضراوات.

حتى لو حاول تسديد لكمة إلى وجهى كنت أراها وهى قادمة نحوى وأنجح بمهارة فى تجنّبها وكنت أتفوّق عليه إذا تضاربنا وتلاصق جسدانا وأكيل له الضربات بالقدم والرأس صحيح أنه كان يؤذينى أحيانا ولكنه فى المقابل حصل على قدر لا بأس به من اللكمات، لم أكن أريد التوقّف عن توجيه اللكمات إليه بسرعة ودقة حتى أنه بالطريقة التى كان يتلفت بها حوله اعتقد أن اللكمات تأتيه من عدّة أشخاص فى نفس الوقت. ثم عندما بدأ نزيف الدم من أنفه صاح بصوت مرتفع يطلب النجدة من أمه ورغم أنه أراد الانسحاب إلا أنى كنت بلا رحمة إذ ظللت ممسكا به أقذف به إلى الأرض الترابية ليسف التراب.

خرج الحلزونى العنيد من المشرب وعلى كتفه الأيسر ممسحة يستعملها فى التنظيف وجرى نحونا ثم أبعد الناس المتجمّعين قائلا (دعونى أمرّ ابتعدوا كلكم) وقد رفض الجمهور أن ينفضّ إذ يبدو أن المشهد الدرامى الذى قدمناه كان مسليا جدا، فرّق الحلزونى بيننا أنا وخصمى ثم قادنا إلى داخل المشرب ليجلسنا جنبا إلى جنب حول مائدة ثم قال (ما هى قصة المجانين تلك؟ أقولها لكما أنتما الاثنين أنا لا أريد مثل هذه المشاجرات فى مشربى ثم لماذا تتعاركان هكذا مثل شيطانين؟ هل تريدان أن تتسببا لى فى المزيد من المشاكل؟ هل تريدان أن يسحبوا منى ترخيص المشرب؟ من المفترض أنكما ناضجان وعاقلان ولكنكما تتصرفان مثل الأطفال فلم يحدث أبدا شجار مثل هذا فى مشربى فإذا جاء ممثلو السلطات إلى هنا قد يغلقون المشرب......... لا أريد المزيد من مثل هذه الحماقات عندى فى مشربى مفهوم؟ هل هذا واضح؟).

قلت (أقسم لك أنه البادئ فأنا لم أكن أريد هذا الشجار).

قال رجل البامبرز (هذا غير صحيح أقسم لك أنه البادئ هذا العجوز المدعو زجاج مكسور فأنا لم أكن أريد أن الاكمه وإنما كل ما أردته هو ألا يكتب عن حياتى أى شىء فى كراسه).

قلت (ألا تخجل من الكذب هكذا؟).

قال (أنت الكاذب فأنت تكتب عن الناس من خيالاتك كل ما يخطر على بالك فأنت تعتقد فعلا أنه يمكنك أن تكون كاتبا ومؤلفا).

وهكذا كدنا أن نتشابك بالأيدى من جديد هنا صاح المدير:

(توقّفا يكفى هذا لا أريد أن أعرف المزيد عن هذا الموضوع خذا الآن هاتين الزجاجتين وتصالحا بل تصافحا الآن أمامى).

فتصافحنا أمامه ولكن بأطراف أصابعنا فصفق لنا الناس الذين كانوا لا يزالون واقفين أمام باب المشرب من الخارج على أمل أن يتجدّد القتال ويستأنفون الفرجة.

شربنا الزجاجتين أنا ورجل البامبرز ثم أخذت كراسى المبعثر على الأرض وخرجت من المشرب لعمل جولة على الأقدام فى الأحياء المجاورة وفيما بعد حاولت فعلا أن أنسى ذلك الحادث.

لكل منا وساوسه ومخاوفه ولكن وساوس رجل البامبرز كبيرة جدا وهو يحملها على ظهره منذ زمن سحيق، أنا لم أحاول أبدا استثارة أى شخص وقد قلت هذا مرارا وقلت كذلك إن تلك الحادثة مع رجل البامبرز هى الأولى من نوعها لى فى هذا المكان ولهذا قلت لنفسى (يبدو فعلا أن ساعة الإحالة إلى التقاعد قد حانت كما قال

لى رجل البامبرز) وقد شعرت بالخوف من نفسى لأنى أدركت أننى كنت قادرا على الذهاب بعيداً جدا فى تلك المعركة مع رجل البامبرز • فما زالت لدى القوة اللازمة للتعارك، لكن من ناحية أخرى أنا لا أقبل أن يكون أحد الحمقى مثل رجل البامبرز هو السبب فى تعكير صفو مجرى حياتى الهادئ وفى إحداث اضطراب فى مملكتى الكائنة فوق السحاب. يجب أن أظل جديرا بالاحترام فأنا حارس أطلال هذه الأماكن.

صحيح أن لكل منا عيوبه إلا أننى أظنّ أن معدّل ذكاء رجل البامبرز هو دون المتوسط المعتاد يكفى أنه اعتقد أننى لم أعد قادرا على ضرب مؤخرته بحذائى لأننى تقدّمت فى السن ولكنى جعلته يفهم أن الديناصور يظل ديناصورا وأن مرور الزمن لا دخل له بهذه المسألة، ثم إننى كنت قد قررت ألا أنصت إليه أبدا بعد وقوع ذلك الشجار بيننا بل إننى كنت على وشك حذف قصته من كراسى هذا أو حتى حرق تلك الصفحات التى خصصتها له ثم قلت فى نفسى إنه قد يكون من المثير للاهتمام ترك تلك الصفحات فى موضعها من الكراس على أن أورد كذلك قصة معركتنا الصغيرة وذلك لأنه من الضرورى إضافة بعض التوابل والبهارات بين وقت وآخر حتى لا ينام القارئ بسبب الملل.

ثم لقد تبنيّت فلسفة جديدة فى الحياة بسيطة وذات كفاءة عالية فقد قررت أن أقول لكل الرسّامين إنهم يجيدون الرسم وأنهم يتميّزون كلهم بعبقرية أصيلة طبعا أقول هذا لكل منهم على حدة لأنك إن لم تقل لهم هذا لن تسلم من أسنانهم ولم أعد أعرف من سبق له قول هذا الكلام العاقل الحكيم لاشك أنه رجل جاد جدا

كان يقدّس والدته المتوفّاة وليذهب كل ما عدا ذلك إلى الجحيم رجل البامبرز وتغيير أقفال باب المنزل والمرأة الشرطية ورجال المطافئ من محبّى إشعال الحرائق فإن كل هذا لم يعد يعنينى ومن الآن فصاعدا لن أعد أبدا إلى ذكر أى من هذه المسائل.

(٣٨)

كنت للتوّ قد سألت عن الساعة سألت رجلا غريبا يحتسى الخمر يجلس على بعد مائدتين من مائدتى لم أره هنا من قبل يمسك بكتاب فى يده وعنوان الكتاب باللغة الإنجليزية وأنا لا أعرف هذه اللغة ولكنى أستطيع من مكانى هذا أن أتبيّن على غلاف الكتاب رسما لحصان هائج ولكنى لا أستطيع أن أقرأ من عنوان الكتاب إلا الكلمات(*) فباقى العنوان يختفى خلف اليدين الكبيرتين لذلك الرجل. عندما سألته عن الساعة تفرّس فى وجهى قليلا ثم ابتسم لى وكأنه يعرفنى ثم قال إن الساعة بين السادسة والسادسة والنصف مساء وحيث إننى لا أحب هذه الردود المائعة غير المحدّدة قلت له (ماهى هذه الطريقة الغريبة فى تعيين الساعة؟ فإنها إما أن تكون السادسة مساء أو تكون السادسة والنصف مساء)، فرد فورا بصوت مرتفع (اذهب إلى الجحيم أيتها الإسفنجة العجوز لقد ابيض شعر رأسك فى هذا المشرب ثم إن جسمك تفوح منه رائحة البراز المتعفّن ما الذى يبقيك هنا؟ ماذا تفعل؟ يجب أن تعود إلى منزلك لتقرأ على أحفادك قصص آمادو كومبا أو قصص موندو بدلا من أن تقضى أيامك هنا تنظر إلى الناس ثم تسجّل قاذوراتك فى ذلك الكراس).

(*) in the rye

لم أتمكن من الرد عليه فورا وذلك لأنى تبيّنت بوضوح أنه هو أيضا يبحث عن إثارة غضبى قلت فى نفسى (هذه هى أخلاق أخرى غير تلك التى تربيّت عليها وهى لا تصلح لزمنى أنا بل تصلح لزمنه هو هذا الرجل الذى لا تزيد قيمته عن قيمة بعض القاذورات ثم يأتى إلى هنا ليهزّ رأسه أمام أسد عجوز لم يعد يبغى من هذه الحياة إلا بعض الاحترام والتقدير وهأنذا أستقبل ضربات بالأقدام من طرف بعض المتفلسفين الجهلة) ثم خطرت ببالى فكرة أن أقوم لأسكت هذا المدّعى المتفاخر بتوجيه لكمة إلى فمه وقد شعرت من جديد بالحيّة الرقطاء تتحفّز بداخلى مثلما حدث فى اليوم الذى تعاركت فيه مع رجل البامبرز، سيطرت على أعصابى قائلا لنفسى (لم يعد هذا مجديا فهناك أشياء أخرى أكثر أهمية فى الحياة ولماذا أضيّع وقتى مع أناس على شاكلته يقرؤون كتبا بالإنجليزية) ومع ذلك دفعنى الغضب إلى أن أقول له كلمتين اثنتين سألته (أيها الشاب من أنت حتى تسمح لنفسك بأن تتحدّث معى بهذه الطريقة؟) سكت لحظة ثم قال (أنا جديد هنا واسمى هولدن).

أهزّ له رأسى بالتحية وأقول فى نفسى (فيما مضى كنت سأهتم بهذا الرجل فهو من المؤكد سيعترف لى بكل أسرار حياته ثم يبدو أنه يعيش فى زمن آخر أعتقد أنه ما زال يعيش فى زمن ما بعد الحرب العالمية الثانية)........ ولكن الآن لم تعد لدىّ الرغبة فى الإنصات مهما كانت تلك الحكايات مثيرة ومهما بدا لى ذلك الغريب كما لو كان مراهقا فى أزمة مراهقته رغم أنه قد تعدّى على ما يبدو سن الثلاثين، جسمانيا هو يميل إلى الامتلاء قليلا وبوجه منتفخ ثم إن حذاءه مثقوب ويبدو أنه على علم مسبّق بما

يمكن لحد سكين القدر أن يحدثه من جروح فى مصائر زبائن هذا المشرب، لم أعد أهتم الآن لم تعد لدى الحاجة إلى أن أنصت إلى أى كائن كان ولهذا فقد أدرت وجهى عن هولدن ولكنه لم يدر وجهه عنى.

قال (سأسألك سؤالا أنت أيها الحكيم الأكبر سنا).

لقد عرف كيف يثير فضولى فقد تساءلت يا ترى أى نوع من الأسئلة سيسألنى وانتظرت أسوأ أنواع الأسئلة.

قال (هل تستطيع أن تقول لى ماذا يحدث للبط المسكين الذى يعيش فى البلاد الباردة عندما يحلّ الشتاء هل تغلق عليه الأقفاص فى حدائق الحيوانات؟ هل يهاجر إلى بلاد أخرى؟ أم أنه يجد نفسه محاصرا بالجليد؟ ما هى إجابتك؟).

نظرت إليه بعينين مفتوحتين إلى آخرهما فإمّا أن هذا الشخص يسخر منى أو أن هذا الشخص هو أكثر شخوص المشرب اختلالا فى عقله ثم لماذا كان ينبغى أن أراه اليوم؟

قلت (لا أريد أن أنصت إليك ولم أعد أريد أن أنصت إلى أى شخص فى هذا المشرب لقد فاض بى الكيل ثم سحقا للبط ولا أهتم إن كانوا يحبسونه فى أقفاص أو أن يهاجر إلى بلاد أخرى أو أن يجد نفسه محاصرا بالجليد).

ثم أدرت له ظهرى فإذا به يهاجمنى من جديد.

قال (ستنصت إلىّ يا زجاج مكسور إنى أوجّه إليك الأمر بالإنصات فأنا أيضا أريد مكانى فى هذا الكراس فليس من العدل ألا تتحدث عنى إذ لدىّ الكثير من الأشياء المثيرة للاهتمام فى

حياتى الداعرة بل أقول لك إنى أكثر رجال هذا المشرب اثارة للاهتمام فقد ذهبت إلى أمريكا).

قلت (لا تتعب نفسك يا صديقى فلن تتمكن من جذب اهتمامى بلعبتك تلك فقد سبق لى أن سمعت هذا هنا من قبل إذ كان أحد زبائن هذا المشرب يعتقد فى نفسه أنه أكثر رجال المكان إثارة للاهتمام لأنه كان قد ذهب إلى فرنسا).

قال (نعم ولكنى آتى من بعيد جدا وليس هذا هو نفس الشىء).

قلت (أنت تدعو إلى السخرية يا صديقى فلا يمكن لأحد أن يأتى من مكان أبعد من ذلك الذى أتيت أنا منه).

قال (ماذا؟...... أنت يا من لم يأخذ الطائرة مرّة واحدة فى حياته تدّعى أنك أتيت من مكان أبعد من المكان الذى أتيت أنا منه؟.......... اتركنى أضحك...... فإذا كان هنا شخص واحد ظلّ كالجبل لا يتحرك أبدا من مكانه فهو أنت).

لم أجب عليه ثم ابتعدت عنه بضع خطوات،

قال (الا تريد حقا أن أقصّ عليك قصّة حياتى؟).

قلت (لا شكرا...... فالكأس قد امتلأ عن آخره).

قال (لقد أمضيت فترة من شبابى فى أمريكا).

قلت (أمريكا لن تجعلنى أغيّر رأيى).

وأدرت له ظهرى بشكل بدا نهائيا قاطعا بينما كان هو قد بدأ فى التذمّر.

قال (هذه زبالة....... كيف يرفض أن أحدّثه عن أمريكا؟ القوة الأولى فى العالم)، ثم قال (سأحاول معك من جديد وسينتهى بك الأمر إلى الإنصات...... فإذا لم تكتب قصتى فى أمريكا فإن كراسك هذا لن تكون له قيمة أكثر من قيمة الورق الذى نمسح به مؤخراتنا).

استمر فى الصياح رغم ابتعادى عنه، قال (زجاج مكسور إنى لا أمزح أريدك حقا أن تجيبنى ماذا سيحدث للبط المسكين الذى يعيش فى البلاد الباردة عندما يهبط الشتاء هل نحبسه فى حديقة الحيوان؟ هل نتركه يهاجر إلى بلاد أخرى؟ أم أنه حتما سيجد نفسه محاصرا بالجليد؟)

(٣٩)

ألقى بنظرة على مدخل المشرب فلا أصدق ما أرى ولكنها فعلا روبينات التى تظهر هناك ولكن فيها شىء مختلف فقد صنعت من جدائل شعرها ضفائر بعد أن كانت معتادة على ترك هذه الجدائل حرة طليقة منتفشة شائكة ثم إن ملابسها كذلك مختلفة فهى ترتدى تنّورة جديدة فوق سروال هولندى ملتصق بالجسم يزنق مؤخرتها الضخمة داخله، لاحظت الابتسامة التى قابلها بها الحلزونى العنيد كأنه يدعونى أنا أيضا إلى الابتسام وإلى الذهاب إليها لأصرح لها ـ حسب رأيه ـ بما فى قلبى من عشق ووله ولكنى لم أعد أريد أن ألعب هذه اللعبة فهى لم تعد تستحق المجهود الذى سيبذل فيها.

ها هى ذى تمر أمامى فأنظر إليها لحظة واحدة فتدرك على الفور التغيّر الذى حدث فى مشاعرى نحوها.

قالت (لماذا هذه النظرة؟ هل أنت تلتقط لى فقط مجرّد صورة فوتوغرافية؟).

قلت (لا أعرف عما تتحدثين؟ فأنا لم ألاحظ وجودك حتى لو كنت قد نظرت إليك فأنا أفكر فى أشياء أخرى).

توجّه إصبعها نحو وجهى، قالت (أنت كاذب ولا تريد إلا أن تغيظنى هل تعتقد فعلا أننى بهذه الملابس الجديدة التى أرتديها وبهذا التصفيف الجديد لشعرى لا أدير رؤوس الرجال؟).

قلت (أقسم لك أننى لم أرك وإن كان هذا لا يعنى أنك لم تديرى رؤوس الرجال الآخرين الموجودين هنا).

صاحت (أنت تحاول مضايقتى فأنا لا أهتم بالآخرين ولكن بك أنت قل لى لماذا لم ترنى؟)

قلت (إذن....... الحقيقة هى أننى رأيتك ولكنى قررت التظاهر بعدم رؤيتك حتى لا تعرفين أننى رأيتك).

قالت (هل تريد بكلامك هذا أن تقول إننى غليظة القوام؟ وأن هذا هو السبب فى أنك تتجاهلنى وتتظاهر بعدم رؤيتى؟ قل لى هل أنا سمينة؟).

هنا تساءلت بينى وبين نفسى عن السبب الذى من أجله يتحامل الجميع على شخصى الضعيف فى الفترة الأخيرة لماذا يتفقون جميعا على مهاجمتى؟ هل أدركوا جميعا أننى أشعر بالتقدّم فى السن؟ أشعر بالاقتراب من خريف عمرى؟ وبالتالى أشعر باقتراب اللحظة التى سأفقد فيها سلطتى الأبوية عليهم عندما أفقد عقلى؟ هل يرون الآن أن لكل منهم الحق فى أن يعبّر بحريّة

عن رأيه الحقيقى فى شخصى الضعيف؟ هل يرون أننى قد انتهيت وبالتالى لم يعد أحد يخشانى؟ هل يعتقدون أننى لم أعد أساوى ولا حتى كوبيك واحد بالعملة الروسية؟ ولا أساوى حتى فرنكا واحدا بالعملة المحلية؟ هنا جاءنى شعور مفاجئ بأن سنوات عمرى الأربع والستين تثقل كاهلى وأنه لم يعد هناك وقت للانتظار.......... أصبح كل شىء يفقدنى أعصابى وأصبحت غير قادر على متابعة الأحداث وأصبحت أكثر هشاشة وأكثر عرضة للتأثر بتلك الأحداث........... لم أعد أستطيع الردّ على الحمير التى ترفسنى..........

فأولا كان هناك رجل البامبرز الذى أكل رأسى بالقصة الخالدة لحرمه المصونة التى غيّرت أقفال باب منزلهما فى الساعة الخامسة صباحا وبينما كنت أنصت إليه متعاطفا معه بنيّة خالصة مثل الكلب المرافق للرحالة أوليس جرؤ الوقح على مهاجمة ذكرى المرحومة أمى مما أدّى إلى اندفاعنا فى العراك وإلى إحساسى بالحية الرقطاء داخلى تريد لدغ خصمها باللدغة المميتة.

ثم ثانيا هناك رجل المطابع فرغم أن المسائل لم تتدهور معه إلى الحد الذى تدهورت إليه مع رجل البامبرز ولكن رجل المطابع هو الآخر نجح فى إثارة غضبى بتلك القصة المتعلقة بمجلة بارى ماتش.

وها هو ذا اليوم الحالى يأتى بحلقة ثالثة من مسلسل التعاسة مع ذلك الرجل الغريب ذى الوجه المنتفخ الذى أتى على ما يبدو من أمريكا ويدّعى أن اسمه هولدن ولا ينشغل إلا بمصائر البط فى الشتاء القارس ويعاملنى كما لو كنت عجوزا بل كما لو كنت متخلفا

عن العصر الذى أعيش فيه ثم يطالبنى بتخصيص خريفى الأخير كبطريرك ذى سلطة أبوية لقراءة الروايات لأحفادى مثل مغامرات موندو وقصص آمادو كومبا ألا يعرف أنه ليس لدىّ أحفاد؟ الخلاصة هى أن كل الناس متوتّرون عصبيا كما لو أننى كنت آذيتهم فى شىء لا أدركه جيدا.

والآن تأتى روبينات هى الأخرى لتمارس معى دورها فى التوتّر العصبى. ما هى هذه اللعنة التى أصابتنى؟ حاولت أن أكون مهذبا معها.

قلت (أنا لا أريد أن نتجادل معا يا روبينات فأنا أعجب بك وأقدّرك أقسم لك).

قالت (هذا أيضا كذب فأنت لا تقدّرنى كما تدّعى بل فى الواقع أنت لا تقدّر أى شخص فى هذا المشرب باستثناء الحلزونى العنيد).

قلت (ما الذى يجعلك تعتقدين أننى لست معجبا بك؟).

قالت (لأنك كاذب من الدرجة الأولى أنت تكذب مثلما تتنفس أنت حتى لا تحترم شيبة شعر رأسك).

كدت أفقد صوتى ولكنى همست إليها .

قلت (أعتقد أنك تخطئين فى ظنونك تلك يا روبينات........... اعطنى إذن مثالا واحدا على كذبى اذكرى لى متى وكيف كذبت عليك ولو مرة واحدة).

نظرت إلى السماء كما لو كانت تفكر.

قالت (هل سبق وأن قدّمت لى زجاجة نبيذ واحدة لا لم يحدث أبدا إنك فى الواقع شديد البخل وأنانى حتى أنك تدّعى أنك لم ترنى بل أنا متأكدة من أنك تحتقرنى كما لو كنت وباء الطاعون.......... دعنى أسألك هل تعرف عدد الرجال الذين يجرون خلفى ليناموا معى؟)

سقط ذراعاى إلى جوارى ثم نظرت فى عينيها.

قلت (خذى هذه الزجاجة وسأدفع لك ثمنها).

فوجئت برفضها واحتدادها ثم برفع صوتها.

قالت (لا ثم لا ثم لا ..... ماذا تعتقد أيها الأحمق؟..... أننى شحّاذة فقيرة؟ أم أنك تريد أن تجعلنى ثملة ثم أفقد وعيى فتمارس معى أفعالك القذرة؟).

غلب صوتها على الضوضاء المعتادة فى المكان فالتفت الرجال برؤوسهم نحونا بل حتى جاءت بعض الضحكات الساخرة صادرة من عمق المشرب لقد أصبح الكل يتابع الآن هذا المشهد المسرحى وأصبحت متضايقا جدا مما يحدث إذ يجب أن أجد وسيلة أخرج بها من هذا الموقف، ولكن كيف؟........ أريد أن أبتعد عنها وعن المكان كله بأسرع ما يمكن، نظرت إلى ساعة يد المتمرّد المتأمرك هولدن ذلك الذى كان قد وبّخنى منذ لحظات والذى ما زال جالسا على بعد مائدتين منى أسمعه يسأل الرجال الذين حوله عن مصير البط فى البلاد الباردة عندما يهبط الشتاء....... الغريب هو أن ساعة يد هولدن كانت كبيرة الحجم جدا أقرب شبها بالمنبّه والأغرب هو أنه بسبب حجمها الذى لا يسمح بوضعها حول المعصم كان يعلقها حول رقبته وهو بالتحديد ما سمح لى من مكانى أن ألمح

عقاربها وأستدلّ بها على الوقت قلت فى نفسى يجوز أن هذه هى الطريقة التى يحمل بها الأمريكيون ساعاتهم حول رقابهم وذلك لأنهم يحبّون المبالغة فى أحجام كل شىء.......... ثم صحت بصوت مرتفع.

قلت (يا إلهى لقد أصبحت الساعة التاسعة مساء).

ثم قمت من مكانى بنيّة مغادرة المشرب وكانت روبينات لا تزال واقفة على بعد خطوتين منى.

قالت (لا تتحرّك من مكانك يا زجاج قبل أن تدفع لى ثمن الزجاجة التى وعدتنى بتقديمها لى وإلا فإن المسائل بيننا ستتدهور تماما).

زاد انفعالى وغضبى وانفلات أعصابى.

قلت (عليك اللعنة يا روبينات يجب أن تعرفى وتحدّدى ماذا تريدين منى بالضبط).

قالت (لماذا تفقد أعصابك يا صغيرى؟ هذا ليس جيدا لصحتك ثم إنه يزيد من تجاعيد وجهك الموجود منها عدد كبير فوق جبهتك).

اتجهت ناحية المنضدة التى عادة ما يقف النادل خلفها بنيّة دفع ثمن هذه الزجاجة الإضافية حيث كان الحلزونى العنيد هذه المرة واقفا. ابتسم لى وهو يمدّ يده بالزجاجة الإضافية كأنه كان يتابع حوارنا كله ثم همس لى:

قال (بعد أن تشربا هذه الزجاجة يمكنك أن تأخذها معك إلى بيتك).

حركت رأسى بعلامة النفى، قلت (إنها مجنونة وتميل إلى اتهامى بكل النواقص والموبقات سأدفع لها ثمن هذه الزجاجة ولن أنتظر منها أى مقابل).

قال (أنت غلطان ويجب أن تتوقف عن التباكى والنواح ثم اذهب للتصالح معها فإنها قادرة على أن تغير لك أفكارك اسمع كلامى).

ضحك ضحكة ساخرة ثم أضاف، قال (إنها تحبك وترغب فى مشاركتك الفراش وهذا شىء واضح جدا وضوح الأنف الكبير فى منتصف الوجه وستصحبك هى إلى إحدى الغرف التى تؤجّر لمثل هذا الغرض أو يمكنك أن تذهب هنا إلى واحدة من غرفى الخاصة فأنت فرد من أفراد العائلة وأنا أعطيك الضوء الأخضر للمرور).

لم أصدّقه فيما يتعلق بموضوع أن روبينات تميل إلىّ بالإضافة إلى أننى شخصيا لم تعد لدىّ رغبة فى النوم معها....... فى الواقع أنا أريد أن أنساها تماما فهى ترهقنى بأسلوبها العدائى المستمر وقد نفدت تماما كل طاقات إعادة الشحن داخل جسمى ثم إننى لا أستطيع أن أتخيّل نفسى وأنا أعتليها فقدت هذه الرغبة، أنا الآن رجل إذا عشق فهو يرغب فى أن يكون موضوع عشقه على مسافات بعيدة منه.لا أريد أن أظل هكذا أدور فى حلقات مفرّغة، قررت رغم كلمات الحلزون أن أغادر المكان وأذهب للنزهة على الأقدام فى شارع الاستقلال أتنفّس بعض الهواء قبل أن أعود إلى منزلى عند منتصف الليل.

اتجهت ناحية الباب ففوجئت بالحلزونى يعترض طريقى.

قال (إلى أين تنوى الذهاب؟)

لا أرد فيمسكنى من يدى اليمنى ولكنى أظل على صمتى، أعطيه الكراس حسب العادة اليومية فأنا أترك الكراس فى المشرب كل ليلة عند مغادرتى إيّاه ثم فى اللحظة التالية مباشرة ولا أعرف لماذا أفكر فى أنى أريد أن أستعيد منه الكراس ولكنى لم أتمكن من استعادته إذ أراد هو أن يحتفظ به فرجوته أن يعيده إلىّ.

قال (لماذا تريد الآن استعادته؟ وأنت لم تعطه لى إلا منذ لحظة واحدة.......... ألا ترى أن الوقت قد تأخر الآن على الكتابة؟ إنك عادة لا تكتب شيئا بعد الساعة العاشرة مساء وقد تولد لدى إحساس الآن بأنك قد تريد تمزيق الكراس ولذلك لن أردّه لك إلا صباح الغد).

قلت (أريد أن أتحقّق فيه من شىء ما ردّه لى ولو للحظة أقسم أننى سأعيده على الفور ولا أريد أبدا أن أمزقّه كما تعتقد).

يقلب المدير صفحات الكراس بطريقة متعجلة.

قال (لكنه قد امتلأ تقريبا عن آخره ولم يعد متبقيا فيه إلا بضع صفحات قليلة خالية متى كتبت كل هذا؟).

لم أجب ولكن ظهرت ابتسامة شاحبة على وجهى فاقترب منى ثم همس:

قال (مازال عرضى قائما اصعد الآن لتنام فى واحدة من حجراتى بالطابق العلوى خذ المفتاح ويمكنك أن تدعو روبينات إلى اللحاق بك فقد تحدّثت إليها مسبقا فى هذا الموضوع وهى موافقة).

أُبعد يده اليمنى الممدودة بالمفتاح وأنتهز الفرصة فى نفس اللحظة لأخطف الكراس من يده اليسرى ثم أعيده إليه فى اللحظة التالية:

قلت (يمكنك الآن أن تحتفظ به إلى الأبد فقد انتهيت من المهمة التى كنت قد كلفتنى بها).

انهش قليلا ثم قال (كيف أن مهمتك قد انتهت فى حين تظل بعض الصفحات خالية؟).

ثم يعيد النظر فى الكراس ببعض التركيز هذه المرة ثم يتنهد.

قال (أنا لم أنظر جيدا المرة الأولى لماذا تبدو الصفحات متداخلة؟ والموضوعات متشابكة؟ كما لو أنه ليس هناك أى نظام فى هذا الكراس....... ثم إنك لا تضع نقطة فى نهاية الفقرة أنت لا تضع إلا الفواصل أو بعض علامات التنصيص عندما يتحدث الناس وهذا ليس طبيعيا ألا تعتقد أنك يجب أن تعيد كتابة هذه النصوص مع إدخال بعض التنظيم عليها؟ كيف يمكن قراءة هذه النصوص التى يلتصق بعضها ببعض؟ كان ينبغى ترك مساحات خالية بين الفصول حتى يستطيع القارئ أن يتنفس قليلا أو حتى أن يستريح من القراءة............ كنت أتوقع منك شيئا أفضل من هذا لقد خاب ظنى فيك اعذرنى فإن مهمتك لم تنته بعد إذ يجب أن تبدأ من جديد وتعيد صياغة النصوص كلها).

لم أجد على لسانى ردًا عليه إلا تكرار عبارة (انتهت المهمة) وأدرت له ظهرى أريد أن أخرج فكاد أن يصــرخ، قال (أين تذهب يا زجاج؟).

قلت (سأذهب لأتنفس بعض الهواء بعيدا عن المشرب ثم أعود إلى منزلى).

قال (منزلك هو هنا).

قلت (سأعود لاحقا).

ألقيت عليه نظرة أخيرة وكان مستمرا فى تقليب صفحات الكراس ثم سمعته وأنا أغادر المكان يبدأ بصوت مرتفع فى قراءة الهذيان الذى كنت قد وضعته فى الصفحة الأولى من الكراس .

قرأ (أعطانى مدير مشرب لو كريدى كراسا وطلب منى أن أملأه بالكتابة وهو يعتقد اعتقادا جازما بقدرتى على ذلك قدرتى على أن أضع كتابا كما تضع الدجاجة بيضها وذلك لأننى كنت أمزح معه ذات مرة فحكيت له حكاية كاتب مشهور كان يحتسى الخمر مثلما تمتص الإسفنجة السوائل ثم يسقط مخمورا على أرض الشارع.......... إذن لا ينبغى فيما بعد أن أمزح مع المدير لأنه يأخذ كل شىء بجدّية تامة).

(٤٠)

أثناء خروجى من المشرب كنت أحاول أن أخترق لى طريقا بين الناس المتجمّعين كالمعتاد عند الباب أو على الطوار أمام الباب وكان النادلان مومبيرو ودنجاكى يحاولان اللحاق بى بإمساكى من ملابسى قائلين معا كما لو كانا مغنيين فى جوقة واحدة (نرجوك تعال هنا يا زجاج مكسور........ يمكنك أن تأخذ كراسك) فآخذ كراسى وقلمى وأسجل فى الكراس ذلك الحوار الأخير مع الحلزونى ثم أبتسم لفكرة أن لا أحد منهم يعرف أننى سأسافر هذا المساء مع

سمكة سومون هى فى ماء نهر تشينوكا وأنا مشيا على أقدامى بامتداد شاطئ النهر وأننى سألحق هناك بأمى حتى نشرب معا ذلك الماء الذى قضى على حياة المرأة الوحيدة فى حياتى التى كانت تقول لى (ابنى الحبيب يا من أحببت وأحبّ وسأحبّ حتى لو كنت قد أصبحت اليوم مجرّد قمامة).

كانت أمى هى أجمل امرأة على هذه الأرض ولو كانت لدىّ موهبة أدبية حقيقية لكتبت عنها كتابا وضعت له عنوانا مثل (كتاب أمى)......... أعرف أن أحدهم قد سبقنى فعلا إلى تأليف كتاب يحمل هذا العنوان ولكن (زيادة الخير خيرين) كما يقول المثل، كان ينبغى لهذا الكتاب أن يكون فى نفس الوقت (الرواية الناقصة) على غرار السيمفونية الناقصة و(كتاب السعادة) و(كتاب رجل وحيد) و(كتاب الرجل الأول) و(كتاب العجائب) وهى كلها عناوين كتب سبقنى إليها كتاب آخرون، سأكتب لأمى على كل صفحة مشاعر الحب والأسف وسأبنى لأمى بيتا على ضفاف الدموع وسأخترع لأمى أجنحة حتى تصبح ملكة ملائكة السماء وتصبح ملاكى الحارس وتحمينى من أعدائى، سأطلب منها أن تسامحنى على هذه الحياة الزيالة التى عشتها هذه الحياة التى وضعتنى فى صراع دائم مع السائل الأحمر لنبيذ سوفينكو أن تسامحنى على الإحساس بالسعادة الذى كنت أشعر به كلما نظرت بإمعان إلى زجاجات النبيذ، أنا أعرف أنها قادرة على أن تسامح كل هفواتى وتقول لى (يا ابنى كان كل هذا من اختيارك وما كنت أنا بقادرة على مساعدتك).

ثم تحكى لى عن طفولتى وتذكر لى كيف أنها ربّتنى وحدها وكيف أنها هربت من قرية لو بو لو بعد وفاة والدى وكيف أننى

ذهبت بعد ذلك إلى المدرسة الشعبية فى كوى كو وكنت آخذ طريق المدرسة وحدى كل صباح وكنت أمشى لمدّة ساعتين حتى أصل إلى المدرسة، هنا تأتى صور من مغامراتى كطفل جريا إلى الساحل المهجور، فى ذلك الوقت لم أكن أريد أن أكبر فى السن إذ تنقلب الحياة بعد سن الثانية عشرة إلى مزبلة وينقلب الناس إلى قمامة، لذلك أقول إن الطفولة هى أسعد فترات حياتنا وذكرياتها هى ممتلكاتنا الغالية والأكثر قيمة وكل ما عدا الطفولة هو تراكم قمىء للإهانات والحماقات، وخلال مرحلة من عمرى لنقل مرورا بالمراهقة وحتى بداية الشباب تمكنت من الاحتفاظ بحب الاستطلاع الذى كنت أنظر به إلى الأشياء بالإضافة إلى أننى لم أكن أخاف من تلك الحكايات الأسطورية التى تشيع أن سواحلنا البحرية تسكنها كائنات كل منها عبارة عن نصف امرأة ونصف سمكة وهى التى نسميّها هنا (مامى واتا).

وعندما أستعيد هذه الصور من مرحلة الطفولة دائما ما أجد فى خلفيّتها البحر الذى يمتد على مرمى البصر حيث كان البجع يهبط من طيرانه ليستريح قليلا على الساحل الرملى وقد ثقلت أجنحته من إرهاق كثرة التجوال، وكنت فى ذلك الوقت دائم التساؤل عن الكائنات التى يعجّ بها عالم أعماق البحار، كذلك كنت قوى الاعتقاد بأن قاع البحر هو العالم الذى يعيش فيه الأسلاف والأجداد بعد موتهم وأن ماء البحر المالح هو بسبب عرق أجسادهم أثناء حركتهم الدائمة الدؤوب فى عالمهم الجديد، وقد صنعت منى كل هذه المعتقدات طفلا شاطئيا حقيقيا إذ لم يكن يمرّ يوم دون ذهابى إلى الميناء ولم تكن أمى تقول شيئا ولم يكن هناك صوت أبوى يقول شيئا وهكذا كان يمكننى أن أطير إلى هناك وأحضر

معى عند العودة إلى المنزل فى المساء سمكة تونة كانت أمى تقطعها إلى أجزاء صغيرة ثم تلقى بها جزءا جزءا فى حلة ألومنيوم كبيرة ثم نجلس لنأكل فى صمت.

كانت أمى تقول لى (لا أريدك أن تعود مرة أخرى إلى الساحل المهجور فهناك يموت الناس بسبب الأرواح الشريرة وقد وجدوا أمس على الشاطئ المهجور طفلين ببطنين منتفخين وبعيون منقلبة إلى الداخل لا تظهر منها إلا الأجفان ولا أريد يوما أن أراك هكذا لأنك إذا متّ فسأتبعك على الفور لأنى لا أستطيع أن أعيش بدونك لأنه فقط من أجلك أنت وحدك أستمر أنا فى الحياة)، ومع ذلك فصباح اليوم التالى هربت من المدرسة ومتخفيا عن الأعين قدر الإمكان أخذت مكانى فى سيارة نقل الشركة البحرية وهى سيارة بكوابح مستهلكة تنقل موظفى الميناء إلى مقر عملهم ولم يكن الموظفون يطردون الأطفال من السيارة لأنهم كانوا معتادين على وجودهم بل إنهم كانوا غالبا يرحبّون بوجودهم فعند الوصول إلى الميناء كان الأطفال يعاونونهم أحيانا فى بعض أعمالهم الشاقة ولهذا كان الموظفون يتزاحمون قليلا فيما بينهم ليتركوا لنا نحن الأطفال مكانا أكثر اتساعا فى السيارة.

بمجرد وصولى إلى الميناء كنت أتنفس الصعداء فهأنذا فى عالمى المفضّل كنت أولا ألاحظ قطعان الكلاب الضالة المصابة بمرض الكساح تتنقل فى الميناء وقد سال من فم كل منهما لعابه فألاحظ ذيولهم الملويّة وهى تتنازع بقايا الأسماك مع طيور البحر من بجع وألباتروس ثم يأتى الذباب لا نعرف من أين يحوم حول الغنيمة مثلما يحوم النحل حول عريشة خليّته. ثم كنت أركز بصرى

فى الأفق وأفكر كيف سأقضى النهار وإن كان بمستطاعى اليوم فى المساء أن أعود بسمكة تونة إلى المنزل فقد حدث كثيرا أن عدت إلى المنزل خائبا خالى الوفاض بسبب المنافسة الشديدة مع الأطفال الآخرين خاصة لو تفوقوا علىّ فى القوّة الجسمانية وفى الخبرة بالأعمال المتعلقة بالبحر.

وفى الأيام التى كان عددنا يفوق فيها العدد المعتاد أو كان الصيادون أقل كرما من المعتاد أو كانوا يمنعوننا لسبب أو لآخر من الاقتراب من مراكبهم موجّهين إلينا أحيانا بعض ألفاظ السباب القاسية فى مثل تلك الأيام كان ينبغى إمّا أن أتعارك أو أن أكون من بين أكثرهم سرعة من أجل الحصول على جزء من الغنيمة، وحين كنا نلمح مركبا يرسو على الساحل الرملى بعيدا عند خط الأفق كنا نجرى نحوه متدافعين صاخبين مطلقين صيحات الفرح ثم نقفز فى الماء بالقرب من المركب لنجعل الصيّادين يعتقدون أننا نساعدهم فى تجميع شباكهم الممتلئة بالسمك أو فى استقرار المركب فى مرساها على الساحل الرملى ثم لا نبتعد بعد ذلك عن هؤلاء الصيادين بمقدار بوصة واحدة حتى اللحظة التى يكافئوننا فيها ببعض السمك فكل من هؤلاء الصبية الذين كنت بينهم كان يحلم بأن يعود إلى أمه بسمكة تونة. نعم....... هذه هى طفولتى.

أعود إلى تلك اللحظات البعيدة التى كنت أقرأ فيها على ضوء مصباح ضعيف فتقول لى أمى (القراءة لا تنفع فى أى شىء وما هى إلا تبديد لطاقة العين وقد تؤدّى إلى فقد البصر)......... ومع ذلك كنت أستمر فى القراءة بظهر ينحنى طوال الوقت على كتاب وبجبهة مبتلة بالعرق إذ كنت فى سبيلى إلى اكتشاف أسرار الكلمات كنت

أحاول اختراق الكلمات حتى نخاعها وكنت مستعدا فى مقابل ذلك أن أبدّد طاقة عينى كما تقول أمى فقد اعتقدت دائما أن الإصابة بقصر النظر هى الدليل الأكيد على الذكاء وأن قصيرى النظر هم من بين الناس الذين قرأوا كل شىء الناس الذين يشعرون بالملل أمام الجهلة من أفظاظ الأرض لذلك أرت أن أصبح قصير النظر حتى أشعر بالملل من الجهلة أفظاظ الأرض.

كنت أفضل قراءة الكتب المطبوعة بحروف صغيرة لأنى عرفت أن قراءة هذه الكتب هو الطريق إلى الإصابة بقصر النظر والدليل على ذلك هو أن أغلب القسس الأوروبيين المترددين على حىّ الترواسان كانوا من بين قصيرى النظر ومستعملى النظارات السميكة العدسات وكان ذلك بدون شك هو بسبب قراءتهم لكتاب أورشليم المقدّس ألف مرّة ومرّة بدون توقّف......... وقد كبرت هكذا بعينين مقيّدتين إلى صفحات الكتب فى انتظار اليوم الذى سأذهب فيه إلى الطبيب لأضع على عينىّ أنا الآخر نظارات سميكة العدسات مثل القسس الأوروبيين.......... فى انتظار اليوم الذى سأؤكد فيه للعالم أجمع أننى إنسان ذكىّ إنسان كامل إنسان يقرأ كثيرا.......... انتظرت ذلك اليوم ولكنه لم يأت أبدا ولم أفقد بصرى أبدا بل إننى حتى لم أحتج إلى وضع أى نوع من أنواع النظارات على عينىّ والله وحده يعلم لماذا، تظل قدرتى على الإبصار هى أكثر قدرات جسمى حيوية وشبابا القدرة الجسمانية الوحيدة التى لم تحل بها مظاهر الشيخوخة التى حلت فى كل الأجزاء الأخرى من جسمى.......... هذا ليس عدلا ولكنه ليس خطئى وإنما هكذا الحياة.

(٤١)

أخيرا وبعد أقلّ من ساعتين سأكون مع أمى وحدى معها وجها لوجه وسنتحدّث سويا لمدة طويلة ثم تماما عند منتصف الليل سأقذف بنفسى إلى أعماق هذه المياه يكفى أن أعبر الكوبرى ثم أتوقف فى منتصفه ثم أقذف بنفسى فى المياه فتأتى المغامرة فورا وسأكون سعيدا لأنى سأكون قد لحقت بأمى وفى اليوم التالى لن يكون هناك المزيد من الزجاج المكسور فى مشرب لو كريدى وللمرة الأولى قد يكون الربّ قد أصلح الزجاج الذى أمضى حياته كلها مكسورا وهكذا قد ترتسم بسمة على وجهى حيث سأكون فى العالم الآخر لأنى سأتمكن أخيرا من نطق عبارتى المحبّبة (لقد أنهيت مهمتى).

يجب أن أرحل إذ لم يعد هناك ما يعنينى فى كل هذه الأماكن ويجب أن أتخلص من هذا الكرّاس ولكن أين ينبغى لى إذن أن ألقى به؟ .... حقا أنا لا أعرف.......... وهكذا أستدير عائدا إلى مشرب لو كريدى وأنا لا أعرف لماذا أستدير......... قد يعتقد من يرانى الآن أننى مختل العقل وذلك لأنى مستمر فى الكتابة أثناء محاولتى اختراق هذا الحشد من زحام البشر....... يمرّ الآن أمامى ذلك الشخص الذى يدّعى أن اسمه هولدن وأسمعه من جديد يعيد نفس البلاهات والترهات التى لا يتوقف عن ترديدها والتى تليق فقط بمراهقين مضطربين ثم يسألنى (زجاج مكسور هل تستطيع أن تقول لى ما هو مصير البط البائس المسكين الذى يعيش فى البلاد الباردة عندما يهبط عليه فصل الشتاء هل يغلقون عليه الأقفاص فى حدائق الحيوانات؟ هل يهاجر هو إلى بلاد أخرى؟ أم

أن هذا البط المسكين يجد نفسه محاصرا بالجليد؟ حقا أريد أن أعرف).

لقد حفظ هذا النص على ما يبدو عن ظهر قلب ويكرره كما هو دون أى تغيير لا فى الكلمات ولا حتى فى ترتيب الكلمات.

قلت (هولدن ألا تظن أنه كان من الأفضل لك أن تطرح هذا السؤال على بط البلاد الباردة نفسه عندما كنت أنت عندهم هناك فى تلك البلاد الباردة؟) ثم أضفت (أنا أعتقد أنه من ضمن الأشياء التى تقرؤها فى هذا الكتاب الذى تمسك به فى يدك منذ رأيتك لأول مرة بل أنا متأكد).

نظر إلىّ نظرة خيبة أمل ثم غمغم (أنت لست متعاطفا مع هذا البط المسكين إذن أنت لا تحبّه أرى الآن أن هذا هو الموضوع......... ولكنى فى الحقيقة أريد فعلا أن أعرف الإجابة على السؤال فأنت لا تستطيع أن تتخيّل المصير الذى ينتظر تلك المخلوقات المسكينة). ثم بدأ فى النحيب.

عدت إلى سؤاله من جديد عن الساعة رغم المنبّه المعلق حول رقبته قال (لن أخبرك بالساعة إذا لم تخبرنى عن مصير البط المسكين فى البلاد الباردة عندما يحلّ الشتاء) ثم تقدّم نحوى حتى اقترب منى جدا ثم تأملنى لحظة ثم قال (إن الساعة تقترب الآن من منتصف الليل) .

قدّمت له الكراس وهمست فى أذنه قلت (أعطه للحلزونى العنيد وأوصيك ألا تفتحه حتى لو عرفت الآن أنك بداخله ولكنى لم أرد أن أتحدّث عن حياتك إذ لم يكن لدىّ الوقت الكافى لذلك فضلا عن أنك لم تكن لتذكر لى إلا أنك كنت طالبا أجنبيا وأن

أحد زملاء عنبر النوم كان قد ضربك على رأسك وأنك كنت تتسكع هنا وهناك فى مانهاتن بنيويورك وأنك شاهدت هناك البط فى حديقة السنترال بارك فى الشتاء.......... لا تنظر إلىّ بهذه العيون المفتوحة عن آخرها فأنا لم أضع قدمى أبدا هناك ولا حكى لى أى شخص عن قصة حياتك هل تعتقد أننى لا أستطيع أن أتخيل حدوث كل هذا؟ أقول لك إذن إنك قد أهنتنى الآن بطريقة ما ولكن ليس هذا مهما........

المهم هو أن تتذوق نبيذك وأن تعيش حياتك وسنتقابل حتما يوما ما فى العالم الآخر عندها يمكننا أن نحتسى سويا كوبين من النبيذ ويمكنك أن تحكى لى ساعتها قصة حياتك بالطول وبالعرض وقد أجيب ساعتها على سؤالك بخصوص موضوع البط وسأذكر لك ساعتها المصير الذى سيؤول إليه هذا البط المسكين عندما يحلّ الشتاء فى البلاد الباردة التى يعيش فيها.

وداعا يا صديقى

يجب الآن أن أرحل

فإن مكانى هو فى الجنّة

وهناك فى الأعالى

إذا جاءتنى بعض الملائكة بسوء نيّة

ليحكوا لى أكاذيبهم

مخاولين منعى من الدخول عبر الباب الكبير

لن أسمح لهم بمنعى من الدخول

لأنى إذا لم أتمكن من المرور بالباب الكبير

فسأدخل الجنة من النافذة).

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١ ـ «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالڤينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢ ـ القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ ـ أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ ـ شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ إسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتَّه كروناور» مختارات.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٢٢ ـ مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٢٣ ـ اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٤ ـ البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٥ ـ بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٢٦ ـ بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٢٧ ـ عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

٢٨ ـ العار.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. ر واية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سيئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ انقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم مآ.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الإسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ نُريد أن نتحدث عن كيڤين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «مورييل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

٧٨ ـ حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ غدًا.. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

٨١ ـ أن نُصبح أغرابًا.. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

٨٢ ـ المرأة المسكونة.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دى لاس أمير كاس.

٨٣ ـ بيتر كامينتسند.. للكاتب الألمانى «هِرمَن هيسّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

٨٤ ـ بيت السيد بيسواس.. للكاتب من ترينداد «ف. س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

٨٥ ـ مدريد الأصيلة.. للكاتب الإسبانى «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

٨٦ ـ لافينيا.. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كى لى جوين».. رواية جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى.

٨٧ ـ أشجار متحجرة.. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٨٨ ـ سنوات الهروب.. للكاتب الكولومبى «بلينيو أبوليو ميندوثا».. رواية.. جائزة بلازا إى خانيس.

٨٩ ـ الباحث عن الذهب.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٠ ـ جائزة أو. هنرى.. مجموعة من المؤلفين.. قصص قصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو. هنرى لـ عام ٢٠٠٧.

٩١ ـ الحيوان المُحتضر.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة بن /نابوكوف.

٩٢ ـ أنشودة ألاباما.. للكاتب الفرنسى «جيل لوروا».. رواية.. جائزة الجونكور.

٩٣ ـ إنجيل الابن.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٤ ـ الوصمة البشرية.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٩٥ ـ ليتنى لم أقابل نفسى اليوم.. للروائية الألمانية «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٦ ـ حكاية أوزوالد.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الأول. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٧ ـ حكاية أوزوالد.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الثانى. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٨- وبنى لها معبدًا.. للكاتب الألمانى «سيجفريد أوبرماير».. رواية.. جائزة شيلزهايم.

٩٩ - جنون المتاهة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدر».. رواية.. جائزة صنداى تايمز لكاتب شاب.

١٠٠ - الملك ينحنى ليقتل.. للكاتبة الألمانية «هيرتا موللر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

١٠١ - العبد.. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية.. جائزة نوبل.

١٠٢ - الفراشة والدبابة.. للكاتب الأمريكى «إرنست همنجواى».. قصص.. جائزة نوبل.

١٠٣ - التجمع.. للكاتبة الأيرلندية «آن إنرايت».. رواية.. جائزة البوكر.

١٠٤ - موندو.. للكاتب الفرنسى «ج.م.ج لوكليزيو» قصص.. جائزة نوبل .

١٠٥ - الكون فى راحة اليد.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلى».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

١٠٦ - جزيرة صغيرة.. للكاتبة الإنجليزية «أندريا ليفى».. رواية.. جائزة الأورانج .

١٠٧ - حياتى .. للكاتبة الأمريكية «إيزادورا دونكان».. سيرة ذاتية.. جائزة الكتاب القومى.

١٠٨ - تيو.. للكاتبة النيوزيلندية «باتريشيا جريس».. رواية.. جائزة ميدالية ديوتيز للرواية وجائزة مونتانا للرواية.

١٠٩ ـ الجولة وحوادث مؤثرة أخرى.. للكاتب الفرنسى «ج. م. ج لوكليزيو».. قصص.. جائزة نوبل.

١١٠ ـ ذهول ورعدة.. للكاتبة الفرنسية «إميلى نوتومب».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

١١١ ـ أوليف كيتريدج.. للكاتبة الأمريكية «إليزابيث ستراويت».. رواية.. جائزة البوليتزر.

١١٢ ـ زهرة الكركديه الأرجوانية.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى».. رواية.. جائزة الكومنولث لأفضل كتاب أول.

١١٣ ـ ثمة شيءٌ أقول لكم.. للكاتب البريطانى من أصول باكستانية «حنيف قريشى».. رواية.. جائزة بن بنتر للأدب.

١١٤ ـ قلبٌ ناصعُ البياض.. للكاتب الأسبانى «خابير ماریاس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب (تشيلى).

١١٥ ـ كتاب الزنوج.. للكاتب الكندى «لورانس هيل».. رواية.. جائزة الكومنولث للكتاب.

١١٦ ـ ملك كاهل.. للكاتب الفرنسى «تيرنو مونينمبو».. رواية.. جائزة رينودو.

١١٧ ـ البينيلوبية.. للكاتبة الكندية «مارجريت أتوود».. رواية.. وسام الفنون والآداب الفرنسى ١٩٩٤.

١١٨ ـ فوس.. للكاتب الاسترالى «باتريك وايت».. رواية.. جائزة نوبل.

١١٩ ـ هناك حيث النمور فى أوطانها.. للكاتب الفرنسى «جان ـ مارى بلاس دو روبليس».. رواية.. جـ١.. جائزة ميديسيس.

١٢٠ ـ هناك حيث النمور فى أوطانها.. للكاتب الفرنسى «جان ـ ماری بلاس دور روبليس».. رواية .. جـ٢.. جائزة ميديسيس.

١٢١ ـ «الناقوس الزجاجى».. للكاتبة الأمريكية «سيلڤيا بلاث».. رواية .. جائزة البوليتزر.

١٢٢ ـ «لا حواء ولا آدم».. للكاتبة الفرنسية «إميلى نوتومب».. رواية .. جائزة دى فلور.

١٢٣ ـ «ذكريات ترانى» .. للكاتب السويدى «توماس ترانسترومر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

١٢٤ ـ «التصحيحات».. للكاتب الأمريكى «جوناثان فرانزن» رواية .. جائزة الكتاب الوطنية الأمريكية.

١٢٥ ـ «أعداء» (قصة حب).. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية جائزة نوبل.

يصدر قريباً من هـذه السلسلة

١ ـ الإحساس بالنهاية.. جوليان بارنز .. جائزة البوكر الدولية.. ٢٠١١.

٢ ـ رُبَّ جملة بعشرة آلاف جملة.. ليوتجن يون .. جائزة ماودون ٢٠١١.

٣ ـ حب الغربان .. بيتر فافرتسينيك .. جائزة باخ مان ٢٠١٠.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

آلان مابانكو، كاتب من الكونغو.

- ولد آلان مابانكو عام 1966 في برازافيل.
- يقيم في الولايات المتحدة حيث يُدرّس الأدب الفرنكفوني في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس.
- كتب الشعر والرواية والقصة القصيرة والدراسة.
- من أعماله الشعرية: "أسطورة التيه"، "الأشجار أيضا تذرف الدمع"، "حين يعلن الديك عن فجر يوم جديد". ومن أعماله الروائية: "الأزرق الأبيض الأحمر"، و"جنازة أمي"، و"أحفاد فيرسين جيتوريكس"، و"الأفريقي المختل العقل"، و"مذكرات شيهم"، و"البازار الأسود"، و"زجاج مكسور" و "غداً سأكون في العشرين من عمري".
- حاز العديد من الجوائز، من أهمها: جائزة "جان كريستوف" من جمعية الشعراء الفرنسيين، الجائزة الأدبية الكبرى لأفريقيا السوداء، جائزة "جورج براسانس". وسام جوقة الشرف من الرئيس الفرنسي "نيكولا ساركوزي" وقد حازت الرواية التي بين أيدي القارئ الكريم "زجاج مكسور" على الجائزة الدولية الفرنكفونية عام 2005

الجائزة: الجائزة الدولية الفرنكفونية

هى جائزة حديثة نسبيًا تأسست عام 2001، وهي موجهة للقارات الخمس، للأعمال الروائية المكتوبة باللغة الفرنسية، وهدفها الأوّل إثراء اللغة الفرنسية بتجارب إبداعية من جنسيات الكتاب المختلفة. ولا يتقدم بها إلا الناشرون بأعمال يرون أنها تستحق الجائزة وتحقق الهدف منها، وذلك على ألا تتعدى ترشيحات كل ناشر الثلاث روايات. تتكون لجنة التحكيم من نقاد الأدب والناشرين والعاملين في مجال النشر، أما لجان القراءة فتتكون من: جمعية جائزة الشباب الفرنسية "فرنسا"، ورابطة كتاب السنغال "داكار"، ورابطة الكتاب "كندا"، ورابطة القراء "بروكسل". وهذه اللجان هي التي تحدد القائمة الأخيرة المكونة من عشر روايات، يُعلن الفائز منها في أوائل شهر يوليو، وبالإضافة إلى قيمة الجائزة المالية ومقدارها عشرة آلاف يورو، يحظى الفائز بعام كامل من الترويج لأعماله في الفعاليات الأدبية المختلفة والمعارض الدولية، وذلك بدعم كامل من المنظمة الدولية الفرنكفونية.



تدور أحداث هذه الرواية في الكونغو مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين. و"زجاج مكسور" هو الاسم الحقيقي وليس اسم الشهرة لبطل الرواية الذي هو الراوي في الوقت نفسه، وهو مدرس متقاعد تعدى سن الستين، ولذلك تبوح جميع شخوص الرواية له بمشاكلهم وهم يعتقدون أنه بفضل سنه المتقدمة، وبفضل علمه قادر أن يساعدهم في أزماتهم، أو على الأقل أن يفهم تلك الأزمات لا أن يسخر منها ومنهم، كما قد يفعل أغلب الناس عند الاستماع إلى مآسيهم.

إن قدرة "آلان مابانكو" الفائقة على السخرية الفكاهية الخفيفة اللاذعة من كل شخصيات العمل تبدو واضحة وضوحًا شديدًا بامتداد صفحات الرواية، ولا ينجو منها أحدٌ ابتداءً من شخصية رئيس الجمهورية قائد الجيوش الذي ينتظر بفارغ الصبر أن تقوم حرب أهلية في بلاده حتى يتمكن من كتابة مذكراته، ومرورًا بشخصيات مجلس وزرائه ومستشاريه الذين ينظرون بحسرة إلى عشرين عشيقة من مختلف الجنسيات اللائي يحتفظ الرئيس بهن في قصره الرئاسي، وانتهاء بشخصيات الناس العاديين الذين يتناثرون في فصول الرواية.

الروائى: آلان مابانكو، كاتبٌ من الكونغو.
الجائزة: الجائزة الدولية الفرنكوفونية 2005.



الهيئة المصرية العامة للكتاب


ISBN# 9789774485978
6 221149 031951

18 جنيهًا

تصميم الغلاف: هند سمير